

علي بن إبراهيم النملة

السعوديون

والخصوصية الدافعة

وقفات مع مظاهر التميز في زمن العولمة



الألوكة
www.alukah.net

العبيكان
Obekan

السُّعُودِيُّونَ وَالْخُصُوصِيَّةُ الدَّافِعَةُ

وَقَفَاتٌ مَعَ مَظَاهِرِ التَّمْيِيزِ فِي زَمَنِ الْعَوْلَةِ



السُّعُودِيُّونَ وَالْخُصُوصِيُّونَ الدَّافِعَةُ وَقَفَاتٌ مَعَ مَظَاهِرِ التَّمْيِيزِ فِي زَمَنِ الْعَوْلَةِ

إعداد

عَلِي بِنُ إِبرَاهِيمَ الحَمَدِ النَّمَلَةَ

العبيكان
Obekkan

ح) مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النملة، علي بن إبراهيم

السعوديون والخصومية الدافعة: وقفات مع مظاهر التميز في زمن العولمة، / علي بن إبراهيم

النملة - الرياض، ١٤٢٨هـ

٣١٢ ص، ٢١×١٤

ردمك: ٠-٢٥٨-٥٤-٩٩٦٠

١- المقالات العربية - السعودية - أ. العنوان

١٤٢٨/٢١٦٠

ديوي: ٠٨١.٥٣١

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٢١٦٠

ردمك: ٠-٢٥٨-٥٤-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للناسر

التوزيع: مكتبة العبيكان
Obeykan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤/٤١٦٠٠١٨ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

الناسر: مكتبة العبيكان
Obeykan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف: ٢٩٣٧٥٨١/٢٩٣٧٥٧٤ فاكس: ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات:

الاستهلال: كلمة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن	
عبدالعزیز.....	١١
المدخل.....	١٥
الفصل الأول: مفهوم الخصوصية	١٩
الوقفة الأولى: المفهوم.....	٢١
الوقفة الثانية: الهاجس من الخصوصية.....	٢٩
الوقفة الثالثة: الاقتناع.....	٣٢
الوقفة الرابعة: خصوصية المرأة.....	٣٥
الوقفة الخامسة: التقويم الهجري.....	٣٩
الوقفة السادسة: الماضوية.....	٤٢
الوقفة السابعة: التنازلات.....	٤٦
الوقفة الثامنة: صورة بلادنا.....	٥٢
الفصل الثاني: السعوديون والركن الثاني	٥٧
الوقفة الأولى: الفوائد.....	٥٩
الوقفة الثانية: المسجد.....	٦٢
الوقفة الثالثة: خصوصية الرسالة.....	٦٥
الوقفة الرابعة: خصوصية العلماء.....	٧٢

- ٧٥ الوقفة الخامسة: بناء المساجد
- ٧٨ الوقفة السادسة: المصليات
- ٨١ الوقفة السابعة: الصلاة في السفر
- ٨٥ **الفصل الثالث: السعوديون والركن الرابع**
- ٨٧ الوقفة الأولى: رمضان
- ٩٠ الوقفة الثانية: في العبادة
- ٩٣ الوقفة الثالثة: الاحتفال على الصيام
- ٩٦ الوقفة الرابعة: التدخين في رمضان
- ٩٩ الوقفة الخامسة: التوبة في رمضان
- ١٠٣ الوقفة السادسة: المشقة في الصيام
- ١٠٦ الوقفة السابعة: الصلح في رمضان
- ١٠٩ الوقفة الثامنة: تكرار شهر رمضان
- ١١٣ الوقفة التاسعة: احترام الصائمين
- ١١٨ الوقفة العاشرة: الفقراء في رمضان
- ١٢١ الوقفة الحادية عشرة: الإعلام في رمضان
- ١٢٤ الوقفة الثانية عشرة: الفرحة في رمضان
- ١٢٧ الوقفة الثالثة عشرة: في وداع رمضان
- ١٣١ الوقفة الرابعة عشرة: إصرار على خدمة الصائمين
- ١٣٥ الوقفة الخامسة عشرة: عيد الفطر

- ١٣٩..... **الفصل الرابع: السعوديون والركن الخامس**
- ١٤١..... الوقفة الأولى: الاستعداد للموسم.....
- ١٤٤..... الوقفة الثانية: خصوصية المكان.....
- ١٤٧..... الوقفة الثالثة: الحج والتميز.....
- ١٥٠..... الوقفة الرابعة: الحج المؤتمر.....
- ١٥٣..... الوقفة الخامسة: أهل الذكر في الحج.....
- ١٥٦..... الوقفة السادسة: تكرار الحج.....
- ١٥٩..... الوقفة السابعة: التيسير في الحج.....
- ١٦١..... الوقفة الثامنة: السعداء في الحج.....
- ١٦٥..... الوقفة التاسعة: الاستطاعة في الحج.....
- ١٦٩..... الوقفة العاشرة: التنظيم في الحج.....
- ١٧٢..... الوقفة الحادية عشرة: الحجاج من الداخل.....
- ١٧٨..... الوقفة الثانية عشرة: الداعمون في الحج.....
- ١٩٠..... الوقفة الثالثة عشرة: منغصات في الحج.....
- ٢٠٩..... **الفصل الخامس: السعوديون والأمن**
- ٢١١..... الوقفة الأولى: الأمن التربوي.....
- ٢١٥..... الوقفة الثانية: خصوصية التربية.....
- ٢١٩..... الوقفة الثالثة: مفهوم المنهج.....
- ٢٢٢..... الوقفة الرابعة: الأمن العلمي.....
- ٢٢٦..... الوقفة الخامسة: الأمن الفكري.....

- ٢٢٩..... الوقفة السادسة: الأمن الثقافي
- ٢٢٢..... الوقفة السابعة: الأمن اللغوي
- ٢٣٩..... الوقفة الثامنة: اللغة والأسماء التجارية
- ٢٥٠..... الوقفة التاسعة: الانتماء اللغوي
- ٢٥٦..... الوقفة العاشرة: إنقاذ اللغة
- ٢٦٥..... **الفصل السادس: السعوديون وفعل الخير**
- ٢٦٧..... الوقفة الأولى: العناية بالمصاحف
- ٢٧١..... الوقفة الثانية: الأمر بالمعروف
- ٢٧٥..... الوقفة الثالثة: دعوة الجاليات
- ٢٨٠..... الوقفة الرابعة: الدورات النوعية
- ٢٨٢..... الوقفة الخامسة: فعل الخير
- ٢٨٧..... الوقفة السادسة: نشر الدعوة
- ٢٩٠..... الوقفة السابعة: العمل الإغاثي
- ٢٩٤..... الوقفة الثامنة: تنسيق العمل الإغاثي
- ٣٠٠..... الوقفة التاسعة: المراكز الصيفية
- ٣٠٢..... مراجع ورد ذكرها في هذه الوقفات

الاستهلال:

كلمة صاحب السمو الملكي الأمير
سلمان بن عبدالعزيز آل سعود
أمير منطقة الرياض

الملتقى الأول للمثقفين السعوديين، الرياض، شعبان ١٤٢٥هـ

«لقد سررت عندما دعاني معالي وزير الثقافة والإعلام لأحضر معكم هذا اللقاء، وافتتاح الملتقى، الذي يرجى منه الخير الكثير - إن شاء الله -. وأنتم أيها المثقفون لم تأتوا من فراغ، بل هناك رواد سبقوكم في قرون مضت. فبلادنا ليست بلاداً قفراً من الثقافة، بل هي منطلق الثقافة. وهذه البلاد لها خاصية تميّزها بين جميع البلدان، وخاصيتها تجاه الملايين من البشر إليها، وهي مهبط الوحي، وانطلاق الرسالة.

ومهمتنا في هذه البلاد الحفاظ على هذه الرسالة، التي اقتحمت العالم ككل، وتأثر المسلمون بثقافات العالم، أثناء نشر هذه الرسالة، واستفادوا منها، وأضافوا حسناتها إلى ثقافتهم. والفتوحات الإسلامية انطلقت بالدعوة والفكر، فاجتاحت آسيا، ثم أفريقيا فالأندلس.

وثقافتنا لم تتأثر بالثقافات الآسيوية فحسب، بل بالإغريقية اليونانية، فانصهرت هذه الثقافات، وذهبت إلى الأندلس. ونحن

نعرف جميعاً تأثير هذه الثقافة على بقية أوروبا والعالم. إذا نحن لسنا غريباء عن الثقافة، حتى قبل الإسلام. وكلكم تعرفون مكانة الأدب العربي المقفّى والمنثور، وهو تراث نعتزُّ به.

إننا يجب أن نطور، ونجدد، ولكن لا ننسى تراثنا الفني الذي نعتزُّ به، فأقول بأن من يركن إلى الجمود ينسى أن الإسلام جديد ومتطور، وكذلك يجب ألاّ ينسينا الاهتمام بالتطوير والتجديد تراثنا الإسلامي المجيد.

واعلموا أن ثقافتنا المؤثرة في العالم، وهذا البيت المعمور الذي تهفو إليه أفئدة الناس، منة من الله تعالى عزّ وجلّ، فيجب علينا أن نتقدّم، ونعمل، وننشر الفكر، ونبدع، ولكن تحت مظلة لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله، فكل شيء يتعارض مع عقيدتنا وتعاليم ديننا نرفضه، بلا غلو ولا تفريط، فكلما فرطنا زاد الغلو، وكذلك العكس، والإسلام يرفض المغالين والمفرطين رفضاً باتاً، فنحن أمة وسط، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ

أُمَّةً وَسَطًا لِيَتَّكِفُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...

﴿البقرة: ١٤٢﴾. وهذا يجعلنا نستفيد من ثقافة غيرنا ونؤثّر عليه بثقافتنا، فإسلامنا يحثنا على التعاون والاستفادة من كل ما فيه خير للإسلام والمسلمين. وهذا واضح جلي منذ القرون الأولى من الهجرة، حيث كُثرت الترجمة والاطلاع على ثقافات الأمم.

إن هذه الدولة قامت على الدعوة إلى التوحيد، لا على العصبية القبلية. وليس هناك دعوة دون فكر وقوّة. ولا يوجد دولة تقوم إلا

بهما. فالقضية ليست تسلطاً، وإنما قوةٌ لتحقيق العدل وجمع الناس تحت كلمة واحدة. فوحدتنا وحدة عربية إسلامية، ليس فيها تفريق قبلي أو إقليمي، فبلادنا قامت على التوحيد، وستظلُّ - إن شاء الله - . وعندما أقول هذا الكلام فأنا أعبر عن رأيي، ورأي الأغلبية الساحقة. فاجعلوا بين أعينكم مصلحة دينكم وبلادكم، وابدعوا بإصلاح أنفسكم.

إن الحديث معكم لا يُملُّ، وقد قلت كلمتي هذه ارتجالاً؛ لأنها خرجت من القلب إلى القلب. وأكرّر الشكر لوزير الثقافة والإعلام على دعوته. وأشكركم على إنصاتكم».

سلمان بن عبدالعزيز

المدخل:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداة، وبعد

فهذه خواطر تدور حول طبيعة تكوين المجتمع السعودي، منذ أن نشأت فكرة إقامة دولة سعودية، متخذةً من كتاب الله تعالى، وسنة نبيّه محمّد بن عبد الله ﷺ منهجاً، تسير عليه في نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي، فكان أن قامت الدولة على ذلك، مما أوجد فيها نوعاً من التميّز بين الدول المجاورة، وداخل المحيط العربي والإسلامي، من خلال تحكيمها للشريعة الإسلامية، التي اقتضت عدداً من الإجراءات والأنظمة والقواعد، التي كانت مجال توقّف ونقاش مستمرّ من لدن جهات، لم تنظر إلى هذا النهج على أنه توجه يمليه المنهج، وليس مجالاً للتنظير أو التنازل، لاسيّما مع سعة الأفق في فهم المنهج، وتبني مفهومات السماحة والاعتدال والمنهج الوسط في النظر إلى الأحكام الشرعية، على اعتبار أن مقاصد الأحكام مصالح الأنام. وأي حكم ليس فيه مصلحة للأنام فإنه مشكوك في ثبوته في مصادر التشريع الإسلامي، أو أن تطبيقه قد شطّ يميناً أو يساراً، وعلى اعتبار أن هذا الدين لم يأمر بشيء إلا وفيه مصلحة، ولم ينه عن شيء إلا وفيه مضرّة للفرد والجماعة، مهما بدت عليه المنفعة، فإن المضرّة فيه هي الغالبة.

من هنا صار المجتمع السعودي مجتمعاً متميّزاً، تنتظر إليه الشعوب الإسلامية نظرة خاصّة، لاسيّما أن فيه الحرمين الشريفين، وفيه قيادة سياسية وعلمية تخدم ما يومئ له وجود هذين الحرمين الشريفين، فهناك خدمة جليّة واضحة، بالعمارة الحسينية والمعنوية، لهذين الحرمين الشريفين، وبالتالي لحجّاج بيت الله تعالى والمشاعر المقدّسة، وزيارة مسجد رسول الله ﷺ، والسلام على الحبيب - عليه الصلاة والسلام - في المدينة المنورة، وهناك خدمة لكتاب الله تعالى، من حيث حفظه وطباعته وترجمة معانيه وتوزيعه، والمسابقة على حفظه نصاً وروحاً. وهناك خدمة لسنة رسول الله ﷺ وسيرته العطرة، من خلال مراكز بحوث السنة والجوائز التي تعطى للمعتين بالحديث النبوي الشريف.

هناك توكيد على التمسك بهذا المنهج، من حيث الخدمات التي تقوم بها الدولة، حكومةً وشعباً، لضيوف الرحمن في كل عام، ومن حيث إسباغ الروحانية على الشعائر الإسلامية في الصلوات الخمس، وفي شهر رمضان المبارك، ومن حيث تبني منهج الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ومن حيث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهكذا في شتى مناحي الحياة، حيث جعل الشرع الحنيف هو الحكم في هذه الشؤون كلها.

الحق أن المملكة العربية السعودية لم تتفرد بهذا النهج، دون العالم الإسلامي، ولكنها جسّدتته مثلاً يحتذى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين/ العشرين والحادي والعشرين

الميلاديين، حيث طفى، أخيراً، التوجُّه إلى تبنّي منهج معولم، تذوب فيه الثقافات، وتتصهر المبادئ والقناعات، في نماذج مصاغة من جهة واحدة، جعلت من ذاتها وصيةً على العالم، في ضوء تنامي هيمنة القطب الواحد، وإملائه قناعاته التي لم تخلُ، ولا ينتظر منها أن تخلو، من خلفية ثقافية مستمدّة من دين ما، مهما كان الضخُّ نحو علمنة المجتمعات والدول. وبالتالي اكتسبت المملكة العربية السعودية قدراً من الخصوصية الدافعة، لا تلك الخصوصية الراجعة الحاصرة، التي يختبئ وراءها من يخشون الإقلاع.

تأتي هذه الخواطر لتؤكد على هذا النهج القويم، لا من حيث التوكيد على "ضرورة" المضي في الخصوصية والتميّز، والتفرد بذلك، لأن المجال يسمح بكل رحابة في تبنّي هذا النهج من الخصوصية، إذ إنه ليس وقفاً على المجتمع السعودي، بل إن السعوديين يدعون إليه، ويرحبون بمن يتمثله على المستوى الحكومي، والشعبي قبل ذلك، ولكن من حيث طرح عدد من الشواهد التي تؤيد هذه الخصوصية على مستويات عدّة.

كانت هذه الخواطر وقرّات أسهم بها كاتبها في الصحافة السعودية، ورئي أنها تستحق إعادة النظر، والتطويع للزمان والتطوّرات، فأعيد تحريرها، وسعيت إلى توثيقها بالمراجع التي استقيت منها معلوماتها، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً. تبع هذا إعادة النظر فيها، من حيث الأفكار والصيغة والتوثيق.

هي مناسبة أتقدم فيها بالشكر الجزيل لكل من أسهم في تقويم هذه الوقفات، ووصولها إلى ما هي عليه الآن. وأخصُّ

بالشكر والامتنان الصديق العزيز الدكتور عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشبان على قراءته الفاحصة، وإبدائه مرثياته التي أعانت على استقامة هذه الوقفات استقامةً نسبية.

علي بن إبراهيم الحمد النملة

الرياض - رمضان المبارك

١٤٢٧هـ / أكتوبر ٢٠٠٦م

الفصل الأوَّل

مفهوم الخصوصية

الوقفه الأولى:

المفهوم

الخصوص، كما في القواميس، الانفراد، ويقابله العموم. ومن مفهوماته الانحصار، ويقابله الانطلاق. والواضح أن المراد بهذه الخصوصية أحد المعنيين في المفهومين، إذ المقصود الانفراد من المفهوم الأول، والانطلاق من المفهوم الثاني. والمؤكد هو النزوع عن مفهوم الانحصار، مفهوماً من مفهومات الخصوصية. ويقال، كما في لسان العرب: خاصٌ بَيْنُ الخُصْوصية، بفتح الخاء وضمها.

يتردد، كثيراً، الاهتمام والتركيز على خصوصية المجتمع السعودي في المحيط العربي والإسلامي والعالمي. وهذا التركيز فرضته ظروف المجتمع الثقافية، التي جعلتها تتبنى الإسلام منهجاً للحياة، في وقت تتصرف فيه بعض الشعوب، رسمياً، عن هذا التركيز، والميل إلى العلمانية أسلوباً للحكم، في الوقت الذي كانت فيه هذه الدول ترعى الإسلام، وتمتلك ناصية القيادة فيه. ثم تحوّلت إلى التركيز على ضعف انتمائها ثقافياً لهذا الدين، وضُيقت على الأفراد الذين يرغبون في هذا الانتماء، في الوقت الذي تُصرُّ فيه هذه البلاد على الخصوصية، وتعلن ذلك في كل مناسبة محلية، أو إقليمية، أو دولية.

إذ نفخر بهذا التميّز والخصوصية، ينبغي أن نتوخّى الحذر من هذا الإطلاق، إذ إن هذه الخصوصية يجب أن تكون حافزاً على مزيد من التميّز الذي لا يعيقنا البتّة عن السير في "ركب الحضارة"، واستخدام الوسائل المعينة على ذلك. ولا تعني الخصوصية الحدّ من إسهامنا في الحياة العامة، والإحجام عنها، تحت منطلق التميّز والخصوصية.^(١)

نحن لا نريد أن نعيش «شعوراً بالخصوصية المتفوّقة، تُرتّب على جهل بحقيقة ما يجري في عالم اليوم، على مستوى الفكر والتخطيط ونضوج التنمية البشرية».^(٢) يقول إبراهيم بدران: «إنّ التمسك المبالغ به بمقولات الخصوصية الثقافية، والتشدّد في عدم التعامل مع مفردات العولمة، أو الحضارة المعاصرة عموماً، بحجّة الحفاظ على الهوية القومية والخصوصية الثقافية أمرٌ غير منتج، وفيه الكثير من الأذى والإعاقة لانطلاق الأُمَّة ونهضتها».^(٣)

(١) انظر فقرة: وثنية الخصوصية. - ص ١٣ - ١٨.

في: عبدالرزاق عبيد ومحمّد عبدالجبار. الديمقراطية بين العلمانية والإسلام. - بيروت: دار الفكر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م. - ٢٦٤ ص. - (سلسلة حوارات لقرن جديد).

(٢) انظر: صلاح الدين أرقه دان. التخلف السياسي في الفكر الإسلامي المعاصر. - بيروت: دار النفائس، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م. - ص ٢١٤.

(٣) انظر فقرة: أين تذهب الخصوصية؟ - ص ١٨٩ - ١٩١.

في: إبراهيم بدران. أقول الثقافة. - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م. - ٢٩٤ ص.

في تحرير هذه الثنائية المصطنعة، والتضادَّ المفترض، ينقل عبدالله السيد ولد أباه عن طه عبدالرحمن أن واقع التداخل بين الخصوصية والكونية يأتي من وجهين؛ هما كون «الخصوصية عنصراً في الكونية»، باعتبار أن الكونية «تأليف صريح بين خصوصيات مختلفة»، كما أن «الخصوصية جسدٌ للكونية»، فالكوني لا يتجرد من الخصوصي بأي حال، «وإذا بطل القول بالتضادَّ بين الخصوصية والكونية جاز أن تقبل الخصوصية الإسلامية الاجتماعَ إلى الكونية؛ أي أن تكون باصطلاحنا خصوصية جامعة».^(١)

إن من حق المجتمع العربي والإسلامي، والمجتمع السعودي جزء فاعل فيه، «أن يدافع عن هويته الثقافية وأن يتمسك بمقومات ثقافته الأصلية وعناصرها ومكوناتها، ولكن من الخطأ أن يكون السبيل إلى ذلك هو الانطواء الثقافي على الذات والانغلاق عن التأثيرات الثقافية الأجنبية؛ لأن ذلك الانغلاق سوف يؤدي إلى جمود الثقافة العربية ذاتها وإضعافها وعدم تجديد حيويتها وحرمانها من فرص التطور والتقدم والانطلاق إلى آفاق واسعة جديدة».^(٢)

(١) انظر: عبدالله السيد ولد أباه. الحداثة والكونية: جدل الخصوصية والعالمية في المقاربة التحديثية. - التسامح. - ع ١٣ (شتاء ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م). - ص ٥٤ - ٧٤.

(٢) انظر: سماح أحمد فريد. الحداثة والتقاليد المبتدعة: رؤية لقضايا الثبات والتغير وإعادة التشكل. - التسامح. - المرجع السابق - ص ٣٣ - ٥٣.

من منطلق أن الأصل في الأشياء الإباحة فإن هذا الأصل يجب أن يكون هو منطلقنا في النظر إلى التطورات، التي نشهدها اليوم، مما يدخل في نطاق الوسائل، التي هي في أغلب الأحيان أوعية لما يوضع فيها، وسبل لتحقيق الأهداف.

أقول هذا وأنا ألحظ منطلق بعضنا المعاكس لهذه القاعدة الأصولية، إذ يذهب الذهن عند هؤلاء إلى أن الأصل في الأشياء المنع، أو حتى التحريم، لاسيما إذا وردت من طرق خارجية، كالتغيرات التي لا تؤثر في الثابت، من الاختراعات والتطورات العلمية والتقنية والسلوكيات الاجتماعية. وقد حدث في السابق القريب رفض هذه الإنجازات الداخلة في مفهوم المتغير من بعض الناس، ليس من منطلق اجتماعي ضيق، ولكن من نظرة تُعزى إلى الدين، بحجة أنها تؤثر سلباً على الثوابت، وقد عولجت هذه المواقف، من قبل القيادة السياسية والعلمية، بحكمة وروية، وسرت هذه الأشياء بهدوء، وأفاد منها الكثيرون.

يقول حسن حنفي: «جدل الثوابت والمتغيرات موجود في كل فكر وثقافة وحضارة ودين، وليس في الفكر الإسلامي وحده؛ لأنه يعبر عن العلاقة بين القديم والجديد، بين الماضي والحاضر، بين الأصالة والمعاصرة، بين النقل والإبداع، بين التأخر والتقدم، بين الثبات والحركة في تاريخ الأمم والشعوب. لا غنى لأحدهما عن الآخر. ويقوم الجدل على التكامل وليس على الإقصاء، وعلى التبادل وليس على الاستبعاد. هما لفظان متضايقان لغوياً، لا يفهم أحدهما إلا بالآخر... وكلاهما صحيح. ليس أحدهما صواباً

والثاني خطأ. الثابت ضروري للمتغير، والمتغير ضروري للثابت. كلٌّ منهما يتضمَّن الآخر فيه»^(١).

إن خصوصية المجتمع السعودي تتبع من تمسُّكه بالشرع، وتطبيقه في حياته، ولا تتبع من تقهقره، بحيث ندع مجالاً للقول بأن تأخره إنما جاء بسبب تمسُّكه بالإسلام، كما يردُّ هذا بعض المتحمسين للعلمانية، ومن بينهم بعض المستشرقين الذين درسوا الإسلام، ويدخل في هذا بعض المنصرين.^(٢)

يقول محمد أسد في كتابه: الطريق إلى مكة: «الآراء الشائعة في الغرب عن الإسلام فيما يأتي: انحطاط حال المسلمين ناتج عن الدين الإسلامي ذاته، ولا يمكن أن نعدّه عقيدة دينية مثل المسيحية واليهودية، وأنه أقرب إلى خليط غير مقدس من خيالات الصحراء، والحسيّة الشهبانية، والخرافات، والاتكاليات والإيمان بالقدر، وهي قيمٌ تحول بين المسلمين وإحراز أي تقدم اجتماعي راقٍ وفاضل؛ وبدلاً من تحرير البشر من عراقيل الغموض والظلام؛ كبّلهم الإسلام أكثر؛ وبمجرد تحرُّرهم من العقيدة الإسلامية،

(١) انظر: حسن حنفي. جدل الثوابت والمتغيرات في الفكر الإسلامي. -

التسامح. - المرجع السابق. - ص ١٠ - ٢٢.

(٢) انظر: رضوان السيد. مسألة الحضارة والعلاقة بين الحضارات لدى المتقنين في الأزمنة الحديثة. - أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٣م. - ص ٩. - (سلسلة دراسات استراتيجية؛ ٨٩).

وتبنّى مفاهيم الغرب في أسلوب حياتهم وفكرهم، فإن ذلك سيكون أفضل لهم وللعالم كله»^(١).

على أي حال فإن هذه المقولة قد وظفت من منطلقات مختلفة، وكلها تصب، في النهاية، في الدعوة إلى التخلي عن هذه الخصوصية. وقد تأثر بها بعض من قومنا، فأصبحوا لا يحبذون هذا المنطلق، بل ربّما يدعون إلى نبذ هذه الخصوصية، خوفاً من أن تُخرجنا من هذا الركب. وإذا ما حصل هذا، فعلاً، فإنه لم يعد في الأمر خصوصية.^(٢)

ليس من السهل أن نتوقّف عند كل تطوّر ونرفضه، بحجّة أنه يتعارض مع خصوصيتنا. ولا يعني هذا، كذلك، عدم إعمال التقويم لكل جديد، والنظر في توافقه أو تعارضه مع الشرع، ولكن الأمر، هنا، يتعلّق بالمنطلق القائم على أن الأصل في الأشياء القبول. وستظل لنا خصوصيتنا المتفاعلة مع الواقع، المتطلّعة إلى المستقبل، الراغبة في الإسهام في الحركة الحضارية القائمة. وفي هذا يقول الدكتور عبدالرحمن ابن صالح العثماوي، في كتابه:

(١) انظر: محمّد أسد. الطريق إلى مكّة/ ترجمة رفعت السيد علي، تقديم صالح بن عبدالرحمن الحصين. - الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامّة، ١٤٢٥هـ. - ص ٢٦٩.

(٢) انظر: فرانسوا بوجارت. الخصوصية لا تعني أن هناك تناقضاً جوهرياً بين القيم. - قضايا إسلامية معاصرة ع ٢٨ - ٢٩ (صيف وخريف ٢٠٠٤ - ١٤٢٥هـ). - ص ٧١ - ٨٠.

بلادنا والتميز: «وهذا التميز لبلادنا يجعل مسؤوليتها كبيرة جداً في الحفاظ عليه قولاً وعملاً، فهو ركن ركين، يحفظ كيانها، ويرفع مكانتها في العالمين. إن بلدًا هذه مكانته الروحية، وهذا تميزه، لجدير أن يُخضع كلَّ وسيلة من وسائل الحياة المادية لخدمة هذه المكانة، والحفاظ على هذا التميز»^(١).

الشرعية الكاملة لدينا تقوم «على الاقتران الوثيق بين العقيدة والشريعة وبين الدين والدولة. وهكذا فإنه في وعي المعتدلين (مناً) أو أتباع التيار الرئيس: هناك منهج إسلامي كامل في شئٍ مناحي الحياة العقلية والشعورية والمادية. ومن جوانب هذا المنهج ضرورة أن يكون النظام السياسي أداة بيد الدين من أجل اكتمال تطبيق المنهج»^(٢). وليس العكس، بحيث يكون الدين أداة بيد النظام السياسي.

يقول رضوان السيد: «ليس من حقِّ أحدٍ أن يطلب منَّا التخلي عن ثوابتنا، أو حتى القول بنسبية الحقيقة، بل المطلوب منَّا تطبيق منهج «التعارف» القرآني الأقرب من التسامح القرآني الأقرب من التسامح إلى طبيعة الإسلام. والتعارف هو المعرفة المتبادلة، وهو

-
- (١) انظر: عبد الرحمن صالح العشماوي. بلادنا والتميز: مقالات ثرية. - ط ٢. الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. - ص ٧ - ١٤.
(٢) انظر: رضوان السيد. الهوية الثقافية بين الثوابت والمتغيرات. - التسامح. - مرجع سابق. - ص ٢٢ - ٢٢.

الاعتراف المتبادل بالحق في الاختلاف: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ .
 إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ ، وهذا الحق لا يمكن
 أن ينبني إلا على المعرفة والتعارف، وأن نعيش عصرنا وعالمنا. ولا
 خشية على الهوية والانتماء من الانفتاح؛ لأن الهوية المنفتحة
 والمتجددة هي الباقية. ولا واصل بين الثوابت والمتغيرات غير منهج
 التعارف»^(١).

* * *

(١) انظر: رضوان السيّد. التعدّد والتسامح والاعتراف: نظرة في الثوابت والفهم
 والتجربة التاريخية. - التسامح. - ع ١٢ (خريف ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م). - ص

الوقف الثانية

الهاجس من الخصوصية

في عدد يوم الجمعة ١٦/١/٢٠١٦هـ من صحيفة عكاظ، طرقت الدكتورة عزيزة المانع موضوع الخصوصية، التي كثيراً ما نتشبت بها، ونستخدمها "درعاً واقياً" عند طرق أي موضوع فيه حركة وتطور، في زمان لا يسمح إلا بالحركة والتطور. ودعت الكاتبة إلى إيضاح علمي مدروس، أكاديمياً، لمفهوم الخصوصية، بحيث تتحول إلى انطلاق، لا إلى قيد يقيّد حياتنا.

ولتسمح الدكتورة عزيزة المانع بمشاطرتها هذا المنطلق، إذ إن مفهوم الخصوصية قد بدأ يأخذ منحنيً آخر غير المراد منه، فأضحى بعضنا يختبئ وراءه، كلما واجهتنا حالة من حالات تستدعي التعامل معها، بقدر عالٍ من الإيجابية. ولتسمح الدكتورة عزيزة المانع، كذلك، أن أتشبت، معها، بهذه الخصوصية، لا بالمفهوم الذي بدأ يبرز الآن، ولكن بالمفهوم المنطلق نحو الأفضل، وإلى آفاق الحياة المعاصرة، دون التخلي عن الثوابت والمثُل والمبادئ.

ليس في هذا إلماحة إلى أن الكاتبة توحى بعكس ذلك، ولكنه التوكيد على قدرتنا في مجتمعنا الإسلامي على الجمع بين الانطلاق في الحياة، مع الحفاظ على الخصوصية، لاسيما أنها

خصوصية يراد لها التعميم. فنحن لا نختبئ وراء هذه الخصوصية، ونرفض بالتالي أن يشاطرنا إياها غيرنا، بل إننا مطالبون بتقديمها إلى الآخر، فهي ليست وقفاً علينا.

وواقع الحال أنه قبل بزوغ هذا المصطلح كانت بيننا فئة، ولا تزال، تفار على هذا الدين، والغيرة مطلوبة من كل منتم إليه، وهي موجودة لدى الجميع، مع تفاوت يسير في المقدار، فلدينا الغيور المتسامح، كما أن لدينا الغيور غير القابل للتنازل.

الخصوصية التي نتحدث عنها لا بد أن يتوافر فيها الإخلاص والصواب/المتابعة. وأزعم أن توافر هذين العنصرين يجعل من الخصوصية دافعاً، لا مانعاً، دافعاً إلى المزيد من التطوير في الحياة والفهم والسماحة والتيسير على النفس وعلى الآخر. وهي خصوصية دافعة إلى السبق في مجالات الحياة الاجتماعية والعلمية، فما علمنا أن هذا الدين يقف في وجه أي تطوير اجتماعي وعلمي وثقافي وحضاري، ما دام هذا التطوير قائماً على قواعد راسخة في الدين الحنيف.

الخصوصية دافع لنا، لا مانع، من ناحية إيجاد البيئات المناسبة للانطلاق إلى هذا التطور الاجتماعي، دون اللجوء بالضرورة إلى أنماط موجودة في بيئات أخرى، ظن بعضنا أنها تصلح للبيئة الإسلامية في مجتمع مسلم. ومن هنا فإني أتفق، بصفتي قارئاً، لما تنشره الدكتوراة عزيزة المانع من هذا الطرح في مفهوم الخصوصية الدافعة لا المانعة، وعلينا أن نكون على قدر

عالٍ من الوضوح والشفافية في مفهوم الخصوصية، فلا إفراط ولا تفريط في هذا المفهوم.

* * *

الوقفه الثالثة:

الاقتناع

لا بدَّ في البدء من زرع الاقتناع التام بأن ما تقوم به المملكة العربية السعودية من تحكيم لشرع الله تعالى لا يمكن أن يتنافى مع طبيعة البشر بأي حال، إذ إن الشارع الحكيم لم يفرض هذه الأحكام ظمناً للعباد، أو جوراً أو اعتداءً على كرامة الإنسان، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠).

والقاعدة الأصولية تؤكد على أن: مقاصد الأحكام مصالح الأنام، والأمن، بأنواعه، مصلحة للأنام لا تقوم إلا على تطبيق الحدود الشرعية، مع عدم إغفال جوانب الرحمة والشفقة، وعدم التشفي والمهانة لابن آدم، ولذا لا تقام الحدود حتى تستنفذ جميع جوانب الدرع، ولكنها في النهاية تقام، وستقام - بإذن الله تعالى - في مجالات الحقوق الخاصة، والحقوق العامة.

لا بدَّ، كذلك، من زرع الاقتناع لدى الآخر، أن اهتزاز الأمن لديهم، ولدى غيرهم، إنما يقوم على التهاون في تطبيق العقوبات، والتفاضي عن الردع، وبالتالي يخرج المجرم ليعود إلى فعلته، أقوى

مما كان عليه من قبل. ويكفي أن ننظر إلى معدّلات الجريمة في مجتمعات تطبّق الحدود، ومعدّلاتها في مجتمعات تتهاون فيها.

زرع الاقتناع هذا لدى الآخر إنما تقوم على الحوار المباشر مع تلك الهيئات والمنظمات، التي تصدر تقاريرها بناءً على معايير وضعتها هي من منطلقاتها الثقافية والفكرية. ولا يكفي التصديّ المحليّ للتقرير بعد صدوره، بل إنه من المهم جداً سبق التقرير بهذا الحوار، على غرار ما تقوم به وزارة الخارجية، بالمملكة العربية السعودية.

الاقتناع المزروع لدينا، بحكم انتمائنا لهذا الدين الحنيف، وتصديقنا لهذا الإيمان بالعمل، قولاً وفعلاً، في العبادات والمعاملات، لا يكفي وحده لإقناع الآخر بما نحن عليه، وفيه، من خير عميم، بل لا يكفي أن تكون حجّتنا، أمام الآخر، أننا نطبّق الإسلام دستوراً في حياتنا، إن لم نبين للآخر هذا الإسلام، الذي تتمثله في حياتنا كلها، ذلك أن بعضنا منا يحتجّ، دائماً، بتطبيق الإسلام، وهذا حقّ، ولكنها كلمة يقولها عند من لا يدركون هذا الإسلام المطبّق، بل ربّما إن بعضهم يدرك شيئاً مشوهاً عن الإسلام، فنريد بطرحنا هذا التشويه.

هذه المسؤولية، المتمثّلة في زرع الاقتناع، لا تقتصر على المملكة العربية السعودية، وإن كانت هذه البلاد رائدة في ذلك، بل إن المسؤولية إسلامية مشتركة بين الدول والهيئات والمنظمات والجاليات والأقليات والأفراد والمؤسّسات التعليمية العليا ومراكز البحوث والمؤسّسات الثقافية.. وغيرها. ذلك أن التهمة الموجهة لهذه

البلاد إنما هي تهمة لما تطبَّقه البلاد من شرع الله تعالى في فهم الحياة، والتعامل معها، ومع عناصرها الفاعلة فيها، كالإنسان والحيوان والنبات والبيئة، وغيرها. وعلى كل القيام بهذه المسؤولية.^(١) يقول بروس ب. لورنس: «لقد أصبحت السعودية دولةً - وطنيةً عصريةً قادرة على الاستمرار، ليس عبر فرض قواعد السلوك الإسلامية، وإنما من خلال التعامل مع الدين باعتباره أسلوب حياة. فباسم الإسلام تُدخل الدولة تغييرات قد لا تكون مقبولةً من شعب غير مهياً وأقل تحمُّساً للضلوع في العالم المعاصر».^(٢)

* * *

- (١) انظر: علاء طاهر. الخصوصية الإستراتيجية للعالم العربي. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م. - ٢٤٠ ص. وانظر: خصوصيات العالم الإسلامي والمواجهات مع الإستراتيجيات العالمية. - ص ١٨٥ - ٣٠٦. في: علاء طاهر. العالم الإسلامي في الإستراتيجيات العالمية المعاصرة. - باريس: مركز الدراسات العربي - الأوروبي، ١٩٩٨م.
- (٢) انظر: بروس ب. لورنس. تحطيم الأسطورة: تخطي الإسلام للعنف/ ترجمة غسان علم الدين، مراجعة رضوان السيد. - الرياض: مكتبة العبيكان، ١٣٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. - ص ١٥٢.

الوقفه الرابعة:

خصوصية المرأة

المعلوم لدينا أن للمرأة في مجتمعنا خصوصيةً قائمةً على مثل هذا الدين ومبادئه، ومن هذه الخصوصية، عندنا، عدم اختلاطها بالرجال الأجانب، والرجل الأجنبي عن المرأة محددٌ في الفقه الإسلامي. ومع هذا المفهوم فإن المرأة، من حيث كونها جزءاً فاعلاً ومهماً في هذا المجتمع، وفي أي مجتمع، فإنها مطالبة بأن تكون على قدر عالٍ من هذه المسؤولية، بحيث تسهم في بناء المجتمع أمماً وزوجةً وبناتاً وعاملةً منتجةً وطالبةً متعلّمةً.

المرأة العاملة، وهي مدار تخصيص هذه الوقفة، بحاجة عندنا إلى أن تكون لها بيئة عمل، تتناسب مع ما يتطلبه دينها منها. والبيئة هذه ممكنة، إذا ابتعد المجتمع المسلم عن تطبيق نماذج جاهزة موجودة، لكنها لم تضع اعتباراً لخصوصية هذه المرأة، بل إنها جعلتها حافزاً من الحوافز المفيدة في نجاح المشروعات التجارية والاجتماعية. والمرأة عاملة، وليست مجرد حافز من الحوافز، أي أنها تسهم في التخطيط والتنظيم، ثم التنفيذ، وليست مجرد مسوّقة للسلعة، سواء أكانت هذه السلعة اجتماعية أم تجارية.

علينا أن نقرّ أن هناك مجتمعات نظرت إليها على أنها حافزٌ فقط، ويكفي أن ننظر من حولنا لنرى مصداق هذا الزعم الذي

لم يعد زعمًا، بل إنه أضحى مملولاً لدى بعض المتلقين، ذكوراً وإناثاً، مع أنه ظاهرة تزيد ولا تنقص. ومن هنا جاءت الدعوة إلى إيجاد البيئة التي تتيح مجالاً واسعاً للمرأة أن تعمل وتنتج، دون أن تتعرض لما تتعرض له أي امرأة في مجتمع لم يعتمد على إيجاد البيئة الصالحة لعمل المرأة. يقول محمد الشتيوي: «... إن عقيدة المسلمين في الخلق الإلهي تفرض عليهم الإيمان اليقيني بأنه ﴿لَا بُدِيلَ لِحَاقِ اللَّهِ﴾، وبأن سننه في الخلق والتكوين ثابتة لا تتغير. ولا ريب أن الفقهاء ينظرون إلى المرأة نظرة مؤسّسة على أنها مخلوق إلهي ذو خصائص أنثوية لا يجوز تغييرها، وله أحكام شرعية تطابق خلقها بوصفها أنثى، لذلك فإن كل اجتهاد يميل إلى تطوير النظر في أحكام المرأة بما يخالف في نظرهم ما خلقها الله عليه يعدّ منكراً من القول يصادم عقيدة الخلق»^(١).

الوضوح والشفافية تستدعي التصريح، لا التلميح في هذه البيئة، إذ المقصود فيها تجنب المرأة الاختلاط بالرجال الأجانب، وبالتالي تجنب الرجال الاختلاط بالنساء الأجنبية عنه، فليست المسألة هنا ذات طريق واحد، فيه تركيز على المرأة دون الرجل، فإذا طولبت المرأة بالستر والحشمة، طولب الرجل، كذلك، بالستر والحشمة، والحدود معروفة، ليست مجالاً للاجتهاد الذي

(١) انظر: محمد الشتيوي. إشكالية الاجتهاد بين العقيدة والتاريخ (العرف

والمرأة نموذجاً). - التسامح. - ع ١٢ (خريف ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م). - ص ١٥١

قد يصيب أو يخطئ، فالمطالبة هنا مشتركة ولا تنصبُ على المرأة وحدها. (١)

هناك صور جيّدة لهذه البيئّة موجودة، وأزعم أنها فاعلة، وتؤدّي الغرض، مع قدر من التطوير، مثل وجود مشافٍ ومصارف ومتاجر... إلخ، وقبل ذلك كله مدارس وكيّيات ومعاهد، وهكذا. وإذا كان يعتري هذا شيء من النقص فإن تلاي في النقص مطلوب، وأظن أن العيب ليس في الفكرة، ولن يكون فيها، بل إن العيب في ضعف القناعة والإرادة في إيجاد هذه البيئّة، وعدم وجود هذه البيئّة في مجتمعات العالم الأول لا يعني عدم إمكانية وجودها في أي مجتمع، ناهيك عن أن نواتها موجودة في بعض المجتمعات التي أضحت تطالب بمثل هذه البيئّة.

الخصوصية ليست محصورة في مجال المرأة، بل إن أموراً كثيرة تتردّد فيها الخصوصية، ليفهم منها عدم الرغبة في الانطلاق، (٢) بل المنع من الانطلاق، وأذكر هنا أن خصوصيتنا التي نردّها ونعلنها، هي تلك الخصوصية التي تضي علينا مسؤولية عظيمة، من التفاعل مع الأحداث القائمة، والعيش مع العصر الذي

(١) انظر: عبدالحليم محمّد أبو شقة. تحرير المرأة في عصر الرسالة: دراسة عن المرأة جامعة لنصوص القرآن الكريم وصحبي البخاري ومسلم. - ج ٦ - ط ٦ - الكويت: دار القلم، ٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م.

(٢) انظر: مسعود ضاهر. خصوصية الثقافة في مواجهة الثقافة الكونية. - العربي. - ع ٤٢٨ (مج ٢٨) (مايو/أيار ١٩٩٥ م). - ص ٥٨.

نحن فيه،^(١) دون أن يكون ذلك على حساب مُثلنا ومبادئنا وثقافتنا وفكرنا وثوابتنا المستمدة من الشريعة الإسلامية. وهذا ما يجعلنا نردُّ أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان، وبالتالي فإن هذه المقولة لا ينبغي أن تُردَّد دون مضمون، ودون تطبيق للمضمون.

* * *

(١) انظر: العالم الثالث والثقافة: الخصوصية في مواجهة المركزية الغربية. -

ص ٤٧ - ٦٠.

في: مفيد الزبيدي. قضايا العولة والمعلوماتية. - عمَّان: دار أسامة، ٢٠٠٣م.

- ٢٢٤ ص.

الوقفمة الخامسة :

التقويم الهجري

قال أحد أساتذتي، ممن درست عليهم اللغة العربية، في بداية التسعينات الهجرية، السبعينات الميلادية: «احمدوا ريكم أن دولتكم تدفع لكم الرواتب والمكافآت بالتاريخ الهجري، وإلا كنتم، مثل غيركم، قد نسيتموه». وكان تعليقه هذا يرن في ذهني منذ ذلك اليوم، في ذلك التاريخ الهجري ١٣٩١هـ وأضحى هذا الرنين لمدة خمسة وثلاثين عاماً، أتذكره كلما أطلُّ علينا عام هجري جديد. ولذا وجددتني أقف وقفة خاصة مع نهاية كل عام هجري وبداية آخر، وعندما استعرضت ما أسهمت به في الصحافة كدت أملُّ من طرق هذا الموضوع. ولكنني أعود إليه اليوم أكثر حماساً وأكثر أملاً، إذ إن التاريخ الهجري، والتاريخ، به يُعدُّ اليوم جزءاً من هويتنا الثقافية والحضارية، وهو بحق يكاد يُنسى في بعض الأوساط العربية والإسلامية.

من الجميل التوكيد عليه، وتكرار التوكيد عليه، في الخطب والصحافة والإعلام، لأننا لا نريد أن ننساق وراء تاريخ الآخر، وإن كان لزاماً علينا اليوم عدم إغفاله، إذ إنه التاريخ المعتمد عالمياً، ومع هذا فلم يمنع هذا الاعتماد لذلك التاريخ أن تبقى الأمم، ذات الثقافة الضاربة جذورها في عمق التاريخ من أن

تحتفظ بتاريخها، الذي حفظت به تراثها، وأرخت به أحداثها. والتاريخ الهجري الشمسي لا يزال معتمداً في إيران اليوم. والتاريخ العبري هو المسيطر على الحياة العامة لدى اليهود في فلسطين المحتلة، رغم عدم إغفال التقويم المعتمد دولياً، وكذا الحال في دول ذات ثقافات عريقة، في الصين واليابان، وغيرهما.

في اجتماع عربي مشترك في مؤتمر منظمة العمل العربية، الذي عُقد في شرم الشيخ بجمهورية مصر العربية سنة ١٤٢٠هـ/٢٠٠١م، وتشرّفت برئاسة بعض جلساته، ومنها الجلسة الختامية، وجدتني أختتم المؤتمر بذكر الزمان والمكان، مبتدئاً بالتاريخ الهجري، مثبِّئاً بالتاريخ الميلادي، مما أثار شيئاً من الاستغراب، المصحوب بنبرة الإعجاب في إقحام التاريخ الهجري، الذي صادف دخول شهر ذي الحجة من العام (١٤٢٠هـ)، حتى ذكر لي من كان جالساً مع الوفود، وبينهم، أن هذه اللفتة قد صوحت بالتكبير إعجاباً - لعله - بالاعتزاز بالتاريخ أو التقويم الهجري.

في إحدى خطب الجمع لعالم فاضل ركّز فيها على التاريخ بالهجري، وبيّن أهمية ذلك، ولكنه لم يكن يغفل اعتماد التأريخ الميلادي في التعامل مع الآخر، فكان لهذا نصيب في خطبته مما قرّبها كثيراً من الواقعية، وهو من العلماء الذين يؤخذ من علمهم، ويُقصدون في الفتوى. ومن حقّ تراثنا وثقافتنا علينا أن نبدأ بهذا التاريخ، مهما قيل عنه، في مسألة رؤية الهلال ونحوها، مما هو خارج عن مجال هذه الوقفة. ومهما كان الأمر فهي أيام تعمل فيها

كما نعمل فيها، والعبرة في هذه الناحية فقط في توكيدنا على هويتنا الثقافية والتمسك بكل مقوماتها، مهما بدت بعض هذه المقومات بسيطة عند بعضنا.

المؤسف له في الآونة الأخيرة ظهور إهمال، قد يكون متعمداً، من بعض الصحف العربية ودور النشر، للتاريخ الهجري، ووجدت من بعض حاطبي الليل من بعض الكُتَّاب قد جعل هذا الإهمال مؤشراً لما يريد أن يوحي به من أنه يتمتع بثقافة عالمية عالية، فأضحى التأريخ بالتقويم الهجري مؤشراً، عند هذه الفئة، من مؤشرات الماضي.

الوقفه السادسة:

الماضوية

إذا أدّن المؤدّن فعلى الجميع التوقّف عن العمل، والتوجّه إلى المساجد، لأداء الصلاة جماعة. وترى الناس، في كل مكان، يتوقّفون عن العمل للدنيا، ويتوجّهون للعمل للآخرة، حتّى على الطرق السريعة والناس يتوقون إلى إنهاء الرحلة، وهم معضون من الصلاة وحدها، بل يجمعون بين صلاتين، ويقصرونهما كذلك، الصلاة القابلة للقصر، ومع هذا تراهم في منظر جميل جداً، لا يدركه إلا الذين لا يؤمنون بفرضية الصلاة من غير المسلمين.

إذا رأى شخص من الأشخاص - أيّاً كانت منزلته في المجتمع - منكراً سعى إلى تغييره، بمراتب التغيير المعتبرة شرعاً، باليد أو باللسان أو بالقلب، بحسب إمكاناته المعطاة له من ولي الأمر، وكذا إذا استحسن معروفاً، معتبراً شرعاً، دعا له الناس من حوله.

إذا قام أحد بجريمة من الجرائم قد تصل إلى القتل، حكمت المحكمة، شرعاً، بقتله قصاصاً، من أجل أن يحيى المجتمع، وإذا سرق قطعت يده، وإذا أفسد في الأرض جرى تعزيره، بما يراه القاضي، بحسب الظروف المحيطة، التي يقدّرهما القاضي، وإذا زنى المحصّن، ذكراً كان أم أنثى، عوقب عقاباً مغلظاً، لأنه خان الأمانة، وضيع النسل.

هكذا تقوم الأمم، ومع ذلك كله فإن تقريراً رسمياً يظهر أخيراً ليقرر أن هذه "الممارسات" تعد تخلفاً، وأن المملكة العربية السعودية لن تتقدم، ولن تدخل في دائرة العولمة، إلا إذا ألفت إغلاق المحلات وقت الصلاة، وتركت الأمور على رغبة أصحاب المحلات، فإن شاءوا صلّوا في المساجد، وإن شاءوا صلّوا في محلاتهم، وإن شاءوا صلّوا في بيوتهم، بعد أن يعودوا إليها، وإن شاءوا لم يصلّوا إطلاقاً.^(١)

لن تتقدم المملكة العربية السعودية، ولن تدخل في دائرة العولمة إلا إذا ألفت جهاز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رغم أنه أسلوب متبع في أنحاء من العالم، لأنه يتماشى مع فطرة الإنسان، في النزوع إلى الخير والدعوة إليه، والنفور من الشر والترغيب عنه، مهما اختلفت الوسائل والآليات، ولكل ثقافة وسائرها وآلياتها. وهكذا يقول التقرير الرسمي، وكأن جهاز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عامل من عوامل التأخر والتخلف، الذي سيعيق المملكة العربية السعودية عن اللحاق في "ركب الحضارة".

قالوا كذلك إن المملكة العربية السعودية إذا أرادت اللحاق في "ركب الحضارة" فعليها أن تلغي عقوبة الإعدام. والذي قال هذا من خلال تقرير رسمي، يطبّق عقوبة الإعدام، في بعض مناطقه،

(١) انظر، مثلاً: أكبر أحمد. الإسلام تحت الحصار/ ترجمة عزّت شعلان. -

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٤م. - ٢٣٢ ص.

وبصورة ثبت الآن أنها غير رحيمة، إما بالصعق الكهربائي، أو بالحقنة السامة، أو بالغاز السام، أو بالشنق، وكل هذه منهي عنها شرعاً.

إذا كان المرء لا يستغرب مثل هذا، على هذا الشكل من الطرح من جهات خارجية، لا تتفق معنا في المنطلقات والأهداف، فإن الغريب حقاً أن يستهوي هذا التقرير بعض أبناء الأمة، خارج المملكة العربية السعودية، الذين لم يتذوقوا طعم الأمن والأمان الاجتماعي، الذي تعيشه هذه البلاد، والذي تُسهم فيه مراكز هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل ملحوظ، استرعى انتباه الجميع، وكان موضع ثناء من قياداتنا، بل إنه موضع دعم دائم ومتابعة للجهود الطيبة، التي يقوم بها هذا الجهاز، لوقاية المجتمع من كثير من التجاوزات الفردية. والوقاية توفر كثيراً على الجهات الأمنية الأخرى، التي تدخل كلها في مفهوم الحسبة.

للعلم، فقط، فإن ولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية وحدها تتفق على السجن أكثر من إنفاقها على التعليم، و٢٨ مليون نسمة أمريكي (عُشر السكان) قد حصنوا بيوتهم، بشكل أشبه ما يكون بالقلع، وينفقون على الحراسات المدنية أكثر مما ينفقون على الشرطة.

عندما نتحدث عن التقرير الرسمي الذي ظهر أخيراً، وفيه يُطلب من المملكة العربية السعودية إلغاء إغلاق المحلات العامة وقت الصلاة، وإيقاف نشاطات هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

وإلغاء الحدود، لاسيما عقوبة الإعدام، عندما نتحدث عن هذا كله فإننا نتحدث عن شكل من أشكال التصادم الحضاري.^(١)

يُخشى أن يمتد الأمر بالمؤسسات الرسمية وغير الرسمية الغربية، ليصل بها إلى الولوج في ممارسات وسلوكيات المسلمين، بحيث تسعى بعض الدول، في طريقها لفرض العولمة، إلى فرض سلوكيات تقتنع هي بها، أو انتقاد سلوكيات هي ليست مقتنعة بها.^(٢)

* * *

(١) انظر: التصادم الفكري. - ص ١١٧ - ٢٢٧.

في: علي بن إبراهيم النملة. الفكر بين العلم والسلطة: من التصادم إلى التعايش. - الرياض: المؤلف، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. - ٢٧٧ ص.

(٢) انظر: أوليفييه روا. عولمة الإسلام. - بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٣م. - ٢٢٢ ص.

الوقفه السابعة :

التنازلات

ما دام الأمر قد وصل إلى حد انتقاد المملكة العربية السعودية في طريقها لحثّ الناس على الصلاة، فما الذي يمنع بعض الدول، أو بعض المنظّمات الدولية، أن تنتقد طريقة المسلمين في الصيام مثلاً، فتدعو المملكة العربية السعودية إلى السماح بالمجاهرة بالإفطار، أوّلاً لغير المسلمين المقيمين في المملكة، ثم بعد ذلك، ربّما، للمسلمين أنفسهم، الذين يرغبون في الإفطار مجاهرة في شهر رمضان المبارك، وربّما يأتي الانتقاد من الإعلان الذي تنشره وزارة الداخلية - مشكورة - كلّ عام مع قدوم شهر رمضان المبارك، وتحذّر فيه الجميع، بما فيهم غير المسلمين، من المجاهرة في الإفطار، نهار رمضان، مراعاة لشعور المسلمين الصائمين.

يُخشى، كذلك، أن يمتدّ الانتقاد، الذي بدأ، الآن، ليشمل عاداتنا وعلاقاتنا العامة والخاصّة، لاسيما القائمة منها على هدي من كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمّد بن عبد الله ﷺ، مثل علاقات الآباء بالأولاد، ذكوراً وإناثاً، وعلاقات الأزواج بعضهم ببعض، بما في ذلك التعدّد في الزوجات، والولوج في العلاقات الزوجية، وطريقة الخطبة والزواج... وهكذا، إلى أن يشمل الانتقاد جميع صنوف

الحياة المتبعة في بلادنا، وفي بلاد المسلمين، لاسيما القائمة منها على منطلقات دينية.^(١)

إننا ونحن ندخل الألفية الميلادية الثالثة لا بد أن ندرك أن ذلك لن يغير من نظرتنا للحياة والكون، من حيث الثوابت التي نسير عليها، بل إن هذا الوهج الإعلامي للولوج في الألفية الثالثة ستكون له آثار إيجابية على المجتمع المسلم، حينما يدرك البعد الديني لهذا الانتظار لحلول عام ٢٠٠١ ميلادية، لاسيما أن هناك إرهابات قوية نحو "تدين" هذا القرن الحادي والعشرين الميلادي، كانت تستهمل هذه الإرهابات بزيارات للبابا إلى المنطقة العربية الإسلامية، في العراق والشام وفلسطين.^(٢)

الإيجابية تكمن - فيما يتوقع - في زيادة الوعي الديني، ولفظ العلمانية، واستغلال العولمة على أنها مبشر من مبشرات العودة إلى الدين، إذ إن الإسلام هو الدين العالمي، بروحانياته ونظراته للسياسة والاقتصاد والمجتمع والعلاقات الدولية، وهي أمور لا تزال تحتاج إلى مزيد من التفعيل.^(٣) وعندها لن تُرمى

(١) انظر: محمد السمّك. العولمة وآثارها على الخصوصيات الثقافية. -

الاجتهاد. - ع ٥٢ و ٥٣ (خريف وشتاء العام ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ / ١٤٢٢ هـ). - ص ٨٢ - ٩٦.

(٢) انظر: عبدالعزيز بن عثمان التويجري. العالم الإسلامي في عصر العولمة. - القاهرة: دار الشروق، (١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م). - ٢٢٩ ص.

(٣) انظر: فوزية العشماوي. الحوار بين الحضارات وقضايا العصر: العولمة

المملكة العربية السعودية والبلاد الإسلامية الأخرى، التي تسعى إلى تطبيق الإسلام، بالتخلف عندما تقيم شعائر الإسلام على المستوى الفردي والعام. وعندها ستعترف بعض الدول والمنظمات الدولية أن ما تقوم به المملكة العربية السعودية من تطبيق للإسلام، إنما ينعكس على سعادة الأمة وأمنها واستقرارها وأمانها.^(١)

يُخشى أن يصل الأمر بهذه الجهة الرسمية إلى متابعة سلوكيات المسلمين، وممارساتهم اليومية، النابعة من أحكام الشرع الإسلامي، واعتبار هذه من أسباب التخلف، كالنظر في السنن والمستحبات في الإسلام، فتعدُّ، كذلك، من أسباب التخلف.^(٢) وقد درجت المجتمعات غير المسلمة على ضعف الانضباط في سلوكيات بسيطة غير معقدة، ولكنها محببة لدى المسلمين، مع وجود بعض المسلمين، المتبعين لبعض السلوكيات الغربية في مسألة "التيمن"، إذ لم يروا بأساً في أتباع سنن من كان قبلنا، حذو القذة بالقذة. ورأوا أنه من التقدم ألا نلقي بالأمثل هذه الأمور

وأثارها على الخصوصيات الثقافية. - الاجتهاد. - مرجع سابق. - ص ٩٧

- ١١٢.

(١) يُرجع إلى عبارة محمد أسد، في مطلع هذا الفصل، في نظرة الآخر إلى أسباب تخلف المسلمين.

(٢) انظر: روجيه دو باسكويه. إظهار الإسلام. - القاهرة: مكتبة الشروق،

(١٩٩٤م). - ١٩٣ ص.

السطحية، هكذا عدُّوها من الأمور السطحية، بل إنهم عدُّوا التمسُّك بها، اقتداءً بسنة المصطفى ﷺ، نوعاً من التعقيدات التي لا ينبغي الالتفات إليها، ولا تربية الأبناء عليها.

هذا في الأكل والشرب، فما بالك في بقية السلوكيات التي تحثُّ على تقديم اليمين على الشمال في مواضع، وتحثُّ على تقديم الشمال على اليمين في مواضع أخرى، ثم البسمة في الأعمال كلها، وحمد الله عند الانتهاء من التمتع بنعمة من نعم الله. إنها تربية ربانية تبعث على الاطمئنان والشعور بمنة الله تعالى على عباده، والشعور كذلك بإمكانية زوالها، إن لم تُحمد ويُشكر الله عليها.

بالإمكان تتبُّع سلوكيات وممارسات، ولا أقول عادات، للنظر فيها على أنها من أنماط التخلف، إذا لم تكن معهودة لدى الذين يُعدُّون التقارير، ويسعون إلى رفاهية الإنسان في هذه الحياة، من منطلقاتهم الثقافية، التي بنوها بالاعتیاد والتنظير والفلسفات، التي لا تتكئ كثيراً على أساس ثابت، مقبول لدى الجميع. ومع هذا فإن هذه التقارير ذات الوجهة الواحدة إنما هي سعي محموم، ولكنه سريع وسطحي، إلى تمثُّل العولة من منطلقات غربية بحتة، ذات الاتجاه الواحد الذي يملي ولا يأخذ، وينظر أنه، دائماً، على حق، والجميع دونه، دائماً، على باطل.^(١)

(١) انظر: مناف منصور. شرق الخصوصيات، شرق العولة. - بيروت: مكتبة

ثم أخيراً قد يصل الأمر إلى أن تعدّ المملكة العربية السعودية متخلفة؛ لأنها تأخذ باللغة العربية وبالتقويم الهجري، وتدعو الدول الإسلامية إلى الأخذ به، وتحث الشركات والمؤسسات التي تتعامل مع الآخرين على عدم إغفاله. وهكذا تتعدّد نقاط التخلف في المملكة العربية السعودية، كلما أصرت على نهجها الذي تمسّكت به منذ قامت على يد مؤسسها الملك عبد العزيز عبد الرحمن - رحمه الله - الذي جاء امتداداً للقيادة السعودية، التي انطلقت من الدرعية بقيادة الإمام محمد بن سعود - رحمه الله -.

لقد اتهمت المملكة العربية السعودية بهذا، من قبل، من بعض القوميين والعروبيين والاشتراكيين والبعثيين من أبناء الأمة، إلا أن التهمة لم تكن التخلف، ولكنها كانت الرجعية، ورحم الله فيصل بن عبدالعزيز، الذي رحّب بالرجعية، إذا كانت التمسك بأحكام الشرع الحنيف، على هدي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد بن عبد الله ﷺ ونهج السلف الصالح.

من المهم، في نهاية هذه الوقفة، النظر إلى هذا الموقف من ممارسات المملكة العربية السعودية، في استثمار حقها في الاستثناء الثقافي، فيما له صلة بالعولة الثقافية في إصرار هذه البلاد على تطبيق شرع الله تعالى.^(١)

(١) انظر في مناقشة النظرة الإسلامية للعولة: محمود حمدي زقزوق. الإسلام في عصر العولة. - القاهرة: مكتبة الشروق، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م. - ١٢٠ ص، ومحمد الجوهري حمد الجوهري. العولة والثقافة الإسلامية. -

على أن تطبيق الشريعة الإسلامية موقفٌ ليس محصوراً على هذه البلاد، ولعلّه لا يُعدُّ من الخصوصية المحصورة، بمصادرة جهود الدول الإسلامية التي تطبّق شرع الله تعالى، وهي سائرة في هذا التوجّه بقدر من الرويّة والتدرُّج. ولكنه، في هذا الصدد، يجسّد المبدأ الذي تسير عليه، وكلُّ البلاد التي ترى في المملكة العربية السعودية نموذجاً للثبات على المبدأ، مع الانطلاق في النماء، مما هو مجالٌ لنقاش مستفيض من قِبل علماء الأمة وقياداتها السياسية والمفكرين المنتمين.^(١)

* * *

القاهرة: دار الأمين، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م. - ١٨٤ ص، وعصام نور سرية. العولة وأثرها في المجتمع الإسلامي. - الإسكندرية: مؤسّسة شباب الجامعة، ٢٠٠٥م. - ١١٩ ص، وعبدالله الأشعل. المسلمون والنظام العالمي الجديد. - القاهرة: دار المعارف، (١٩٩٩م). - ١٢٨ ص. - (سلسلة أقرأ؛ ٦٤١).

(١) انظر: كمال عبد الغني المرسي. العلمانية والعولة والأزهر. - (الإسكندرية): دار المعرفة الجامعية، ١٤١٨هـ/١٩٩٩م. - ٢٧٩ ص. وجامعة الأزهر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية. العولة وموقف الفكر الإسلامي منها. - الإسكندرية: الدار المصرية، ٢٠٠م. - ٢٧٣ ص. - (أعمال مؤتمر كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية - جامعة الأزهر ٢٩ - ٣٠ نوفمبر ١٩٩٩م).

الوقفه الثامنة:

صورة بلادنا

في مطلع شهر شعبان من عام ١٤٢٤هـ الموافق ٢٠٠٣/١٠/٩م صدر للأستاذ حمد بن عبدالله القاضي عضو مجلس الشورى، ورئيس تحرير مجلة المجلة العربية، والكاتب الصحفي الهادي كتاب بعنوان رؤية حول تصحيح صورة إسلامنا وبلادنا،^(١) ووجدت من خلال اطلاعي على الكتاب أنه «رؤية» كما هو عنوان الكتاب، ضمَّها الكاتب رغبته في تعديل الصورة النمطية عن المملكة العربية السعودية، بصفتها بلاداً تحكم بالإسلام، وتصرُّ على هذه الخصوصية. كانت هذه الصورة النمطية قائمة من قبل، لكنها ترسَّخت عندما حدث ما حدث يوم الثلاثاء ١٤٢٢/٦/٢٢هـ، الموافق ٢٠٠١/٩/١١م.

منذ ذلك الوقت والجهود قائمة في محاولة للوصول إلى «رؤية»، فيها قدرٌ عالٍ من الموضوعية لتحسين صورة الإسلام، وبالتالي المملكة العربية السعودية.

الذي ظهر لي من رؤية الأستاذ حمد القاضي أنها موجَّهة إلى

(١) انظر: حمد بن عبدالله القاضي. رؤية حول تصحيح صورة إسلامنا وبلادنا.

— ط ٣. — الرياض: دار القمرين، ١٤٢٥هـ. — ١٢٨ ص.

غير السعوديين، وغير المسلمين، وتبدأ الرؤية انطلاقها من الداخل، حيث الخطوة الحاسمة لجلاء الصورة، ومن ذلك التوكيد على أن هذا الدين يحارب كل ما يسيء إلى البشرية، ذلك أنه دين السلام الذي كرم الإنسان وحفظ حقوقه، وحفظ عهوده ومواثيقه، وحرّم قتل النفس إلا بالحق، ويورد الأستاذ حمد القاضي النصوص من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة وفتاواهم في هذه المجالات، التي تزداد الرغبة في إيضاحها للآخر، وإن كانت واضحة في أذهان أهل هذا الدين.

حيث إن مثل هذه الأعمال، وما جاءت عليه من جهد، بانث فيه روح الكاتب من خلال رؤيته، مقصود بها الآخر، فإنه من المناسب أن تتم ترجمتها إلى اللغات الأخرى، وأن يحرص على توزيعها في المكتبات ومراكز البحوث، ذلك أنها تنطلق من رؤية هادئة وثيقة، وفيها من الحجج والبراهين والإثباتات العقلية والعقلية ما يدعو إلى الاسترسال في قراءتها، بل والتوصية للآخر بقراءتها، ذلك أنها تركّز على ما ينبغي التركيز عليه، وهو سماحة هذا الدين، وأنه دينٌ عالمي، ليس مقصوراً على أمة بعينها أو طائفة أو إقليم بعينه.

في نهاية هذه الرؤية أجد أن الأستاذ حمد القاضي قد طرح بعض «الآليات» لتصحيح صورة الإسلام والمسلمين في عيون الآخر، ومنها: توظيف الإعلام توظيفاً قوياً وسليماً، في الردّ على التهم، وإنشاء قنوات إعلامية باللغات الأخرى تصل إلى متحدّثيها، وتخطبهم بفكرهم، كما تخطبهم بلسانهم، ثم شغل الصحافة

الأخرى بالمزيد من الإسهامات من المسلمين والعرب، والمتعاطفين مع الإسلام من غير المسلمين، وهم موجودون، وفي ديارهم، ثم عقد المزيد من الملتقيات والمؤتمرات، في البلاد التي تزداد فيها الحملات على الإسلام والمسلمين، يشترك فيها ويشارك بها مسلمون وغير مسلمين، وعقد ندوات داخل العالم الإسلامي، للتركيز على المزيد من الطرح حول سماحة الإسلام، ومعايشته للعصور والأزمان، وترسيخ الأمن والاستقرار بين المسلمين.

يعرِّج الأستاذ حمد القاضي على مناهج التعليم، التي تشهد، هذه الأيام، طرحاً على مختلف المستويات، ثم يؤكد المؤلف على المزيد من توزيع ترجمة معاني القرآن الكريم وأحاديث المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ، ويؤكد على ضرورة نشر ثقافة التعايش مع الآخر، والتوكيد على أن هذا الدين يقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، والحرص على توظيف قنوات الاتصال مع الجمهور، توظيفاً واعياً راشداً يبين بوضوح حقيقة هذا الدين.

كما يؤكد المؤلف، في الأخير، على دعم المؤسسات الإسلامية مثل رابطة العالم الإسلامي، والعربية مثل جامعة الدول العربية، وتفعيلها، ومجال العلاقات مع الآخر، ثم يقول: «إن دعم هذه المؤسسات الإسلامية الواعية والمستقرة داخل البلاد الإسلامية وخارجها، من شأنه أن يسهم في تصحيح صورة العرب والمسلمين،

ودفع التهم عنهم، وتقديم خطاب حضاري ينطلق من تعاليم الإسلام، وقيم الأمة العربية»^(١)

هذه الإماحة لهذه الإسهامة من كاتب قدير، يحمل همَّ الأمة، ويتطلَّع، مع غيره، إلى أن يراها في المقام اللائق بها بين الأمم، تسهم في بناء حضارة، وتؤكد على عمارة الأرض، وإشاعة السلام والأمن بين الشعوب. ومن هنا فإن هذا الكتاب يعدُّ إضافة جديدة في مفهوم الخصوصية الدافعة.

* * *

(١) حمد بن عبد الله القاضي. رؤية حول تصحيح صورة إسلامنا وبلادنا. -

المرجع السابق. - ص ١١١.

الفصل الثاني

السعوديون والركن الثاني

الوقفه الأولى:

الفوائد

من الميزات التي نعيشها، في عيدنا الأسبوعي، المتمثل في يوم الجمعة، الإنصات إلى الخطيب، وهو يضع مكانته العلمية والشرعية بين يدي السامعين له من المصلين، الذين قدموا إلى مساجد الجمعة متهيئين مبكرين، قصداً إلى سماع شيء مفيد، علماً وعظة وتذكيراً.

هناك أئمة لمساجد الجمعة يفوضون في أمهات الكتب المعتمدة لدى المسلمين، يستخرجون منها الحكم والآثار، التي تزيد من ربط المؤمنين بإسلامهم، وتعينهم على التزود من الإيمان، بفعل الطاعات وترك المعاصي. وكلما غاص الإمام في هذه المصادر خرج على المصلين بالدرر التي تحكي معاشة السلف معاشة واقعية، فيكون هؤلاء الأشخاص أمثلة حية لما كان عليه أولئك القوم، من تسابق إلى الخير. وعليه فإنه لا يكفي من الإمام - فيما يبدو - الاكتفاء بالجانب النظري في طرح الموعظة على السامعين، ذلك أن هذا الوقت مؤاتٍ جداً لكسب القلوب، التي جاءت وقد تهيات لسماع الموعظة المؤثرة، التي يُرجى لها أن تحدث تغييراً في حياة المسلم. وإن لم تتمكن من إحداث التغيير، فإنها ستسعى إلى التثبيت، والإصرار على الاستمرار في الخير.

في المقابل نجد أن هناك أئمةً يقودون الناس، يوم الجمعة، بخطبة غير مركزة، وليست محدّدة في علاج موضوع واحد، بل ربّما غطّى الخطيب فيها موضوعات عدّة، فتداخلت الموضوعات مع بعضها البعض، فضاعت لدى المتلقّي. وربّما عمد بعض الخطباء إلى تغطية التقصير الذي يتّسمون به في عدم التحضير المناسب للخطبة، باللجوء إلى أساليب غير متلائمة مع المستوى الثقافي للمصلّين، وربّما أتبع أساليب الزجر والنهر والترهيب، وكثير من جلد الذات، بدلاً من الترغيب وترقيق القلوب. والله تعالى عندما أرسل نبيه موسى - عليه السلام - وجعل أخاه هارون وزيراً له أمرهما - عزّ وجلّ - أن يتعاملا مع فرعون في دعوته بالقول الهين، وهو فرعون، الذي ادّعى أنه ربُّ قومه الأعلى، وسعى إلى بناء صرح، ليطلّع إلى إله موسى.

الخطباء في أنحاء العالم الإسلامي يدركون هذا البعد الدعوي نظرياً، ولكن بعضهم ربّما يأخذ الحماس، فيخرج عن الطور، ويجعل منبر رسول الله ﷺ أداة للتفيس، ويجعل من المصلّين مجالاً للوم والتقريع، وكأنهم هم المسؤولون المباشرون عن التقصير الذي يتحدّث عنه الإمام. ويذكرني هذا بإمام أحد المساجد الذي ينصح المصلّين في صلاة الفجر بأن يصلّوا الفجر! ينصحهم بصلاة الفجر، وهم أمامه يصلّون الفجر، بل إن منهم من جاء إلى المسجد مبكراً يصلّي قبل دخول الإمام وقبل الفجر.

إن خطبة الجمعة اليوم، وقبل اليوم، فرصة مواتية للتأثير على الناس وتثبيتهم، وبالتالي، ومع تنامي الوعي عند الناس، فلا بد أن

تكون مركّزة على جزئية صغيرة، ولكنها مهمّة جداً، مع الاختصار غير المخلّ. فإن قِصرَ خطبة الإمام وطول صلاته في يوم الجمعة علامة "مئّنة" على فقهه، كما هو مضمون حديث المصطفى محمّد بن عبد الله ﷺ،^(١) مما هو معلوم أيضاً، لدى الخطباء، إلا أن بعضهم - هدانا الله وإياهم - يتعاملون مع هذا الحديث تعاملًا نظريًا. وإذا لم يكن إمام مسجد الجماعة، وإمام المسجد الجامع وخطيبه، قدوةً في هذا المجال فإن القدرة على التأثير ستكون محدودة جداً.

* * *

(١) ونصُّ الحديث: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئّنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة، وإن من البيان لسحراً». رواه مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة. حديث رقم ١٤٣٧.

الوقفـة الثانية:

المسجد

جاء المؤتمر العالمي التاسع عشر للمجلس العالمي للمساجد الذي عقد في رحاب رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، برعاية كريمة من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - في وقت تمرُّ فيه الأمة جميعاً بحالة غير عادية، فكان أن وجَّه المؤتمر نداءً إلى فئات مؤثِّرة في المجتمع المسلم للتعامل مع هذه الحالة، غير العادية، بقدر عالٍ من الحذر، والمعالجة الحقَّة القائمة على الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى وسنة رسوله سيِّدنا محمد بن عبد الله ﷺ، دون إفراط في الفهم أو تفريط، على ما فهمه عليه سلف هذه الأمة، الذين أبرزوا روح التسامح في الإسلام بين المسلمين ومع غير المسلمين، داخل المجتمع المسلم وخارجه، مما يدخل في مفهوم السياسة الشرعية، بما فيها العلاقات الدولية في مفهومات هذا العصر.

من الفئات المؤثِّرة في المجتمع أولئك الرجال الذين يرقون منبر محمد بن عبد الله ﷺ، سيِّد الأوَّلِين والآخِرِين، في الأسبوع الواحد مرَّة واحدة على الأقل، عندما يجتمع المسلمون لصلاة الجمعة، وقد تهيَّأوا مظهرًا ومخبرًا، ليقولوا ما يرون أنه الصواب، وما يبرئ ذمهم أمام الله تعالى. وهو نداء جاء في وقته، رغم أن كل الأوقات وقت لهذا النداء، بحيث يسهم هؤلاء الرجال في قيادة المجتمع إلى

الخير والطمأنينة، وينشرون مقومات الأمان في النفوس والأبدان، وإنها لمسؤولية عظيمة.

يعجبني في هذا المقام الطرح الصادر عن عالم مدرك يفقه المسؤولية الملقاة على عاتق هؤلاء الرجال، كما يدرك كيف كانت خطبة سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ في أيام الجمع، وغير أيام الجمع في المناسبات التي تستدعي أن يقف عليه الصلاة والسلام هادياً وبشيراً. وفي قمة هذه الوقفات، وكلها قمم، خطبة الوداع التي تحتاج إلى الاستعادة دائماً، وكلما ران على القلوب ما يجرُّها إلى قدر من الغلو في الدين، أو التفريط فيه، فكلا الأمرين شطط، وكلاهما فعل متعد، لا يقتصر على صاحبه، ولكنه يتعدى إلى الآخرين.

مع كثرة المنابر الدالة على كثرة المصلين، الدالة على زيادة التوجه إلى الدين، تزداد المسؤولية على كل إمام وخطيب، لاسيما أن هذه الجوامع، ولله الحمد، ليست كدور العبادة في ملل ونحل أخرى، لها انتماءاتها الخاصة، إذ إن المسجد بيت من بيوت الله، لا يخص فئة دون أخرى، وبالتالي فكل مسلم يتردد على هذه المساجد - دون تصنيف - فيتوقع المزيد من نداءات الهداية، ولذا كان من المهم أن يكون لهؤلاء الأئمة والخطباء مراجع تعينهم - بعد عون الله تعالى - على تلمس الطريق الصحيح في إيصال الرسالة للمصلين، ومرة أخرى على نهج رسول الله ﷺ دون زيادة مخلة، أو نقص بتقصير.

لأن هؤلاء الأئمة والخطباء يعيشون المسؤولية تجدهم في وعظهم يحرصون على أن يزرعوا في النفوس والأفئدة فائدة، مهما كانت هذه الفائدة في مقياس الأفراد قليلة، إذ إن المهم أن يخرج المصلي، سامع الخطبة، بشيء من هذه المناسبة المباركة، وتسمع نقاشاً أحياناً عن خطبة فلان، وما سبقها من تحضير لها، وما صاحبها من إخلاص في طرحها. ولهذا كان لهؤلاء الرجال تأثير، وكانت المسؤولية عليهم عظيمة أمام الله تعالى ثم أمام المصلين، أن يوظفوا هذه المناسبة المباركة، فيما يعود على المجتمع العام والخاص بالخير. وهذا هو المتوقع المأمول.

لست أعيد طرح رسالة المسجد، بقدر ما يتأكد الحديث عن هذه الرسالة، في ضوء الأحداث غير العادية التي تمرُّ بها الأمة هذه الأيام، مما يستدعي مزيداً من الوعي والإدراك وإبراز خطورة الكلمة في هذا الزمن العصيب، لاسيما أن في النفوس قابلية لسماع كلمة من متكلم هو محلُّ الثقة.

الوقفه الثالثة:

خصوصية الرسالة

من أجمل ما يقضيه المرء من وقته أن ينصت لخطيب صلاة الجمعة، الذي رزقه الله علماً وفقهاً، فتراه يسبح به في محيط المعرفة الشرعية، يستتبط الحكم من الأحكام. وكلما كان الخطيب عالماً كان أقرب إلى استتباط الحكمة، وكلما كان العالم فقيهاً كان أقرب من العالم في الوصول إلى الحكمة والله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

تخرج بفائدة عندما تجلس أمام خطيب عالم فقيه، ينظر إلى الدين نظرة ذلك العالم الفقيه، الذي يأخذ من الأوّلين والآخريين، من السلف والخلف، فهو يبحث عن الحكمة، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحقُّ بها. ^(١) ولكنه لا يقبل كل ما جاء به السلف، ومن باب أولى فهو لا يقبل كل ما يسطره الخلف، ولكنه يقيس ذلك على الكتاب والسنة، وينظر إلى ما يقال في مقياس

(١) قال ناصر الدين الألباني في: ضعيف سنن ابن ماجه (رقم: ٩١٢): «إن هذا الحديث ضعيف جداً».

فهمه للآيات والحديث، ولذا تراه يردُّ على الأوَّلين والآخرين، ولكن ردهُ هو ردُّ العلماء الفقهاء، فلا يشتتم، ولا يسبُّ، ولا يسفُّه الآراء، ولا ينتقص قائلها، ولكنه ربَّما يعتب عليهم، إذا لم يطبَّقوا على الأخبار معيار العلماء والفقهاء، المستلهم من علم الكتاب والسنة. ويعتب عليهم، ولكنه يجلُّهم ويوقِّرهم، بل ويحدِّر من أن يساء الفهم حولهم لمجرد أنه يردُّ عليهم.

هذا الخطيب، وأمثاله، تحرص عليهم، وتسرع إليهم، وتتهيأ لهم بالبكور إلى الجامع، تأخذ مكانك بعد السنن والنوافل وقراءة القرآن الكريم، وهكذا ينبغي الحضور إلى صلاة الجمعة، بل ربَّما سافرت إليهم، من شمال المدينة إلى جنوبها، أو من شرقها إلى غربها، ليس لأنه يخاطب عاطفتك، ويجيِّش المشاعر لديك، بحيث تنسى كل ما قيل، أو جله، بمجرد مغادرتك الجامع، ولكن لأنه يمنحك علماً، ويعينك، بعد عون الله لك، أن تزداد إيماناً وتقوى، وأن تفهم الحياة بمنظور شرعي، يجعلك تأخذ منها وتذر، وتبني ولا تهدم، وتزرع ليحصد غيرك في الدنيا، وتحصد أنت في الآخرة، وهكذا ينبغي أن يكون خطيب الجمعة.

كان خطيب الجمعة، الذي أترددُ على جامعته، قد تحدَّث عن عصمة الأنبياء، فجعل العصمة التي منحها الله إياهم؛ لأنهم من المخلصين الذين عجز عنهم الشيطان، فاستثناهم من الغواية، ولأنهم أصحاب رسالة، وهم قدوة وأسوة حسنة بنصِّ الكتاب والسنة، ولذا يأتي هنا النقل والعقل، ليردُّ عنهم الهنات والسقطات، التي يقع بها سائر البشر.

من هنا حُقَّ للإمام أن يعتب على ابن جرير الطبري والبغوي في تفسيرهما، عندما استسلما - رحمة الله عليهما - للأخبار الواردة عن اليهود، التي اصطلح على تسميتها بالإسرائيليات،^(١) فأوردوها دون أن يعلقوا عليها أو ينفوها، ذلك أن منطلقها غير سليم، وغايتها غير نبيلة، ويكفي أنها قد وردت عن اليهود بحق الأنبياء، في الوقت الذي علم فيه موقف اليهود من الأنبياء، فهم لم يكذبوا عليهم، ويلفقوا لهم التهم، ويلحقوا بهم النقائص فحسب، ولكنهم سعوا إلى قتلهم، وقتلوا بعضهم!

لذا كان لزاماً على المفسرين الأوائل والأواخر أن يتحققوا من الروايات ويحققوها، فيأخذوا منها المعقول من المنقول، ويردُّوا منها غير المعقول وغير المنقول، لاسيماً إذا كانت تدعو إلى منقصة، أو تحرُّض على معصية، أو تعين على سوء فهم.

يتضح هذا جلياً في الأخبار الواردة عن الأنبياء، القائمة على تفسير آيات بيِّنات، فتُفسَّر خلاف المراد، وتحمل ما لا تحمل، مما جعل كتاب العصر من المستشرقين، ومن تأثر بهم، يعتمدون عليها في أخبارهم المغرضة، ويعيدون القارئ إلى الأئمة من المفسرين والمؤرخين، بل، ربَّما، بعض علماء الشرع والدين الآخرين، فيأخذوا منهم ما أخذوه هم من الإسرائيليات، ونواتهم المشهورة سلمان رشدي، ثم أنور شيخ، ثم من سبقهم، ومن سيلحقهم، من

(١) انظر: محمد سعيد العشماوي. إسلاميات وإسرائيليات. - القاهرة: دار

المعارف، ١٩٩٩م. - ٢٣٦ ص.

أولئك الذين يسعون إلى تشويه الدين وأنبياء الله ورسله، لاسيما في الأمور الشخصية، التي تورد على أنها أخبار، ولكنها تتنافى عندنا مع العصمة.

العصمة للأنبياء، ولذا، ولأنهم معصومون، فيؤخذ منهم كل شيء على أنه من السنة، ومعنى هذا أنه يؤخذ منهم في قولهم وفعلهم وتقريرهم، وعليه، فإنهم لن يفعلوا شيئا لا يمكن الأخذ به، وإلا لما كانوا قدوة لنا وأسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا، وبالتالي لن يتركوا شيئا فيه مصلحة للأتباع، دون أن يدلووا عليه، وعليه، فإن ممارساتهم البشرية تدخل في إطار المثالية الواقعية القابلة للتطبيق، ويقل كثيرا، إن لم ينعدم، جانب الخصوصية في الأفعال. ومن المهم التأكيد على ذلك؛ لأن الحديث كثر، اليوم، في عزو بعض الأفعال التي جاءت عن المصطفى - عليه الصلاة والسلام - بالخصوصية الشخصية والمكانية والزمانية. ولأهل العلم في هذا تفصيل طيب.

من هذا المنطلق فإنه لا يعقل عندنا أن تكون هناك تصرفات غير مقبولة من أي نبي، وبالتالي من الرسول محمد بن عبد الله ﷺ. ويرد العالمون، بناء على هذه القاعدة، على المفسرين الذين وقفوا عند الآيات التي تعالج زواج الرسول - عليه الصلاة والسلام - من زينب، بعد أن تركها زيد. ويردُّون على المفسرين الذين نقلوا عن الأخبار الإسرائيلية رغبات غير معقولة من نبي في هذا المجال^(١).

(١) انظر: زاهر بن عواض الألعوي. مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ

يصدق هذا على قصة يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز التي شغفها يوسف حباً ، فحاولت به وهمّت به ، ولكنه رأى برهان ربه ، فلم يهّم بها ، ولو لم يزر برهان ربه لربّما همّ بها ، من باب حديث النفس ، ولكنه استعصم ، فكادت له امرأة العزيز كيداً عظيماً ، وشهد شاهد من أهلها . ويوضّح الشيخ الشنقيطي - عليه رحمة الله - هذه النقطة توضيحاً دقيقاً ترسيخاً لمفهوم العصمة .

يعدُّ من هذا أيضاً قصة داود - عليه الصلاة والسلام - الذي اقتُري عليه في زوج أحد الجند بأنه رأى الزوجة تغتسل في سطح المنزل فأرادها ، ولكنه قبل إن يصل إليها أرسل زوجها للجهاد ، وأوعز إلى قائد الجند أن يجعله في المقدّمة؛ رغبة في موته ، ثم الحصول على زوجته . والحديث هنا عن نبي معصوم لا يليق منه ، ولا يعقل أن تكون هذه الألاعيب الرخيصة الهابطة القائمة على المكيدة مما يتّصف به رسول معصوم .

مثل هذا ما ذكره القرآن الكريم من أن امرأة نوح وامرأة لوط - عليهما السلام - كانتا تحت ذمة عبيد صالحين من عباد الله فخانتاهما . وهنا يأتي الإسقاط ، فتتهم الخيانة على أنها الخيانة الزوجية ، وهذا غير وارد في حق الأنبياء ، تكريماً لهم من الله تعالى ، فلا يمكن أن تحصل من زوجاتهم خيانة زوجية ،

بزينب بنت جحش: دراسة تحليلية. - ط ٤. - الرياض: المؤلف،

١٤٠٣هـ/١٩٨٣م - ١٢٧ ص.

ولكنهما خانتاهما بعدم إيمانها بهما، وبعدم وقوفهما معهما في المحن والابتلاءات التي مرَّ بها، ومرَّ بها غيرهما من الرسل والأنبياء. ويدخل في هذا المفهوم حديث الإفك.

هكذا تقتضي العصمة، وهي نوعٌ من الخصوصية، للأنبياء أن يكونوا منزَّهين عن هذه الشطحات، التي يندر أن تحصل من المؤمنين، ناهيك أن تحصل من الأنبياء والرسل، مهما جاءت بعض التفسيرات من بعض المفسِّرين بذكر الروايات التي تُردُّ على أصحابها، على اعتبار أن شرعنا يقول في معرض الموقف من الأخبار والروايات: إن كلاً يؤخذ من كلامه ويردُّ إلا المعصوم محمد بن عبد الله ﷺ فيؤخذ كلامه ولا يردُّ، لا كله ولا بعضه.^(١)

إذا تبين أن الأنبياء معصومون، وأن العصمة من سماتهم، التي جعلها الله فيهم، تشریفاً وتكريماً، ليكونوا حقاً قدوة وأسوة، فإن هذه العصمة إنما تنفي عنهم الزلل، من ناحية، وتوجب قبول ما أتوا به والانتفاء عما نهوا عنه، لاسيما في حالنا نحن مع ما جاء عن سيِّدنا رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ على اعتبار أنه خاتم الأنبياء، جاء بخاتمة الرسالات، وأنزل عليه خاتم الكتب، فلا نبي ولا رسالة ولا

(١) يؤثر هذا القول عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - ، ونقلها عنه مجاهد - رحمه الله - ، ونقلها عن مجاهد الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - ونقلها عن مالك الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - . انظر: محمد ناصر الدين الألباني. صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم، كأنك تراها. - ط ١٣. - بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. - ص ٢٦ - ٢٧.

كتاب بعد رسالة المصطفى - عليه الصلاة والسلام - والإيمان بمبدأ العصمة يعين كثيراً في عدم قبول ما يحاك حول المصطفى ﷺ من أخبار، يراد منها انتقاص الرسالة. وهذا كله أثاره ذلك الخطيب الذي علم ما يقول، وفقه ما يريد أن يقول.

* * *

الوقفه الرابعة

خصوصية العلماء

أما وقد استقرَّ في الذهن، ووقر في الصدر، وصدَّق العمل، أن الأنبياء معصومون من الخطأ والزلل، بعيدون عن ملذات الدنيا وشهواتها، غير المشروعة، منزَّهون عن المطامع الشخصية، والمؤامرات المحاكة، والخدع الرخيصة والغالية، فإنه يستقرُّ في الذهن، ويقرُّ في الصدر، ويصدَّق العمل، اعتبار غيرهم من الأئمة والعلماء والرجال من القيادات العلمية والفكرية والسياسة، وغيرهم كلهم، غير معصومين، يقع منهم الزلل، ويعتريهم الخطأ، ولكنهم ليسوا، بالضرورة، عرضة للمطامع الشخصية، والمؤامرات المحاكة، والخدع الرخيصة، لأنهم حينئذ يفقدون مقاماتهم بين الناس، ذلك أنهم ومع أنهم غير معصومين، إلا أنهم يعدُّون ورثة الأنبياء، وبالتالي فإنه ينظر إليهم على أنهم حملة الأمانة والقدوة بين الناس. هذا بخلاف بعض الثقافات الأخرى القائمة على الدين، التي تعتقد العصمة لمن تولَّوا القيادة الدينية في زمانهم.^(١)

(١) «في مجمع الفاتيكان الأول ١٨٦٩ فرض معصومية البابا من الخطأ؛ لأن البابا يوحى إليه من مباشرة من الروح القدس عند الحاجة». وجاء هذا القرار بأثر رجعي. انظر: معصومية البابا من الخطأ. - ص ٣٤. في: زينب عبدالعزيز. الإلحاد وأسبابه: الصفحة السوداء للكنيسة.

لكن هذه القدوة لا تعني الكمال، فالكمال كله لله تعالى، ولكنها تعني، بالضرورة، أنهم معرضون للأخطاء في تفكيرهم، وفي فهمهم، وفي تفسيرهم للأحداث والنصوص. ولا يستثنى من هذا أعلام أفاضل من أعلام الأمة ممن تصدر للنصوص الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يفسرونها، ويبحثون عن الدلائل والموثقات التي تعين على فهم النصوص.

هذا ليس جديداً علينا من حيث الفهم والاعتقاد، ولكن الذي يبدو أنه إذا وجدت زلّة من عالم، عند بعض من يتصورون منه العصمة، أو عند بعض المتربّصين، مسحت جهوده كلها؛ لأنه وقع في هذا الخطأ أو ذلك. وربّما كتبت عنه الرسائل، وألقيت فيه الدروس، وحذّر الناس منه ومن علمه، لأنه وقع في الصفحة كذا من المجلد كذا من عشرين مجلداً، هي كتاب واحد من مئة كتاب ورسالة، كتبها هذا العالم أو ذلك.

صحيح أنه يقال إن من ألف فقد استهدف، ولكن الاستهداف هذا نوع من الاعتراف الضمني بتعرض المؤلف للخطأ والزلل، ولكن الاستهداف هذا أيضاً يعني النقد والمؤاخظة والردّ على المؤلف العالم، بروح علمية موضوعية، تحفظ لأهل الفضل فضلهم، ولا تنقص أخطائهم من قدرهم. ولذا فلا داعي للبحث

=

دمشق: دار الكتاب، ٢٠٠٤م. - ٢٠٠ ص. - (سلسلة صليبية الغرب

وحضارته؛ ٢).

عن عورات العلماء، وتقصي أخطائهم، وإن كبرت في عيون بعض الناس. والأدب معهم يفرض الدعاء لهم بالمغفرة والعفو.

الحق أنه من هذا المنطلق، "منطلق العصمة للأنبياء"، وانتفاؤها عن غيرهم، قد يرتاح المرء إذا ما وقع على خطأ في كتاب أنفق عليه صاحبه سنين طويلة، وسهر الليالي في الخروج بهذا التراث العلمي الذي لا نزال نهله منه، وسنظل كذلك إلى أن يشاء الله تعالى.

ربما قيل إن الانشغال بهفوات العلماء، على ما فيه من تقليل من شأنهم، وبالتالي الإعراض عنهم، فإنه انشغال على حساب الانشغال بالعلم، وتووير الناس ونقلهم من الفاضل إلى الأفضل، والاهتمام بقضاياهم وقياسها بالقياس الشرعي، ونشر الوعي الديني بينهم، الأمر الذي تحتاجه جميع المجتمعات، التي لا تأبه كثيراً إلى الانشغال بالهفوات، إلا بالقدر الذي ينزع الثقة من السلف، فيعمد الناس إلى البحث عن علماء، لا يسلمون من ألسنة المشتغلين بالهفوات وأقلامهم.

لعله لا يفهم من هذا كله تقديس هؤلاء العلماء، فمقدمته هذه الوقفة تنفي ذلك، وتحذر منه، والنظرة الوسطية كفيلة بأن تريح العباد، الراحل منهم والباقي، إلا من أتضح منه أمور لا يُصبر عليها من المضللات، فإن هذا لا يدخل في المقصود من هذه الوقفة.

الوقففة الخامسة :

بناء المساجد

استناداً إلى آراء العلماء الأفاضل وفتاواهم، المبنية على الابتعاد عن الإزعاج الذي تحدثه مكبّرات الصوت في المساجد، أجدها مناسبة للدعوة إلى التقليل من بناء المساجد في المدن الكبرى، وتوجيه الجهود إلى بنائها في المدن الصغيرة والقرى والأرياف. وإن مسجداً يبنى في مدينة كبيرة يمكن أن يبنى فيه ثلاثة مساجد صغيرة، في تلك القرى والأرياف والمدن الصغيرة.

ولقرب مساجد المدن من بعضها، وإصرار بعض الأئمة على رفع مكبّرات الصوت، جعل أحد المأمومين في أحد المساجد جلس مع الإمام جلسة التشهد، وكان المسجد الآخر يقرأ الفاتحة، فلما انتهى الإمام الآخر من قراءة الفاتحة قال المأموم المصلي في المسجد: "أمين" بصوت جهوري. ومع أن هذا يعني أن هذا المأموم كان مشغولاً عن الصلاة، وهو فيها، إلا أن هذا يبرز مدى التداخل الذي تحدثه مكبّرات الصوت فيما بينها، ويبرز كذلك مدى قرب المساجد بعضها من بعض، وهناك مطالبات ممن يعمرّون هذه المساجد، من أهل الخير، إلى أن تتحوّل إلى مساجدهم هذه إلى مساجد للجمعة، بحيث قد تتداخل الخطب، كما تداخلت الصلوات..^(١)

(١) انظر البحث الشرعي المستفيض لفضيلة الشيخ الدكتور صالح بن

أما في المدن الصغيرة والقرى والأرياف والطرق فإنها تحتاج إلى عناية أكثر مما هي عليه الآن، لاسيماً في عمارة المساجد، إذ إن بعض مساجدها متواضعة في مساحتها، وخدماتها، وفرشها، وإنارتها، وتهويتها، بل ونظافتها وصيانتها. ولست ألمح هنا، من قريب أو بعيد، إلى تقصير متعمد أو غير متعمد من أي جهة من الجهات، لاسيماً الجهة المسؤولة عن عمارة المساجد، إذ إنها تقوم بجهود محمودة وواضحة، لا يملك مثلي التشكيك في مدى ما تنجزه. ولكنني في هذه الوقفة أذكر أهل الخير الذين يرغبون في الاستمرار في عمارة المساجد أن يتجهوا إلى تلك الأماكن التي تعاني من هذه اللفتات الطيبة، من حيث عدم توجُّهها إلى تلك الأماكن.

لقد عرض عليّ أحد الزملاء مشروع إقامة مسجد جامع على الطريق العام، الذي يربط بين منطقتين من مناطق المملكة. ولا يكف المشروع أكثر من ربع مليون ريال (٢٥٠,٠٠٠) ريال، بما في ذلك فرش الجامع وإنارته وتهويته، على مساحة لا تزيد عن مئتين وخمسين متراً مربعاً (٢٥٠م^٢)، هي كافية لأهل هذه البلدة، ولمن يمرُّ عليهم، للصلاة في المسجد، وذكر لي أنه لا يوجد في هذه البلدة جامع إلا في الموقع القديم، الذي كان يقطن فيه السكان، ثم نزحوا عنه، بحكم التسهيلات العمرانية التي قدّمها صندوق

عبدالرحمن الأطرم حول موضوع مكبرات الصوت في المساجد، المنشور في صحيفة الجزيرة في ١٧/٩/١٤١٧هـ.

التمتية العقاري، فظهرت مساكن حديثة في السهل، بعد أن كانت المنازل في الجبال.

هذا ما قاد إلى إثارة هذه الوقفة. ليست تعمدًا إلى تعميم حالة واحدة، ولكنها حالات تستحق من أهل الخير النظر في التوجُّه إلى هذه الأماكن، بعد أن تشبَّعت غالب المدن الكبرى بالمساجد، ولله الحمد والمنة. وإذا كان هذا قد يفهم على أنه سلبية فإنه ينظر إليه من وجه آخر على أنه جهد إيجابي في انتشار المساجد في كل مرَبَّع من المربَّعات السكانية، ولكنها إيجابية ينبغي ألا تكون على حساب الحاجة القائمة في بعض القرى والأرياف، التي تشكُّل مرَبَّعًا واحدًا من مربعات المدن.

مهما يكن من أمر فإن كثرة بناء المساجد وقيامها مؤشِّر طيِّب، ينبئ عن عمارتها المعنوية بالصلاة والذكر وقراءة القرآن الكريم وحفظه وإلقاء الدروس، وتحقيق رسالة المسجد، في تأثيره على المجتمع.

* * *

الوقفة السادسة

المصليات

المصليات هي أماكن للصلاة غير دائمة. ولذا فإن لها أحكاماً غير أحكام المسجد. وعادة ما تكون المصليات في أماكن لا تتوفر فيها مساجد دائمة. ولا تكون مجهزة تجهيزاً تاماً، كما هي الحال في المساجد. ولدينا في هذه البلاد الطاهرة حرص مستمر على أداء الصلوات جماعةً، في أوقاتها، وفي أي مكان. ولا ينتظر قيام المساجد في كل مكان، لاسيما أن الأرض قد جعلت للمسلمين مسجداً وظهوراً.^(١)

لدينا في هذه البلاد الطاهرة - كذلك - منشآت حديثة وكبيرة، وترجم نهضةً عمرانيةً طيبة. ولأن هذه المنشآت العمرانية كبيرة فإن المسجد إذا أقيم فيها يكون في زاوية من زوايا هذه المنشأة مما يرتاده العامة، كالمستشفيات، أو يكثر فيها الموظفون، كالوزارات والمصالح الحكومية الأخرى، وغيرها، تجد أن الناس يبحثون عن فراغ داخل المنشأة، ويفرشون فيه فراشاً

(١) رواه البخاري في كتاب التيمم، باب قول الله تعالى: ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً

فَتَيَمَّمُوا ﴾. حديث رقم ٣٢٣، ورواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع

الصلاة، حديث رقم ٨١٠.

يصلُّون عليه، وينثرون نعالهم في مداخل هذه الفراغات. وعادة ما تكون الفرشة متواضعة، لا تتماشى مع رونق المبنى وجماله وخضرتة وتصميمه البديع. وهذا الشكل غير الملائم لهذه الفراغات يسيء إلى أمرين:

الأمر الأول: الإساءة إلى هذه الشعيرة اللازمة، التي تقوم بها خمس مرَّات في اليوم، فإذا كان الأمر كذلك فالأحرى بهذه المنشآت أن تخصص أماكن واضحةً ونظيفة، احتراماً للشعيرة التي تؤدَّى فيها، إلى درجة نظافة المفارش وتخصيص "أدراج" للنعال، وتطهير هذه الأماكن. ويكون هذا من صلب تصميم المبنى نفسه.

الأمر الثاني: الإساءة إلى المبنى الأنيق نفسه، لاسيَّما أن الذين يهتمهم الرونق قد لا يرحِّبون بهذا التصرف من المصلِّين، ويرغبون في أن يذهب الجميع إلى المسجد المخصَّص للصلاة. وهو مصمَّم حقاً ضمن تصميم المبنى نفسه، وفي مستواه، إلا أنه بعيد المسافة.

المؤمِّل أن يُنظر إلى الأمر الأول نظرة جادة، من لدن الجهات التي تضع، أو تسمح بوضع تصميمات للمنشآت الكبرى، التي يطرُقها العامَّة، أو يكثر بها العاملون، بما في ذلك مراعاة السلامة في المنشآت الصناعية، التي يكثر فيها العاملون. وبالتالي فإن النظر إلى الأمر الأول، وهو وجود مصليَّات لائقة داخل هذه المنشآت سينعكس إيجابياً على الأمر الثاني، بحيث لا يقل تصميمه عن أي قسم أو فرع من أقسام هذه المنشأة. وليس من اللائق أن تستغلَّ المرَّات أو الفراغات المقصودة للتهوية والإضاءة أماكن للصلاة. وأثق أن هذا سيكون مكان تقدير المصمِّمين والمنفَّذين، إذا ما

أدركوا هاتين الإساءتين اللتين تحصلان، بسبب عدم تخصيص أماكن مناسبة للصلاة فيها، في الأوقات التي يكون فيها كثرة من المصلين.

يكفي أن نتصورَ واحداً من المستشفيات الكبرى، أوقات زيارة المرضى، لندرك هذه الكثرة التي تستحقُّ هذه الدعوة، أو نتصورَ إدارة، حكومية أو أهلية، يفتد إليها كثير من المراجعين، لندرك، أيضاً، أن المسألة ليست وقفةً واحدة في وقت واحد، ولكنها وقفاتٌ في أوقات متعددة. والأمل أن يوفق المصممون المسؤولون عن ذلك إلى ذلك.

* * *

الوقفه السابعة:

الصلاة في السفر

السفر مشقة، وسيظل مشقة، مهما تطوّرت تقنية النقل، وقرّبت المسافات، ولذا تظل أحكام السفر في الإسلام ثابتة، مهما كانت حال السفر، وهي أحكام أراد الشارع منها التيسير على العباد، في قصر الصلاة وجمعها والإفطار للصائم، وغيرها من أحكام العبادات في السفر. ومع هذا، ومع إمكانية تأجيل الصلاة، مع جمعها مع العشاء، مثلاً، أو العصر مثلاً، ترى الناس يقفون على قارعة الطريق، ويتوضأون، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويصلون الفريضة، مع أنهم في سفر نفسياً وحسياً، إلا أنهم ترجّلوا عن رواحلهم، وأقاموا الصلاة.

من الجميل في السفر، حال السفر البرّي والجوّي، التعلّق بالله تعالى بدعاء السفر، والتذكير فيه مع كل مرحلة من مراحل السفر، ففي الطائرات السعودية، وبعض الخطوط الجوية الأخرى، في رحلاتها الداخلية والخارجية، يُقرأ دعاء السفر المأثور عن المصطفى ﷺ، توكيداً على أن السفر، حتّى في أسرع الوسائل اليوم، يظل قطعةً من عذاب، محفوقاً بالمخاطر، وإن اختلفت هذه المخاطر، بحسب الزمان والمكان.

ترى السيارات الواحدة تلو الأخرى، استأذنت من الطريق، ومن السرعة، ومن التطلّع إلى الوصول المبكر، ومن التجاوز من

اليسار أو اليمين، وقبعت تنتظر الناس يصلون، على يمين الطريق القادم والذاهب. وهذا منظر جميل، إذا ما تأمله المرء، الذي وطن النفس على الصلاة في البلد، بعدما يصل - بإذن الله - سالماً معافى، مما يحدوه إلى أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويقف مع الواقفين، ويصلي الفرضين قصراً وجمعاً، يرتاح بهما، ثم ينطلق مرة أخرى يمخّر عباب الصحراء، وهو كله راحة تامة، بعد أن أدّى ما عليه، وقدم حق الله تعالى على حقوقه هو وحقوق الآخرين، هو منظر جميل حقاً.

هو منظر جميل للمارين المسافرين من غير المسلمين، إذ يتأملون هذا الموقف غير المألوف في ثقافتهم، وفي أدائهم لعباداتهم. هم يرون الناس أهملوا كل شيء، في وقت يحرص المرء فيه على كل شيء، وتوجهوا إلى الله تعالى. وإن هذا المنظر من المناظر المؤثرة على غير المسلمين الذين يعقلون هذا المنظر، فيضيف إليهم قناعة أخرى من القناعات، التي تؤدي في النهاية إلى موقف إيجابي، قد يصل إلى الهداية بإذن الله تعالى. وأظن أن تأثير هذا المنظر على غير المسلمين أقوى منه على المسلمين أنفسهم. وإن كان على المسلمين قوياً، ذلك أنه ربما اعتاد المسلمون هذا المنظر، ووجدوه مألوفاً. وهو مفهوم لديهم في أناس يؤدون فرضاً عليهم، آثروا التقديم فيه على التأخير. أما أثره على غير المسلمين فيأتي من تخلي المسافرين عن الطريق بعد أن يستوي عليه، لا حاجة ماسة له تعيقه عن السير، ولكن حاجة له توثق علاقته مع الله تعالى.

أتابع الدعوات إلى إقامة مصليّات على جوانب الطريق، تكون فيها خدمات الوضوء وأماكن الصلاة للنساء والرجال. وأقف مع هذه الدعوات إذا ما كانت هذه المصليّات ومنافعها بسيطة جداً، وواضحة للجميع، لاسيّما المارّة من المسافرين، وكانت مكشوفةً الجوانب وإن كانت مسقوفةً، لتقي من الشمس في النهار، لأنني أريد أن أبقى على هذا المنظر المؤثر الذي عشته مرّات عديدة.

على أي حال، فمنظر المساجد والمصليّات على الطريق السريع هو، بحدّ ذاته، منظر يوحي بأن الدنيا لا تزال بخير، وستظل بخير، وأن الناس حريصون على الاستمرار في علاقتهم مع الله تعالى في السفر والحضر، الأمر الذي يبعث على الاطمئنان والأمان من الجوع ومن الخوف.

على الطرق الداخلية السريعة تجد عبارات متعدّدة، تذكّر بالتعلّق بالله تعالى. وهي طيبة ومطمئنة. والملاحظ على هذه اللوحات توحيدها في الحجم، غالباً، وفي الخط وفي اللون البني المتعارف عليه في الخطوط السريعة على أنه إرشادي، لأمر غير متعلّق مباشرة بالطرق، وغيرها. والتوحيد هذا جيد من نواحٍ عدّة، منها أنها مقصودة رسمياً، ومقرّة من الجهات المعنية، إلى درجة الاضطلاع بها والمسؤولية عنها عن طريق وزارة النقل.

ومنها الحد من الجهود الفردية المجتهدة، التي يسعى إليها بعض فاعلي الخير ماجورين، ولكنهم لن يتمكنوا من مراعاة الشكل والحجم والخط واللون، هذا بالإضافة إلى الوقوع في أخطاء لغوية ونحوية، لا ينبغي الوقوع فيها، مثل إثبات ياء المنقوص

وألفه مع فعل الأمر من صلى يصلى، ونسى ينسى مع النهي في: "اللهم صلّ على محمد" و"لا تنس ذكر الله"، ممّا قد يوحي بضعف الحصيلة النحوية الإعرابية عند بعض ممن يصيغون العبارات، سواء هذه العبارات أم غيرها، مما يؤذي العين أن تراه، ويؤرّق الأذن أن تسمعه. ومع الرغبة في المرونة اللغوية والنحوية، إلا أن المرونة في اللغة لا تعني بأي حال التسيّب اللغوي، وإغفال متطلبات القواعد العربية. وقد يصل الأمر إلى تعليق آثار غير ثابتة، مبالغة في هذا النهج الجميل في انطلاقته، إلا أن الحذر فيه مطلوب.

مع إبراز هذه الملحوظة اللغوية المهمة عندي، تظل فكرة اللوحات المطمئنة رائدة وجيدة. والأمل في الحرص عليها ووضعها بطريقة مناسبة على الوضع الذي هي عليه الآن في بعض الطرق السريعة داخل المملكة. ومثل هذه الإضافات الطيبة دلائل شاهدة وقوية على سريان هذه البلاد نحو التميّز والخصوصية، في أمر مفتوح للجميع، وبالإمكان تطبيقه في أكثر من بلد، وليس هناك ما يمنع من مراعاتها، إلا أن التميّز والخصوصية هي التي تراعيه.

الفصل الثالث السعوديون والركن الرابع

الوقففة الأولى:

رمضان

لعلّ من أسعد الناس من يلحق بشهر رمضان المبارك، فيوفّق في صيامه وقيامه وفعل الخيرات فيه. ولذا نجد العلماء والأئمة والخطباء، مع قُرب حلول شهر رمضان المبارك، يبدعون في الدعاء بأن يبارك الله تعالى لنا، جميعاً، في رجب وشعبان، وبيئنا رمضان. ولعلّ من أسعد الناس من يترقّب هذا الشهر الكريم، ليقدم لنفسه ولغيره الخير. وما دامت هذه هي النية، فإن مثل هؤلاء الناس على خير، حتّى لو لم يبلغ بعضهم رمضان، فإن الله تعالى - وهو واسع الرحمة - يحاسب من ينوي الخير بالثواب، حتّى إذا عاق عائق غير إرادي دون فعل الخير، الذي بيّت النية لفعله.

أعجب لنداءات بعض الزملاء الصحفيين والمتعاملين مع الصحافة إلى الدعوات المتكررة لتقليص الأداء في شهر رمضان المبارك، لاسيّما في المجال التربوي، وتهيب بعض المهتمين من استمرار الدراسة في هذا الشهر الكريم، وبالتالي موافقة الاختبارات في بداية الشهر، وكأن هذا الشهر لا يصلح للأداء والعمل والاستذكار والتحصيل العلمي. وهو ليس كذلك، ولم يُرد له أن يكون كذلك، بل ربّما أريد له أن يكون شهر عمل وعبادة وجهاد، بالمفهوم الأشمل لكلمة العبادة والجهاد، المتمثلة في الأداء

والعمل والتحصيل العلمي والاستذكار والتعليم، ما قصد بها جميعاً وجه الله تعالى، فيضاعف فيها الأجر المستحق لكل مسلم ينظر هذه النظرة، ويعدُّ كل خطوة يخطوها في هذه الحياة عبادة لله تعالى.

المؤمل أن يركِّز الإعلام، لاسيَّما الصحافة، على "عملية" هذا الشهر الكريم، مع الأخذ في الحسبان مرور هذا الشهر المبارك في دورة الزمان بفترة الصيف، التي تفرض قدرًا من التعب والإعياء، ولكن هذا يعالج في حينه. لاسيَّما في فصل الشتاء، فدورة الزمن تجعل هذا الشهر المبارك يصادف فصل الشتاء البارد، الذي يقصر فيه النهار ويطول فيه الليل. وهذا يعني أننا نصوم هذا الشهر - في معظم البلاد شرقها وغربها - ما معدَّله اثنتا عشرة ساعة في جو بارد. وهذا يؤيد التوكيد على تحبيذ الاستمرار في العمل في هذا الشهر الكريم، كما قبله من الشهور وما بعده.

عليه، فربَّما كان من الأجدي استمرار "الدوام" على ما هو عليه، أو ربَّما التبكير فيه لساعة على الأقل، بحيث يبدأ بعد ساعة من خروج الناس من صلاة الفجر. وقد جرَّبْتُ هذا الأسلوب شخصياً في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكنْتُ وكيلاً للكلية، ووجدتُ أنه ذو جدوى عملية، لم أكن أتوقَّعها، لاسيَّما مع الطلاب والشباب، ولكنهم، مشكورين، خيَّبوا ظني، وكانوا أنشط مما كانوا عليه من قبل، وتفاعلوا مع التبكير، فكان لهذا أثره على التحصيل.

ليت صحافتنا، ممثلة بالكتاب المهتمين بالإدارة العامة لهذا المجتمع الفاضل، يتوجهون إلى التوعية بضرورة أخذ هذه الفكرة بعين الاعتبار.

* * *

الوقفنة الثانية:

في العبادة

إن مما يؤثر عن السلف الصالح أنهم كانوا يجعلون من هذا الشهر المبارك شهر عمل متواصل، وهو شهر جهاد، بالمفهوم العام الشامل للجهاد. لم يتوقف المسلمون في شهر رمضان عن العمل، بل إنهم تعمّدوا مضاعفة العمل في هذا الشهر الكريم.

لقد مرّ علينا زمان ليس بالبعيد أسأنا فيه هذا المفهوم، لم نُسء المفهوم كلنا، ولكن معظمنا أساء مفهوم العمل في رمضان، فتحوّل الشهر من شهر عمل مضاعف إلى شهر يخيم عليه الخمول والكسل، والنفسية أملت على الكثيرين أن كل شأن من شؤون الدنيا ينبغي أن يتوقف، أو، على أقل تقدير، يتباطأ في سيره، بحجة أننا قوم صائمون، وينبغي عدم إزعاجنا بأمور الدنيا.

هذا يعطي الانطباع أن هذا الشهر وقف على الصيام، الذي هو طاعة لله، ولا شك، لكن الإساءة، هنا، أننا نفصل في مفهوم الطاعات بين العبادات المباشرة التوقيفية، كالصلاة والصيام والزكاة والحجّ، والعبادات غير المباشرة، التي يدخل فيها العمل اليومي في أيّ مجال من مجالات العمل. فكأن أركان الإسلام الأربعة، بعد الشهادتين، هي العبادات، وما غيرها ليس من

العبادات، بل هي من شؤون الدنيا، التي ينبغي، في هذا المفهوم، هجرها خلال شهر الطاعات والعبادات.

هذا المفهوم يضرُّ بالأُمَّة، كما هو مضرٌّ بالفرد. ويأتي من الحاجة إلى استقرار مفهوم العبادة في النفوس، إذ إن العبادة لله تعالى ليست مقصورة على هذه الممارسات المفروضة التوقيفية فحسب، بل إن كل تصرف في حياة المرء، معقود بالنية، يمكن أن يكون عبادة لله تعالى، ينال عليه العبد الأجر والثواب من الله تعالى.

العمل اليومي، في أي مجال من مجالات العمل، يمكن أن يدخل في مفهوم العبادة، إذا ما اقترن بالنية بأنه عبادة لله. وعليه يتبين أن السلف الصالح قد أدرك هذا المفهوم من قبلنا؛ لأنه كان أقرب منا إلى المنبع، فعمل في شهر رمضان أضعاف ما كان يعمله في غير شهر رمضان المبارك. وانتشر الإسلام بين الناس في شهر رمضان، وفي غير شهر رمضان، وكان شهر رمضان المبارك قد شهد أحداثاً كان لها أثرها على المسلمين، وعلى انتشار الإسلام، ولم ينتظر المسلمون حتى يخرج الشهر، ليفتحوا مكة المكرمة، أو ليقاتلوا أعداءهم من الصليبيين واليهود والشيعيين والوثنيين، وغيرهم. فإذا كان هذا حال المسلمين مع القتال والجهاد، فإن حالهم في حياتهم اليومية لا تقلُّ عن هذه الحال.

اليوم، وبفضل من الله تعالى، ثم بفضل الوعي المستمر بين الناس، بدأت تعود إلى شهر رمضان المبارك معانيه الأصيلة، التي ارتبطت به، إذ إن الدعوة إلى تصحيح المسار وتصحيح المفهوم لها

أثرها القوي على الناس في أن يضاعفوا من أعمالهم في هذا الشهر المبارك، ويجعلوا جميع سلوكياتهم تعود في النهاية أجرًا لهم عند الله، وإن كانت قد تتوقّف على إنجاز معاملة أو على استقبال طيّبٍ لمراجع، أو على أنها خدمة لآخر، أو على تقديم رأي أو مشورةٍ لمستشير.

هذه بادرة طيّبة تحتاج إلى المزيد من التركيز، حتّى نعود إلى المفهوم الصحيح للممارسات، في شهر رمضان المبارك، وهذا يعني أن ساعات الصيام تقلّ في النهار سنة بعد سنة وأن الليل يطول، مما يتيح مجالاً للراحة، تنعكس على الأداء اليومي للأعمال، وهذا مؤشرٌ مشجّع فقط، وليس مبرراً للإساءة إلى مفهوم الصيام، في الأزمنة التي كان فيها النهار أطول من الليل، وكانت الحرارة فيها عالية، فالذي نفهمه أن شهر رمضان كان قد حلّ على المسلمين في وقت الحرارة والصيف. ومن هنا يأتي اشتقاق رمضان من الرمش، وهو شدة وقع الشمس على الرمل، كما يقول الفيروز آبادي في القاموس المحيط، وقيل غير ذلك في أسباب تسمية هذا الشهر الكريم بـرمضان.

على أي حال فإن المؤمّل أن يكون هذا الشهر المبارك حافزاً لنا على مضاعفة أعمالنا، وابتغاء وجه الله فيها والدار الآخرة. والجزم بأن أي إنجاز نقصد فيه وجه الله تعالى، من خلال هذه الأعمال، سيعود علينا بالخير في هذه الدنيا وفي الحياة الآخرة.

الوقفه الثالثة

الاحتيايل على الصيام

من نتائج البعد عن الفهم الصحيح للصوم، في شهر رمضان بخاصة، نجد في المجتمع المسلم بعض الممارسات التي تحاول الاحتيايل على الصيام. وهذا الاحتيايل إنما يأتي من أن الصيام عبء على الصائم، أو على الشخص الذي يجب عليه الصيام، ولذا ظهرت الحيل التي تسعى إلى الهروب من هذه المسؤولية.

تعددت وسائل الاحتيايل على شهر رمضان المبارك في مسألة صيامه، ومن هذه الوسائل:

- ١- تقطيع الصيام بالسفر، كما يؤثر عن أحدهم قوله: والله لأقطعنه بالأسفار، وكأن السفر عذر دائم عن الصوم، ومهما سافر المرء إلا أنه مطالب بالقضاء، والصيام مع عموم المسلمين شهراً كاملاً أهون على مثل هذه النفوس من الانفراد بالصوم، مهما كان زمن الصوم، فيما يتعلق بالحرارة والبرودة في الجو.
- ٢- تنتخب بعض المجتمعات الصغيرة ثلاثين شاباً من أبنائها، ويصوم كل واحد من هؤلاء الثلاثين يوماً واحداً من شهر رمضان المبارك، ويعدُّ صوم هؤلاء الشباب الثلاثين صوماً للمجتمع كله.

٣- يعتمد بعض الناس في مجتمعات صغيرة أخرى إلى صيام أول يوم من شهر رمضان المبارك وآخر يوم منه، وبهذا يظنون أنهم سيطروا على الشهر كله، بصيام أوله وآخره.

٤- هناك اعتقاد عند بعض المجتمعات الصغيرة، داخل المجتمع المسلم الكبير، أن الصيام وبقية الطاعات والعبادات إنما هي للكبار في السن، لأنهم قريبون من الموت، وكأن الإنسان يعلم متى يأتيه الموت، مع أن هناك توقعًا بنهاية حياة المرء بعد الكبر والهرم، ولكن ليس هناك علم بأن أي إنسان سيصل إلى هذه المرحلة من العمر.

٥- ومن أشكال الصيام عند كثير من المجتمعات الإمساك عن الأكل والشرب والشهوة فحسب، ولا يغيّر هذا الشهر من نمط الحياة عند هؤلاء، سوى الامتناع عن هذه العناصر الثلاثة المعتادة عند البشر، فالمرابي يستمر على مزاولته الريا، والمرثي يستمر في تسلّم الرشوة، وسليط اللسان يزداد لسانه سلاطة، والمغتاب يستمر في غيبته، والنمّام يستمر في نميمته، ومن عنده خصلة من نفاق أو خصال يستمر عليها، ولم يغيّر رمضان من حياته في جانب الممارسات شيئاً.

ليس الفهم هنا ينقاد إلى أنه يطلب من هؤلاء الإقلاع عن هذه الأفعال في شهر رمضان المبارك، ولا بأس من العودة إليها، بعد

انتهاء الشهر على طريقة:

رَمَضَانَ وَلِيَّ هَاتَهَا يَا سَاقِي مُشْتَاقَةً تَدْعُو إِلَى مُشْتَاقٍ
بل إن الفهم هنا ينقاد إلى أن يتخرَّج من مدرسة رمضان تائبون
إلى الله، مقلعون عن هذه الأفعال، إقلاعاً لا رجعة فيه.

إن كانت الوسائل الأربع الأولى في الاحتفال على شهر رمضان المبارك تتم عن جهل، أو كسل، أو تضايق من الركن الرابع من أركان الإسلام، فالجهل ينقشع بالعلم، والكسل يزول بالإيمان، والتضايق يتلاشى مع التعلق الصادق بالله تعالى، فإن الاقتصار على مجرد الإمساك دون الإقلاع عن العادات الضارة بصاحبها وبمجتمعه، إنما هذا مرض يحتاج إلى المزيد من التربية والتوجيه والتذكير، بالإضافة إلى قوَّة السلطان، فيما يتعلَّق بالأخلاق الفاسدة، الممارسة عملياً في المجتمع.

ينبغي على المسلم أن ينظر إلى شهر رمضان المبارك، وإلى الصيام بعامة، على أنه له وجاءٌ من كل عمل سيئ ضار. ففيه عون للمرء على الشيطان، وعلى وساوس النفس، وفيه تقوية للإيمان وتقوية للإرادة، بما فيه من الصبر والتحمل.

هذه الأشكال في النظرة إلى الصيام تضيف على علماء الأمة أعباءً فوق الأعباء التي يضطلعون بها، في سبيل الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، ودفع الناس إلى الالتزام التام بالمعاني الحقة للتكليفات.

الوقفه الرابعة

التدخين في رمضان

مع انقضاء شهر رمضان المبارك تكون هناك حالات متعدّدة من أولئك الأشخاص الذين خرجوا بحصيلة طيبة من العمل الصالح، بين الصيام والقيام وقراءة القرآن الكريم، وعمل الخير بالزكاة والصدقات، وكفّ اللسان والجوارح عن اللغو والآثام، التي ربّما كان الشخص يقع فيها بين مدّة وأخرى، بل ربّما يقع فيها في مُدد متقاربة.

مما عمّت به البلوى في المجتمع المسلم، مثله في ذلك بقية المجتمعات، لاسيّما تلك المجتمعات النامية، ظاهرة التدخين الاستهلاكي، السلبي والإيجابي، إن كان هناك تدخين إيجابي.

من فوائد هذا الشهر الكريم المباشرة إقلاع عدد من المبتلّين بهذه المشكلة عن التدخين، إقلاعاً قائماً على الاقتناع التام. والذي أعلمه أن كل مدخّن يرغب - من قريب أو بعيد - في ترك التدخين بأنواعه، ثم يأتي هذا الشهر المبارك ليجبر المدخّن على تركه - أي التدخين - بمعدّل اثنتي عشرة ساعة، على الأقل في اليوم الواحد. وهناك من يضيف إلى ذلك ساعات أخرى. ولو كانت هناك قدرة على الإحصاء في شهر رمضان المبارك لمن تركوا التدخين لوجدنا أرقاماً مفرحة، تدلّ على تأكّد الرغبة في ترك هذا البلاء.

مثل ذلك يقاس على بعض "المعاصي" التي يرتكبها بعض المسلمين، فيأتي شهر الخير ليعين - بعد عون الله - على ترك هذه المعاصي، رغم كثرة المغريات للقيام بها. ومردُّ ذلك أن الإنسان، بطبعه، ميَّال إلى الخير وفعله، ويرتاح كثيراً عندما يقوم بترك معصية هي منغصٌ في حياته، مهما أعطته من متعة مؤقتة وسريعة الزوال.

لأن المرء قد جُبِلَ على حبِّ الخير، فإن هذا يعني أن هذا الشهر المبارك مدعاة لعمل الخير والاستمرار فيه، بعد انقضاء الشهر الكريم. ومجالات الخير واسعة متعدّدة. وكل فرد يرى أنه مقصّرٌ في مجال من مجالات الخير يتنبّه إلى هذا التقصير، فيتلافاه.

للتمثيل، فقط، فإن من هذه المجالات صلة الأرحام، والالتفات إلى الأهل والأولاد، والسعي إلى "توطيد" العلاقة بهم، وتفقد أحوالهم. ولعلَّ بعضنا يدرك مدى السعادة الذي تشعر به الوالدة أو الوالد، عندما تجلس بين يديهما، نشاركهما فنجائاً من القهوة أو الشاي، ونأخذ عن خواطرهما، ونبتئهما شيئاً يسيراً من همومنا. هذا السلوك، اليسير عندنا، عظيم عندهما. وعلى هذا يمكن القياس والترقي في فعل الخير لمن أنعم الله عليهم في الترقّي في فعل الخير من تنفيس الكربات، وقضاء الحاجات، وجبر العثرات، وتحسُّس أصحاب الضائقات.

إنَّ فوائد شهر رمضان الكريم في الدنيا والآخرة عظيمة، وفضل الله تعالى واسع. ومن أفضال هذا الشهر الكريم نزوع

المسلمين إلى التغيير إلى الأفضل. والسعيد منا من ظهر عليه فضل
أو أكثر من هذه الأفضال، فاهتبل الفرصة، وأصرَّ على الاستمرار
في فعل الخيرات، والإقلاع عن المعاصي.

* * *

الوقففة الخامسة

التوبة في رمضان

في هذا الشهر المبارك يكثر الحديث عن الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة عن المعاصي والذنوب التي يقترفها المرء. ومن نعم الله تعالى على عباده قبوله لتوبة التائبين، ولو ملأوا الأرض من الخطايا والذنوب. وقد يستكثر المرء الذنوب ويستبعد أن يغفر الله له هذه الذنوب، ولكن الله تعالى يفرح بتوبة عبده، ويمحو السيئات عنه ما صدق في التوبة، وحقق شروطها المعتمدة شرعاً.

ليس هناك تحديد لعمر المرء، يتوب فيه، أو قبله أو بعده، فالتوبة مفتوحة للعباد ما داموا أحياء. والرسول ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يفرغ». (١) وليس تقدير قبول التوبة متروكاً لتقديرات البشر، وإلا لما قبلت توبة عبد من عباد الله، لأن البشر يستعظمون الآثام، ولا تستوعب أذهانهم، التي هيأها الله

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار. حديث رقم ٢٤٦٠. ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة. حديث رقم ٤٢٤٢. ورواه الإمام أحمد في المسند، مسند المكثرين من الصحابة. حديث رقم ٥٨٨٥.

لهم، أن بعد هذه الآثام توبة، ولكن رحمة الله وسعت كل شيء، ولا يطلب من التائب العائد إلى الله تعالى إلا التوبة النصوح.

أما مسألة ما يعتمد إليه بعض الناس من المبالغة أحياناً في بعض الأعمال بعد التوبة، بحجة أنهم يكفرون عما سلف، فإن في هذا الأمر إرهاقاً للنفس، وخروجاً عن الحد المطلوب من العبد التائب. وذلك لأن بعض التائبين قد يلجأ إلى أعمال، يظن أنها تقرب من الله تعالى، بينما هي ليست من العبادات التي وردت بها السنة، ودعا إليها الرسول الأمين ﷺ قولاً أو فعلاً أو إقراراً.

عليه، فإن المرء التائب العائد إلى الله تعالى مطالب بأن يبحث عن أفضل الطرق التي تقربه من الله، دون غلو في التقرب، أو مبالغة فيه، إلى الحد الذي يخرج عن الاستطاعة والوسع، الذي نص عليه كتاب الله تعالى في قوله تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...﴾ (البقرة ٢٨٦)، وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (التغابن ١٦).

عندما تقارن أفعال الخير بأفعال الشر نجد أن أفعال الخير متواضعة، من حيث القيام بها، بالمقارنة بأفعال الشر، التي قد تؤدي بحياة إنسان بغير حق، أو بظلم، أو بالتعدي على آخر وسلبه حقوقه، أو بحرمانه من إحدى الضرورات الخمس في الحياة والمال والنفس والدين والعرض. وأثار الخير مطمئنة للنفس، أما أثار الشر

فإنها تورث الأرق والقلق، وتأنيب الضمير والندم على الأفعال والندم وحده مطلب ملح من مطالب التوبة إلى الله تعالى.

أعرف أشخاصاً غاصوا في الرذيلة، وجربوا أنواعاً من الشرِّ، لا تخطر على بال الغافلين، ولا يتصوَّر الخيِّرون أن يقوم بها بشر، وأذوا كثيراً من الناس، وطاردتهم الأجهزة والسلطات الأمنية، وأدخلوا السجون، فأفسدوا فيها، وهي دور إصلاح، ثم يشاء الله تعالى أن يشرح صدورهم للتوبة، فيهدوا ويطمئنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله تعالى، ويذوقوا حلاوة الإيمان.

أجد هؤلاء قد سخَّروا خبراتهم التي اكتسبوها في الشرِّ لمحاربة الشرِّ وأهله، ودعوة أهل الفواية وتبويرهم، ومخاطبتهم بلغتهم التي يفهمونها، فتوجَّه هؤلاء التائبون إلى السجون، يدعون إلى الله تعالى فيها، ويقودون كثيراً من الضالين إلى الطريق الحق، فيهتدي على أيديهم خلق كثير، وتستعين بهم الأجهزة الأمنية في مجتمعات غير مسلمة، للتعامل مع المجرمين والتحدُّث إليهم، وتوظِّفهم في المعاهد الإصلاحية، وهم بهذا يكفرون عملياً عما اقترفوه في جهالتهم الجهلاء وضلالتهم العمياء.

بعيداً عن الغلوِّ في التفكير، فقد قرَّ في قلوبهم أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً، وأنه تعالى يتجاوز عن السيئات، وكل إثم واقع تحت مشيئته تعالى في المغفرة، إلا أن من سنته تعالى في خلقه أنه لا يغفر لمن يشرك به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

بَعِيداً ﴿ (النساء ١١٦)، وكان هذا موضع اطمئنان لهؤلاء التائبين، ولكنه ليس مجالاً للأتكالية، وإسباغ شيء من المنّة على الله تعالى في التوبة، فإن الله تعالى، وهو يفرح بتوبة عبده، لا يضره ألا يتوب العباد، ولا ينفعه أن يتوب جميعُ العباد، وهو وحده سبحانه وتعالى الذي يمنُّ على عباده بالهداية في الدنيا، وبالمغفرة في الآخرة.

إن أبواب التوبة مشرعة في الشهر المبارك، وفي غيره من الشهور والأيام، وليس الوقت متأخراً على أحد أن يعود إلى الله تعالى، قبل أن يفرغر، وعندها لا يكون هناك مجال للتوبة، أو الندم، أو الرجوع إليه تعالى.

الوقففة السادسة:

المشقة في الصيام

نحن نردّد كثيراً أن شهر رمضان المبارك شهر كريم، والنظرة البشرية تستبعد الكرم من شهر، يكون نهاره صياماً وليله قياماً. وتخفُّ فيه الشهوات، بل تتقلّص إلى حدّ كبير، في المآكل والمشرب والشهوة، ويزداد معيار مراقبة النفس في الأفعال والأقوال. وينضبط اللسان، فلا ينطق إلا خيراً، ولا يردُّ على الشرِّ إلا بالخير، فإن سابه أحد أو شاتمه فليقل «إني صائم»^(١) والمسابة والمشاتمة أبلغ من السبِّ والشتم، إذ إن المشاتمة تستدعي وجود طرفين، أو أكثر، يشتم أحدهما الآخر، فيشتم الآخر الأوّل، وهكذا تحصل المشاتمة، وكأني بالحديث يلمح إلى رغبة الشاتم الأوّل في تبادل الشتم، لتكون مشاتمة بين طرفين. ولكن الصائم يتوقّف عن الاستجابة لهذه الدعوة، ويردُّ على شاتمه بأنه صائم، ولا يحقُّ له، ولا يحلُّ له، المبادلة بالمثل، ناهيك عن أن يبادل بما هو أقوى.

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم، باب فضل الصوم. حديث رقم ١٧٦١.

ورواه مسلم في كتاب الصيام، باب فضل الصيام. حديث رقم ١٩٤٤.

من كرم هذا الشهر المبارك على المسلم أنه بامتناعه عن ممارسات، حري به أن يتمتع عنها في كل الأوقات، يعود المسلم إلى الامتناع عنها شهراً كاملاً، ثم ما يلي الشهر الكريم من أشهر، حينما يجد في الدعاء بالقبول لستة أشهر، تأتي بعد شهر رمضان المبارك. فإذا استمر على الامتناع عن هذه الممارسات أكرمه الله تعالى بالخير والأجر والثواب والمغفرة والتوبة، وجماع ذلك تسهيل الحساب عليه، ثم يصل إلى منزلة أولئك الذين يدخلهم الله الجنة من باب الريان، باب الصائمين، بغير حساب ولا عقاب.

من كرم هذا الشهر، أيضاً، تعويد النفس على الصبر عن الملذّات، والصبر على المشقّة، التي قد تبدو للبعض أنها مشقّة، وما هي إلا ترويض للنفس، وخروج بها من النمط المستمر في الحياة، والنفس بحاجة إلى الترويض والتعويد على التغيير، وعدم الالتزام بنمط سائد في الحياة، فما يدري الإنسان ما يمرُّ به بشخصه أو مع غيره من ابتلاء بمرض، ينغص عليه نومه وراحته، أو يمنعه من التمتع، بحريّة، في المأكل والمشرب والشهوة.

نحن نرى نماذج بيننا قد ابتلوا ببعض الأمراض، التي تتطلب نمطاً من أنماط السلوك الغذائي الخاص، فهم في حمية مستمرة، يمنعون من أكل أشياء وشرب أشياء، ويطلب منهم التوكيد على أنواع من الطعام والشراب، ومن هنا قد تأتي الحكمة في التوكيد على استمرار الصيام في حياة المسلم في أوقات متفرقة من الأسبوع والشهر والعام، فالاثنين والخميس يومان فاضلان في الأسبوع، وأيام البيض أيام فاضلة في الشهر، ويوم عرفات ويوم عاشوراء يومان فاضلان في السنة،

وهكذا، بل إن أفضل الصيام بعد شهر رمضان المبارك صيام داود - عليه السلام -، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً.

ثم من كرم الشهر الكريم أن أعمال الخير فيه مضاعفة، والنصوص تؤكد على ذلك، فيما يتعلّق بالطاعات والحسنات، من حرص على تمام الصوم، ثم من حرص على الإنفاق وكثرة النوافل وقراءة القرآن الكريم بتدبُّر، والعمرة في رمضان، والصلاة في بيت الله الحرام، وغيرها كثير من أعمال الطاعات التي يتضاعف فيها الأجر في هذا الشهر المبارك، والمعلوم أن أعمال الخير تزداد في هذا الشهر الكريم، رغبةً في مضاعفة الأجر، إذ إن المؤسسات والهيئات الخيرية، في بلاد المسلمين بعامّة، وفي هذا البلد بلد الخير بخاصّة، تُضاعف أضعافاً كثيرة، ولله الحمد.

المحصّلة النهائية أن هذا الشهر المبارك شهر كريم على العبد، ما سعى إلى استغلال هذه الناحية، فانطلق إلى وجوه الخير من العبادات، بالمفهوم الشامل للعبادات، التي تعود بالنفع، أولاً، على صاحبها، ثم تنطلق إلى المجتمع المسلم كله، بالخير والبركة. ولو فرضنا أن العبد اقتصر من العبادات على الفرائض فقط، كالصلوات، فإن فيها الخير عليه وعلى غيره، إذ إن هذه الصلوات، بأوقاتها وفروضها وأركانها وشروطها، سوف تنهى هذا العبد عن الفحشاء والمنكر، فينتفع هو، وينتفع المجتمع منه، بابتعاده عمّا يسيء لمن حوله.

الوقفه السابعة:

الصلح في رمضان

تعودنا في الشهر الكريم، شهر رمضان المبارك، على الخير، وفي شهر رمضان المبارك خاض الرسول ﷺ معركة بدر الكبرى، وبعدها انطلق المسلمون إلى الدنيا، وزادت الانتصارات في كل الشهور وفي شهر رمضان المبارك، لاسيما بعد بدر وفتح مكة.

قبل أعوام مضت انتصر المسلمون المجاهدون في أفغانستان على الشيوعية، وكان هذا في شهر رمضان المبارك من عام ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.^(١) ثم حصل بين المجاهدين الأفغان ما حصل، طيلة العام الذي تلاه، مما كان غصّة في نفوس المسلمين بعامة، لأن مفهوم الجهاد كله قد تأثر، بما حصل بين المجاهدين، الذين ينظر إليهم على أنهم حجة على الجهاد، مع أن الأصل أن ينظر إلى

(١) كان هذا التاريخ هو الإعلان الرسمي لخروج الروس من أفغانستان، والواقع أن خروج آخر جندي روسي كان يوم الأربعاء ١٤٠٩/٧/٩هـ الموافق ١٩٨٩/٢/١٥م، حيث قال أحد ألوية الروس إنه لن ينظر إلى الخلف، حيث كانت الضحايا أكثر من خمسين ألف مقاتل روسي، وأكثر من مليون مجاهد أفغاني، وأكثر من أربعة ملايين لاجئ أفغاني. انظر: علي بن إبراهيم النملة. الجهاد والمجاهدون في أفغانستان: وقفات تقويم. - الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م. - ص ٦٢.

الجهاد على أنه حجّة عليهم، ولكنهم بشر يعيشون في القرن الهجري الخامس عشر، الواحد والعشرين الميلادي، وهم جزء من مسلمي اليوم، بما لدى مسلمي اليوم من جوانب تقصير كثيرة. ولكن المسلمين في كل مكان رفضوا أن ينظروا للمجاهدين الأفغان على أنهم جزء من مسلمي اليوم، أراد بعض الناس من المسلمين أن ينظروا للأفغان على أنهم من مسلمي أمس، بما لدى مسلمي أمس من جوانب كمال إيماني، مع بشريتهم.^(١)

في الشهر المبارك، شهر رمضان الخير، تتحرك الجهود، وتصدر النداءات من قادة هذه البلاد من القيادة السياسية والقيادة العلمية، وهما قيادتان في قيادة واحدة. وينظر إلى هذا الشقاق الدائر بين الأشقاء على أنه طال، ولم يأت بنتيجة تنفع الأفغان، فكانت النداءات التي توجت بالجهود من القيادتين السعودية والباكستانية، حيث جرى تكثيف في الاتصالات، فاجتمع القادة الأفغان في مكان واحد، والتقوا بالمسؤولين من باكستانيين وسعوديين، وتصافح الأصدقاء، وجلسوا جلسات جادة فيها رسم واضح لمسيرة الدولة الإسلامية في أفغانستان، بعد الاحتلال الشيوعي، الذي دام أكثر من خمسة عشر عاماً.

يلتقي الأفغان على أرض الخير، على أرض الصلح والإصلاح، والصلح خير، لئيتعهدوا أمام الله تعالى أن يبدعوا مسيرة جديدة في

(١) انظر في تقويم الحركة الجهادية في أفغانستان: علي بن إبراهيم النملة. الجهاد والمجاهدون في أفغانستان: وقفات تقويم. - المرجع السابق. - ١٢٤ ص.

بناء شعب، وفي بناء دولة، وفي بناء بلد إسلامي، يحتاج إلى الكثير من مقومات البناء، بدءاً بالبنية الأساسية التي قضت عليها الحرب. وإذا ما رأى المسلمون في كل مكان الجدِّية في البناء، فإنهم لن يتردّدوا في الإسهام في هذا البناء بقدر الاستطاعة. ولا أتردّد في التوكيد على أن المسلمين سيتسارعون في بناء البلد الرمزي، الذي رفع راية الجهاد لمدة غير قصيرة.

إن الأفغان لا يتحمّلون مسؤولية بلادهم وإخوانهم في الداخل فحسب، بل إنهم يتحمّلون مسؤولية جميع من وقفوا معهم، طيلة السنين الماضية، فصار حقاً لهم عليهم أن يتغلّبوا على أنفسهم وعلى الشيطان، ويكونوا يداً واحدة تبني، والأخرى تمد يدها للأخرين بالخير، مقدّمة لهم الأنموذج المثالي للوقوف في وجه التيارات، التي يعاني منها المسلمون في كل مكان.

حيّاً الله أولئك الرجال الذين لم يرضوا أن تكون النتيجة بهذه الصورة، فدعوا المختلفين إلى التلاقي، ونبذ الخلاف، من منطلق مسؤولية هؤلاء الرجال الذين وقفوا مع القضية، داعمين لها مادياً ومعنوياً. فكان الوثام بين الأفغان جزءاً من مسيرة الجهاد، التي بدأت قبل أربعة عشر عاماً. إلا أن الرياح جرت بما لم تشتهه السفن!^(١)

* * *

(١) صارت لهذه المسألة تداعيات مؤلمة لأمة الإسلام. وظهرت التقارير والتطوّرات التي أحدثت غصّة في ضمير المسلمين.

الوقفه الثامنة:

تكرار شهر رمضان

يتكرر شهر الخير على الأمة سنوياً، وكأنه لدى الأفراد لا يتكرر، لأن لكل موسم، يتكرر من هذا الشهر المبارك يمر، طعماً خاصاً له من الروحانية، ما يجعله موسماً جديداً على الفرد. والعجيب أنه رغم تكرار هذا الشهر المبارك إلا أن المسلم يرحب به، ويدعو الله تعالى أن يبلغه رمضان، كلما أقبل. وهناك دعاء ماثور بذلك. فهو بحق شهر خير ورجوع إلى الله تعالى. ولا يعني هذا أن المؤمن قد ابتعد عن الله، ولكنه "يكتف" طاعته وعبادته وأعمال الخير في هذا الشهر المبارك، لأن الأجر فيه مضاعف.

العجيب، أيضاً، أنه في هذا الشهر المبارك يكثر المترددون على المساجد، على اعتبار أن الصلاة هي الركن الثاني، والصيام هو الركن الرابع، فهل هذا يعني أن الناس لا يصلون قبل رمضان، ثم يصلون فيه؟ لا أظن هذا صحيحاً على إطلاقه، فهناك اعتبارات كثيرة تحول دون وجود كل الناس في المساجد، وقت الصلاة في غير شهر رمضان، بينما نجد أن هذه الاعتبارات الكثيرة تخف كثيراً في شهر رمضان، وهذا مبني على حسن الظن بالناس جميعاً. والحظيظ منا من يتمكن من "تكتيف" جهده الذي كان يحافظ عليه قبل شهر رمضان وبعد شهر رمضان.

لن يستطيع كاتب إضافة شيء جديد على هذه المناسبة، سوى التفكير الذي أرى أن مكانه غير هذه الوقفة الضيقة. ولكنها، أي الوقفة، تضم صوتها إلى أصوات كثيرة، تحمد الله وتشكره على أن بلغ صاحبها هذا الشهر المبارك. وتبتهج هذه الوقفة بهذه المناسبة المباركة الطيبة، وتدعو الجميع إلى إعطائها ما تستحقه من المقام، على اعتبار أنها مناسبة روحانية، فيها صلة أقوى بالله تعالى، وبالتالي إعادة النظر - عند بعض الناس - الذين قد يرون أنها مناسبة "فنية" أو "اقتصادية" أو "ترويجية"، لاسيما مع طول ليالي الشتاء. والإثم في شهر رمضان ليس كمثل الإثم في غير شهر رمضان، والإصرار على الإثم ليس كمثل الوقوع فيه عَرَضاً، وهكذا.

من الجميل جداً في حياتنا الروحية أن يمر بنا هذا الموسم الذي نعود فيه إلى أنفسنا، ونسعى إلى التخلص من التجاوزات التي كنا نقوم بها طيلة الأشهر السابقة، فيكثر انشغالنا في هذه الدنيا وملاحقتنا لها بالأعمال التي لا تنتهي، وتأتي على حساب الراحة النفسية والجسدية، وبالتالي الروحية، إذ ربّما يقتصر الأمر عندنا - أو عند أكثرنا - على أداء الواجبات، وقليل جداً من النوافل، وربّما تجاوز بعضنا النوافل للانشغال، أو بحجة أننا مرتبطون بأعمال تشغلنا عن النوافل والتزود من الخير.

إنها وقفة يقوي فيها الفرد علاقته مع الله تعالى بالإكثار من اللجوء إليه. وقفة تتفاعل معها، لأنها تولد في مكامننا النفسية قدراً عالياً من الطمأنينة، ذلك أننا نعمد إلى أن نكثر من ذكر

اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي بِذِكْرِهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَنَضَّيْنٰ قُلُوبَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ اِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد ٢٨).

هناك أعداد من المسلمين يكون هذا الشهر المبارك بالنسبة لهم نقطة تحوُّل جذرية في حياتهم الخاصة، التي تمتد إلى حياتهم الأسرية. فما أجمل أن يقلع الشخص عن معصية كان يعملها، فيتوب إلى الله تعالى منها، وبالتالي يسعد أفراد أسرته بهذا التحوُّل الطيب في حياته، مهما كانت هذه المعصية "خفيفة"، فالأسر، وبالتالي المجتمع، يفرح بأن يكون جميع أفرادها "نظيفين" من المعاصي... وهكذا.

في المقابل يمكن أن نقول إن من يُقبلون على المعاصي في هذا الشهر المبارك هم قلة في المجتمع المسلم، رغم كثرة المغريات الحديثة، التي تجعل من هذا الشهر الكريم مناسبة لإشهار بعض المعاصي، التي لا تُسمَّى، عند بعض الناس، باسمها الحقيقي، بل تُعطى أسماء وإطلاقات جاذبة، ربَّما كان منها ربطها بالمناسبة المباركة، ومع هذا فإن الانقياد لها في الشهر الكريم محدود جداً، بفضل من الله تعالى، ثم لما هذا الشهر الكريم من مكانة خاصة لدى المسلمين جميعاً، وبالتالي استغلال هذا الشهر بأيامه ولياليه، بالتذكير المتواصل، في المساجد والجوامع ووسائل الإعلام، بهذه المكانة وما تتطلَّبه من العودة الصادقة الخالصة إلى الله تعالى. وكم كان هذا الشهر الكريم نقطة تحوُّل جذرية لدى عدد غير قليل من الناس.

تكثر المواقف في شهر رمضان المبارك خارج نطاق العالم الإسلامي، الذي يدرك أن الشهر شهر صوم. وليست المسألة، هنا، طول وقت الإفطار والشخص لم يصل إلى البيت، فتحصل له بعض المواقف الطريفة. ولكن الموقف أعمق من ذلك، حينما يحلُّ شهر الصيام المبارك في بلاد الغربية. وقد عشت في تلك البلاد قرابة عشر سنين، صمت فيها خلالها عشرة أشهر من رمضان المبارك. ولا أذكر أنني تمكّنت من الصيام داخل المملكة، خلالها، إلا شهراً واحداً.

المواقف تبرز هنا، ونحن على مقاعد الدراسة، حينما تكون المحاضرات مسائية، فيحلُّ وقت الإفطار، فنخرج تمرات، نفطر عليها داخل القاعة. ولا نريد الاستئذان، لئلا تفوتنا المعلومات، فيدرك الأساتذة موقفنا هذا، فمنهم من يُكبر هذا فينا، ويتعاطف معنا، وربما أوقف المحاضرة لدقائق، حتّى نفطر، ونؤدّي صلاة المغرب، ثم نواصل المحاضرة. وهذا غالباً ما يحدث من الأساتذة الذين يحترمون الإسلام والمسلمين.

هناك فئات قليلة من الأساتذة من لا يقدرّون هذه الشعيرة، ولا يهتمّون بها، بل ويناصبونها العدا، المتمثّل في عدم السماح بأكل تُميرات وقت الإفطار، وإطلاق عبارات نابية مُهينة للطالب المسلم، الذي له فرحتان، فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه. ويحصل هذا غالباً من أساتذة ذوي خلفية معادية للإسلام والمسلمين. ولم يحصل لي الموقف الثاني، ولكنني حدّثت عنه، ولا تزال نماذج منه موجودة.

الوقفه التاسعة:

احترام الصائمين

تعلن وزارة الداخلية في المملكة العربية السعودية، سنوياً، بياناً تدعو فيه غير المسلمين إلى احترام مشاعر المسلمين في شهر رمضان المبارك، بحيث لا يأكلون ولا يشربون ولا يدخنون في الأماكن العامة، أي لا يجاهرون بالإفطار، رغم أنهم غير مطالبين بالصيام. ويمتثل الجميع بهذا النداء السنوي، لأنهم يشعرون أن هذا البلد يحترم الشعائر الإسلامية التي يمارسها المجتمع المسلم، من صلاة وصيام وحج وغيره.

هذا الإجراء السنوي له فوائده الواضحة في احترام مشاعر الصائمين، وهو مطلب على غير المسلمين. أمّا من يجاهر بالإفطار من المسلمين في بلاد المسلمين فله شأن آخر، سواء أكان من أبناء البلاد، أم من العاملين فيها من الوافدين المسلمين. ونعلم أن هناك مسلمين قد لا يصومون، والصوم مسألة - في هذا الشأن بالذات - واضحة فيها العلاقة المباشرة بين العبد وربّه، ولا مجال فيها للمجاملات، أو الرياء، أو أيّ سلوك يراد به الآخرون، فقد يظهر لك المسلم صائماً وهو في حقيقته مفطر. فإن كان هذا من الرياء فهذا أمر يعود في نتائجه على الشخص نفسه، ولا يستفيد من وضعه هذا أحد من الناس.

عدم المجاهرة بالإفطار في أيام شهر رمضان المبارك، على ما فيه من فائدة اجتماعية واضحة، فإن فيه فوائد دعوية كثيرة. وهناك من قرّب من الإسلام، حينما عايش هذا السمت بين المسلمين، وحينما رأى هذه الروحانية التي تعمّ الجميع في نهار شهر رمضان وفي ليله. فكان من نتائج هذا القرب الدخول في الإسلام، بهداية من الله تعالى. وتصوروا لو أن الأمور متروكة دون ضابط، يختلط فيها الصائم بالمفطر، ولا فرق فيها بين من هو مسلم وغير مسلم، لكان مردود هذا على غير المسلمين عكسياً.

ليس هذا فحسب، بل إن تجربة الصيام في بلاد غير مسلمة كان لها أثر دعوي كذلك، إذ واجه المسلمون ترحيباً من الأهالي، الذين يصل إليهم خبر دخول الشهر المبارك، فيتعاطفون مع المسلمين الصائمين إلى درجة عدم المجاهرة بالإفطار أمامهم، لاسيما في المجتمعات الصغيرة مثل الحي الصغير، أو مكاتب العمل، أو فصول الدراسة.

لقد واجه الطلبة المسلمون شيئاً من هذا التعاطف حينما كانوا يعيشون في تلك البلاد؛ لأن القوم هناك يحترمون الشخص الذي يحترم نفسه ويقوم بأداء مشاعره، باعتدال وعفوية، بغض النظر عن المكان، ويحتقرون، بالتالي، من لا يحترم مشاعره، فيجاهر بالإفطار في شهر رمضان المبارك، في وقت لا يتوقع فيه أن القوم يدركون أنه في وقت صيام، وهم يدركون ذلك عموماً، ويسمعون عن هذا الشهر المبارك، بل إنهم يشاهدون النقل المباشر لصلاة القيام من الحرمين الشريفين، وقبل ذلك الإفطار الجماعي

في الحرمين الشريفين، مما سيزيد الوعي عندهم، وبالتالي زيادة عدم احترامهم للمسلمين، الذين لا يتمثلون هذا الشهر المبارك.

علمت، أيضاً، أن جاليات غير مسلمة تعيش بين المسلمين، في البلاد العربية والإسلامية، تحتفي بهذا الشهر، وتشارك المسلمين صيامهم وإفطارهم، لا إيماناً بهذا الركن، ولكن تعاطفاً مع المسلمين، الذين احترمو أنفسهم وأظهروا، دون رياء، حلول الشهر المبارك، إذًا، فالفائدة التي يمكن الخروج بها من هذه الوقفة أنه متى ما احترم المسلمون أنفسهم بأدائهم شعائرهم على الوجه الذي جاءت عليه، كان مردُّ ذلك احترام الآخرين لهم، سواء في المجتمعات المسلمة أم في غيرها، ولا اعتبار للحالات الشاذة.

في هذا المقام هناك حادثة، تُذكر شعبياً، وفيها دلالات أيضاً على أن المسلمين إذا احترمو أنفسهم في أدائهم شعائرهم احترامهم الآخرون، وتعاطفوا معهم، إذ يُذكر أن رجلاً غير مسلم يرأس مجموعة من العمال المسلمين في القيام بمشروع ميداني. وحلَّ شهر رمضان المبارك في وقت يحلُّ فيه الشهر الكريم في الصيف، فجمع الرئيس غير المسلم عماله المسلمين، وأشعرهم بعلمه بدخول شهر رمضان المبارك، وأنه سوف يؤثّر على الإنتاجية في العمل الميداني. وأراد، ظاهراً، أن يعقد معهم صفقة بأن من يفطر ويعمل جيداً سيزيد من مكافأته، وأن من يصوم ويقلُّ عمله سوف يحسم عليه من مكافأته، وتركهم يهجم بعضهم في بعض.

افترق العمال المسلمون إلى فريقين؛ فريق أثر المادة، فرأى الإفطار، واللّه غفور رحيم وعليم بما في الصدور. وفريق آخر أصرَّ

على تقديم حق الله على أي اعتبار آخر، والله تعالى هو الرزاق الكريم. ويبت كل فريق النيّة على ما ذهب إليه، وأصبح العمّال فيهم من هو مفطر، وفيهم من هو صائم، وعمل الجميع. وكان العمل لم يتأثر سلباً بالصيام، ولم يتأثر إيجاباً بالإفطار.

انتهى اليوم الأول من شهر رمضان المبارك حافلاً بالعمل، والترقّب، كذلك، من هؤلاء العمّال، فجمعهم الرئيس غير المسلم، ووزّعهم على فريقين؛ الفريق الذي استجاب لاقتراحه وأفطر، والفريق الآخر الذي استجاب لأمر الله تعالى، ولم يفطر، وتبيّن - وهذه زيادة من الراوي - أن الذين أفطروا قليلون، مقارنة بمن لم يفطروا. فما كان من هذا الرئيس إلا أن "سرح" المفطرين من العمل، بعد أن وبّخهم أمام زملائهم، وبالتالي ضاعف من مكافأة الذين أصروا على الصيام، وحجّته في هذا، كله، أن من لم يحترم حقّ الله تعالى عليه، فلن يحترم حقوق الناس عليه.

قد يُنظر إلى هذه الحادثة من جوانب مختلفة، منها أن هذا الرئيس غير المسلم قد خدع العمّال المحتاجين. لاسيّما أنهم غير عالمين، وإمكانية التهاون لديهم واردة. وهذا فيه صحة واضحة. ولكنه كان اختباراً قوياً لمدى احترام هؤلاء لشعائهم في سبيل أن يحترمها الآخرون.

هكذا تتكرّر الصور، ولكنها في الأخير تصبّ في القاعدة التي سعت هذه الوقفة إلى ترسيخها، وهي أنه كلما احترّم المسلمون شعائهم، بتمثّلها في حياتهم، احترّمها الآخرون، ممن يعيشون معهم. وربّما كان هذا الاحترام مدعاةً لهداية الآخرين،

عندما يرون القدوة الفعلية في الممارسات اليومية في كل مكان، وكل الظروف.

الوقفه العاشرة

الفقراء في رمضان

في هذا الشهر الكريم يكثر الخير من العبادات المباشرة في العلاقة مع الله تعالى، والعبادات التي ينال منها عباده خيراً، كالزكاة والصدقات. ومع كرم هذا الشهر الكريم ينتشر الشحاذون في هذه البلاد الطيبة الكريمة، إلى درجة السفر إليها من الخارج قصداً إلى الشحاذة، ومن يملك القدرة على السفر في بلاده إلى البلاد الطيبة هل هو، أو هي، ممن يستحقون الصدقة ناهيك عن الزكاة؟

لقد أصبحت الشحاذة صنعة، ولم تعد مجرد ضرورة. ونحن المواطنين لنا موقف عجيب مع الشحاذين، نحن ننظر إليهم بعاطفة، غالباً، لا بعقل غالباً، ولذا ترانا نقف معهم ضد المسؤولين عن مكافحة التسول، الذين يريدون تنظيف الأماكن والشوارع من مجموعة من المحتالين، الذين أفسدوا على المحتاجين حقاً. وهذا يعني أن هناك محتاجين حقاً، ولكنهم ضاعوا بين المحتالين الذين جعلوا من موسم الشحاذة في شهر رمضان المبارك مصدراً للرزق إلى الموسم القادم.

الفقر سنة من سنن الله في الكون، ومن حكمة الله تعالى أن يكون على ظهر البسيطة أغنياء وفقراء، ابتلاءً للغني بأمواله،

وابتلاءً للفقير بالعوز الذي يحيط به من كل جانب. وربما لو تحوّل الفنى إلى فقير لأفسد الفقرُ عليه دينه، وربما لو تحوّل الفقير إلى غني لأفسد عليه الفنى دينه، كما يقول الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (العنكبوت ٦٢)، فهناك محتاجون، وسيظل هناك محتاجون. ولست مع من يقول، إعلامياً، إنه ليس لدينا فقراء.^(١)

على أي حال ليس هناك في موضوع "الشحاذة" أبيض وأسود، فالمساحة الرمادية في هذا الشأن واسعة، وتحكيم العقل، مع أنه مطلوب، إلا أنه قد يصدر من الحكم بأن جميع الشحاذين محتالون، وتحكيم العاطفة، ومع أنه أحياناً مطلوب، قد يصدر من الحكم بأن جميع الشحاذين محتاجون.

هناك مؤسسات رسمية وأهلية، تعنى بشؤون الفقر، ولديها الممارسات النظامية، التي تستطيع من خلالها الحكم على المحتاجين، ومدى حاجتهم. وتحتاج هذه المؤسسات إلى التخلص من العوائق الإدارية، وزيادة مساحة المرونة في الأحكام، التي لا تصل

(١) نُشرت هذه الوقفة، في الصحافة، قبل سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م. وانظر: صالح بن محمد الصغير وعلي بن إبراهيم النملة. مواجهة الفقر: المشكلة وجوانب المعالجة. - الرياض: المجلة العربية، ١٤٢٥هـ. - ٣٨ ص. - (سلسلة كتيب المجلة العربية، ٩)

إلى حدِّ التسيُّب، لتقوم بمهمَّتها، وتكسب توجُّه المحسنين إليها مباشرة، بدلاً من ممارسة العمل الخيري، كيفما اتَّفَق. فالفقراء، مع أنهم فقراء، إلا أن معظمهم على قدر عالٍ من العفة، بحيث لا يعلنون عن فقرهم على رؤوس الأشهاد، ويحتاجون إلى النظم الإدارية والاجتماعية، التي تكشف عن حاجتهم، دون خدش للعفة، التي تحدُّهم عن السؤال. أما أولئك الذين غسلوا الحياء من وجوههم، واستغفلوا خلق الله الطيبين، فإنهم بحاجة ملحَّة إلى تليب العقل، والوقوف مع رجال مكافحة التسوُّل في ردعهم عن استغلال الطيبين من أهل الخير.

مع أنني أفضل أن أكون في المساحة الرمادية، في عدم القطع في الحكم، إلا أنني أرى أن الاستغلال قد طغى على الحاجة، وأن هذه الظاهرة "غير الحضارية"، التي تزداد كل عام في شهر رمضان المبارك، ينبغي قطعها من جذورها، متمنِّين لرجال مكافحة التسوُّل المزيد من التوفيق في الحدِّ من هذه الظاهرة، ومتمنِّين لرجال الخير مضاعفة الإحسان للمستحقين بحق، وإعفائهم من غسل الحياء من وجوههم، بكثرة السؤال من أولئك الفقراء: ﴿الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ٢٧٣).

الوقفه العاديه عشره

الإعلام في رمضان

تمارس المملكة العربية السعودية الدعوة إلى الله تعالى، على أنها جزء فاعل من كيان هذه الدولة. ونرى طرقاً عديدة ووسائل شتى لهذا العمل المبارك على مدار العام، ونحتاج إلى وقفات متعدّدة، لرصد هذه الوسائل الدعوية، المباشرة وغير المباشرة.

لعلّي أتوقّف، هنا، على وسيلة، قد تُرى على أنها غير مباشرة، ولكنى أراها دعوة مباشرة، ولذلك نجد أن هناك اختلافاً في تحديد الدعوة المباشرة من غير المباشرة، على أننا نعلم أن في كل خير، وربّما كانت الدعوة غير المباشرة أكثر تأثيراً. هذه الوسيلة هي ما نطالعه ونسمعه ليلاً في ليالي شهر رمضان المبارك من نقل مباشر من بيت الله الحرام في مكّة المكرمة لصلاة العشاء ثم القيام أول الليل وآخره، ينقلها التلفزيون السعودي بقناته الأولى العربية،

تتقل العشاء القناة الثانية الإنجليزية الصلاة ذاتها من مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، ويتزامن نقل القنوات السعوديتين نقل كذلك من قنوات فضائية أخرى. ويرى الناس، الذين يقفون عند هذا النقل المباشر من أي قناة، هذا الجمع الغفير الذي غطّى الحرم المكيّ داخله، وساحاته خارجه، من المصلين الذين يبتغون

رضا الله والجنة، جاعوا من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم
ويذكروا الله تعالى في أيام رمضان المبارك.

هذه وسيلة من وسائل الدعوة تترك أثراً في النفوس، النفوس
المؤمنة، التي ترى هذا المشهد الروحاني، فتزداد إيماناً مع إيمانها،
والنفوس غير المؤمنة، التي تبدأ التفكير في هذا المنظر البديع،
الذي لا يمكن إلا أن يكون عن إيمان بأمور تستحق الإيمان، وإلا
كيف يجتمع كل هؤلاء في مكان واحد، وزمان واحد، وخلف
إمام واحد.

الذين يمارسون هذه الشعيرة على أنها عبادة لله تعالى، يرجون
من ورائها رحمته ويخافون عذابه، وقد يغيب فهم هذا الإحساس،
الذي يحسُّ به من لا يمارسها عبادةً لله، بل ربِّما كان موقفه منها
بحكم اختلاف المعتقد موقفاً غير حسن، ولكنه حين ينظر إلى
هذا المشهد يتكرَّر كل ليلة، مع احتمال أن هناك نسبة عالية ممن
صلُّوا هذه الصلاة في الحرم، هم غير من صلُّوا الصلاة نفسها الليلة
البارحة، أفواج قادمة وأفواج مغادرة، ويصل العدد إلى أكثر من
مليون مصلِّ، بل قد يزيد، لاسيَّما عند تحرِّي ليلة القدر. هذا
المنظر البديع لأبد أن يترك أثراً في النفوس غير المؤمنة، فيقودها
إلى الإيمان بإذن الله تعالى.

هكذا تكون هذه الوسيلة إحدى الوسائل في مجال الدعوة
إلى الله تعالى على علم وبصيرة، تمارسها المملكة العربية السعودية
في هذا الشهر المبارك، ثم في شهر ذي الحجة، عندما تجتمع
القنوات العربية والإسلامية لنقل الشعائر، مما جعل القنوات العالمية

تفرد حيِّزاً من وقتها للتعريف بالإسلام، من خلال هذه المشاهد الجميلة، ثم في أيام الجُمع من كل عام، حين تتقل صلاة الجمعة وخطبتيها من المسجد الحرام، ومسجد المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ، فتألف الأنظار هذه الشعيرة المباركة، ثم تألفها القلوب، ومن لا يؤمن من غير المؤمنين يبقى لديه أثر حسن عن ذلك كله.

الوقفه الثانية عشرة

الفرحة في رمضان

يفرح المسلمون بختام شهر رمضان المبارك، فللصائم فرحتان، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه. والفرحة الأولى حينما يشعر الصائم أن الله تعالى قد منَّ عليه بصيام هذا الشهر المبارك. وهو شهر مبارك لأنه يتكرَّر على المسلمين كل عام، إلا أن لكل مرَّةً يحلُّ فيها هذا الشهر المبارك طعمًا خاصًا يختلف عن السنة التي قبلها، شهر رمضان الذي قبله، مع أن بيننا من صام أكثر من خمسين مرة، أو تزيد لتصل عند حالات بعينها إلى السبعين مرَّةً في حياته، منذ عرف الصيام، ومع هذا فإنه، أو فإنها تشعر بحلاوة هذا الشهر الكريم في كل مرَّةً يمرُّ بها علينا نحن المسلمين. وهذا من كرم الله علينا أن تنظر إلى الصيام والقيام على أنه عبادة، وليس مجرد عادة، وحرمان من الشهوات المباحة، والراحة المطلوبة.

مع هذا فهناك أخوة لنا لن يتمكنوا من الفرحة هذه، ذلك لأنهم لم ينتظروا أن يفرحوا مع الناس من المسلمين، ولعلمهم استعجلوا الفرحة الكبرى، عندما يدخلون في البرزخ، يتمنون قيام الساعة، أو سرعة قيام الساعة، ليلقوا الله تعالى وهو عنهم راضٍ. ومن هؤلاء من مات وهو صائم، ومنهم من مات وهو يدعو الله تعالى إلى أن يبلفه شهر رمضان المبارك، ولكن أجله عاجله. ومنهم من لا يستطيع الصيام الآن؛ لأنه لا يشعر بما حوله، فهو ميتٌ وليس

بميت، والله في خلقه شؤون، ومنهم الشاب الذي انتزعتة المنية من بين يدي أهله انتزاعاً، وتعددت الأسباب والموت واحد، فما كاد أهله يصدقون أنه ليس بينهم، مع أنه لدقائق معدودات كان يصول ويجول في البيت، على عادة كثير من الشباب، إلا أن الصوت انطفأ، بسبب الموت، الذي نتج عن حادث من الحوادث.

هذه حال الدنيا، وهذا حال الموت، وهذه حال الآجال، وكأننا نتفق إخواننا في شهر رمضان المبارك، لتتعرّف على من أدركه هذا العام، وعلى من لم يدركه فنترحم عليه، وندعو الله تعالى ألا يحرمه الأجر. ويفرح المؤمنون بأن وفقهم الله تعالى للصيام والقيام، ويدعونه تعالى لأشهر تأتي أن يتقبل منهم ذلك.

المحروم منا من سيطل عليه العيد فيوجب عليه الفطر، وهو لم يوفق في هذا الشهر الكريم من أن يفرح؛ لتفريط وتهاون وطاعة للشيطان، الذي سؤل له أن الوقت معه، ويمكن أن يصوم من العام القابل، وكل قابل يأتي يمئيه الشيطان بالقابل بعده، فلا يفرح مع الذين يفرحون الفرحة الأولى، وإذا ما أصر على طاعة الشيطان في كل عام، فإنه قد لا يفرح مع الذين يفرحون الفرحة الكبرى، وقد لا يفتح له باب الريان، الذي لا يدخله إلا الصائمون، وهذه خسارة عظيمة يفرح لها الشيطان، الذي يرى قمة فرحه في خراب بيوت الناس.

هنيئاً لمن يفرحون بتمام هذا الشهر المبارك، ودعوات بين يدي الله تعالى أن يجعل الجميع من المقبولين، وأن يمد في العمر ليشهد الناس شهوراً تأتي، فيزيدون من الطاعات، ويتقربون إلى الله تعالى

السعوديون والخصوصية

١٢٦

أكثر، لينالوا في النهاية الفرحة الكبرى، حينما يقفون بين يدي
الله تعالى، ينظرون إلى وجهه الكريم، وينعمون بالحياة الباقية،
حيث لا عمل ولا تكليف، وإنما ثمار وحصاد لزرع في الدنيا.

* * *

الوقفنة الثالثة عشرة

في وداع رمضان

هناك شعور، ليس خاصاً أو شخصياً، أن كل شهر كريم يحلُّ على المسلمين يكون ذا طابع خاص، يختلف عن الشهور الكريمة الماضية. ذلك أن الذين يعينهم هذا الشهر الكريم يسعون إلى استغلال كل الوقت فيه بالعبادة، بالمفهوم الشامل للعبادة، الذي يعني التغير الواضح، حتَّى في أداء الواجبات اليومية، في المسؤوليات المناطة بالشخص، داخل محيطه الخاص وخارجه.

كل شهر كريم يمرُّ على المسلمين يزداد تعلقهم بالله تعالى، زيادة أفقية، كما هي الزيادة الرأسية، وأستطيع القول، دون أن أتكئ على الإحصاءات السنوية، أن عدد الصائمين القائمين يزداد من سنة إلى أخرى.

مشاعر شهر رمضان الكريم لا تتغير، من حيث هي صيماً وقياماً وعبادة وقراءة قرآن وبرُّ وصدقة، فهكذا كانت من قبل، وهكذا يتوقع لها أن تكون، مع تطوُّر في الأساليب والأسباب، بفضل من الله تعالى، ثم بفضل ما وصل إليه عقل الإنسان من نمو.

أما الأفعال والأقوال التوقيفية فهي لم تتغير، منذ أنزلت على هادي هذه الأمة محمد بن عبد الله ﷺ، ولذا فإنني لا أميل مع أولئك الذين تبدو عليهم نبرات الأسى، حينما يرون أن "مظاهر"

رمضان قد تغيّرت عنها اليوم من ذي زمن ليس بالبعيد، فتلك المظاهر القريبة لم تكن معروفة من قبل، وهكذا. والتغيير هنا في أشكال الاحتفاء بالشهر الكريم، وليس في أساسيات هذا الشهر، ولذا فإنه ليس هناك ما يدعو إلى الحسرة، عندما تتغيّر الممارسات الاجتماعية، في أشكال استقبال هذا الشهر المبارك، ومظاهر ذلك، في ليله ونهاره.

أقول قبل الوداع، لأنني أدرك، عقلاً، أن منا من لن يدرك الشهر القادم من الصائمين. وهذا واقع، إذ إن الحديث، هنا، عن أكثر من مليار مسلم، سوف يودّع جزء منهم، قبل حلول الموسم الروحاني القادم. هذا بالإضافة إلى أن فوجاً أو أفواجاً من البراعم سوف تصوم الشهر القادم من العام القابل، ولم تكن قد صامته في هذا الشهر من هذا العام. فالدعاء سلفاً بالرحمة والمغفرة والعفو من النار لجميع من شهدوا هذا الشهر الكريم فصاموه، سواء قدر الله لهم أن يشهدوه من العام المقبل، أم أن آجالهم سوف تنقلهم إلى حيث ينعمون برياض من رياض الجنة، وهم ينتظرون الدخول إليها من باب خصّصه الله تعالى للصائمين، يقال له باب الريان.

تهنئة صادقة بالفرحة في الإفطار لجميع أولئك الذين أسهموا في إسباغ هذه الروحانية العارمة في الشهر المبارك من جميع العاملين ليلاً ونهاراً، فاجعلوا من أعمالهم هذه شكلاً من أشكال التقرب إلى الله تعالى.

نحن نودّع شهر الخير والبركة، شهر العبادة ليلاً ونهاراً، في وقت يمر فيه المسلمون بمرحلة صعبة جداً من حياتهم، وبالأخصّ

في الأعوام الأخيرة، حيث تكالبت عليهم الأمم، بوشيتها ونصرانيتها ويهوديتها، وأتضح الرؤية أمام جميع المسلمين بأنهم مستهدفون، لأنهم مسلمون، في هذا الوقت بالذات، ومع وداع شهر رمضان المبارك، يحلو للمرء أن يتمنى أن تستمر روح شهر رمضان، في القرب من الله تعالى، فيما يأتي من الأيام والأشهر القادمة.

قد كان السلف الصالح يدعون ربهم ستة أشهر، بعد إتمام الشهر، ليقبل منهم الصيام والقيام، ويدعون المدة الباقية ليبغهم رمضان القادم، وهذا الموقف يوحي بأنهم كانوا على صلة وثيقة مع الله تعالى، يدفعهم في هذا الرجاء والخوف، فلم ييأسوا، فيكونوا خائفين طوال الوقت، ولم يأمنوا، فيكونوا راجين طوال الوقت.

إن العلاقة القوية مع الله تعالى في شهر رمضان، وفي غير شهر رمضان، هي، أولاً، كفيلة بأن تغيّر من وضع المسلمين القائم، لأن هذه العلاقة سوف توفر على المسلمين أسباب القوة، وإن العلاقة نصر لله تعالى، ومن نصر الله تعالى نصره الله تعالى، في دنياه وآخرته.

قد لا تستمر العلاقة مع الله تعالى تماماً، كما كانت عليه في شهر رمضان في توالي الصيام، لأن هذا منهي عنه في الصيام أصلاً، ولكن الروح هي التي يراد لها أن تستمر، والتعلق بالله ليلاً ونهاراً هو الذي يستمر. قيام الليل ليس مقصوراً على شهر رمضان، والصيام ليس مقصوراً على شهر رمضان، وقراءة كتاب الله وتدبره ليس مقصوراً على رمضان، وإنما يأتي الشهر المبارك، شهر الخير، ليقوي هذه الممارسات، ويؤصلها في النفس، فإذا ما

السعوديون والخصوصية

١٣٠

استمرَّت العلاقة مع الله تعالى من هذا المنطلق، وبهذه الروح كان
حرياً على الله تعالى أن يعزَّ عباده، وأن يملكهم في الأرض، كما
مكَّن لهم من قبلهم.

* * *

الوقفه الرابعة عشرة

إصرار على خدمة الصائمين

أكتب هذه الخواطر السريعة وأنا أطلُّ على الحرم المكي الشريف - حماه الله تعالى من كل أذى - وأتأمل المسلمين الغادين والقادمين إلى بيت الله الحرام، حيث يشهد هذا البيت العتيق زحاماً منقطع النظير. رغم التوسعات التاريخية لبيت الله الحرام، وآخرها ما تمَّ في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله تعالى - ورغم المزيد من الإصلاحات في الحرم، حيث أزيل زمزم من (صحن) الحرم، وحيث الساحات الواسعة حول الحرم الحرام.

هنا برزت في المخيلة فكرة يمكن أن تعدَّ معاكسة، تماماً، لتلك الرحلات الترويحية (السياحية) لمناطق سياحية في العالم. فحالما يعلم الناس أن مكاناً سياحياً في بلد ما تعرَّض لتحديات طارئة، يحجم الناس عن السفر إلى ذلك البلد. وتقفر مقومات السياحة، ويخسر الناس المستثمرون، على مختلف مستوياتهم، أموالاً، وفرصَ عمل.

إلا أن مكة المكرمة والمدينة المنورة تظلان ذواتي خصوصية متميِّزة، حيث إنهما مهوى الأفتدة، رغم الهزَّات الآنية التي مرَّت بها البلاد، عموماً، في الآونة الأخيرة، من خلال اكتشاف خلايا تنوي

العنف والتخريب، وإرعاب الناس، وإرهابهم، وترويعهم في البلد
الآمن ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمْكِن
هُمَّ حَرَمًا ءَامِنًا تَجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (القصص ٥٧).

إلا أن الله تعالى يسلم العباد والبلاد، فيقع هؤلاء، قبل إن
يوقعوا بالناس. ويتعامل الناس عن ذلك ويعلن في الإعلام، وتبين
المقبوضات، وتصدر بيانات رسمية متتالية، الأمر الذي زاد الناس
اطمئناناً، فكانت النتيجة هذا الإقبال المتزايد على الحرمين
الشرفيين، من كل حدب وصوب، جاءوا طاعة لله تعالى، وامثالاً
لأوامره، فلم تتجح تلك الفئة في إرهاب المسلمين، وإبعادهم عن بيت
الله الحرام، ولم تتوان الجهات المسؤولة عن الحرمين الشريفين عن
المزيد من خدمة ضيوف الرحمن، لاسيما أنه ليس هناك مردود
دنيوي تحرص عليه الدولة، أو تجني منه أرباحاً، لكنها تجني
الأرباح غير المرئية دنيا وآخرة، بالأمن والأمان والتوفيق.

لقد زاد عدد القادمين للعمرة في الشهر المبارك من خارج
المملكة بمعدل مئتي ألف (٢٠٠,٠٠٠) معتمر وزائر عن العام
المنصرم (رمضان المبارك سنة ١٤٢٥هـ). هذا من خارج البلاد، فما
بالكم بالمتوجهين إلى بيت الله الحرام من الداخل؟ حيث يصلي
الجمعة أكثر من مليون مصل، في زمان واحد ومكان واحد،
وخلف إمام واحد، إذا ركع ركعوا، وإذا سجد سجدوا، وإذا قام
قاموا.

يصرِّح وكيل وزارة الحجِّ لشؤون العمرة أن الأرقام هي الشاهد الحي على إصرار هذه البلاد وقيادتها على استتباب الأمن للمواطنين والمقيمين والمعتمرين والزائرين، فقد حلَّ بالبلاد أكثر من ست مئة ألف (٦٠٠,٠٠٠) معتمر وزائر من جمهورية مصر العربية، وأكثر من خمس مئة وخمسين ألفاً (٥٥٠,٠٠٠) من جمهورية إيران الإسلامية، وأكثر من ثلاث مئة ألف (٣٠٠,٠٠٠) معتمر وزائر من جمهورية باكستان الإسلامية، وأكثر من مئة واثنين وسبعين ألف (١٧٢,٠٠٠) من الجمهورية العربية السورية، وأكثر من مئة وواحد وثلاثين ألفاً (١٣١,٠٠٠) من المملكة الأردنية الهاشمية، وأكثر من ثمانية وسبعين ألفاً (٧٨,٠٠٠) من الجمهورية السودانية، وقريباً من ذلك من الجزائر واندونيسيا وتركيا، وهكذا.

إنها مناظر مفعمة بالروحانية، وهكذا ينبغي أن ينظر إليها، دون الولوج فيما يكتنف ذلك من ممارسات بعض المعتمرين والمعتمرات، والزائرين والزائرات، من مخالفات تصدر عن حسن نية، وتلك مهمات علماء الأمة وفقهائها من الجميع، وطلبة العلم فيها كذلك. ولا أرى أن يكون هذا مجالاً لتتبع النواقص، وإبراز جوانب التقصير، وإن كانت موجودة، فمن ذا الذي يملك السيطرة على أكثر من مليون شخص، رجالاً ونساءً، بل وأطفالاً، تجمَّعوا في مكان وزمان واحد، لولا فضل الله تعالى ومنَّته على هذه البلاد، ثم ما يحسب من حسن النية والإصرار على الرعاية التامة، وتذليل ما يعترض المسيرة المباركة من عقبات (لوجستية).

لم تتأثر شعيرة العمرة بما حلَّ بالبلد الحرام في مكانه وزمانه، وبالبلاد كلها، على المضي قدماً في أداء هذه الشعيرة، وزادت المسؤولين عزيمةً على خدمة هؤلاء القادمين من كل فج عميق، ليذكروا الله ويسبِّحوه ويقدِّسوه بكرة وأصيلاً. زادها الله أماناً على أمان، وأبطل ما يعكّر صفو هذه الشعيرة المباركة.

الوقفة الخامسة عشرة

عيد الفطر

إنني أعجب لبعض الكُتَّاب والمتحدِّثين الذين يحوِّلون هذه المناسبة السعيدة إلى "مناحة"، فينغصون فيها على الناس فرحة العيد، والعيد كما ينبغي أن يكون فرصة للفرحة بين الكبار والصغار، وهذا العيد عيد أكل وشرب وفرح، بعد تلك الرياضة الروحية في العبادة الخاصة بشهر رمضان المبارك من صيام الأيام، وقيام الليالي، وقراءة كتاب الله، والدعاء بالقبول. فيفرح الصائم أن أتمَّ الله عليه الصيام والقيام، فيأكل ويشرب ويروِّح عن نفسه، ألا ترون أنه في السنة أن يأكل المسلم والمسلمة تميرات قبل الخروج إلى صلاة العيد، إيدانًا بالأكل والشرب، والانتقال من حالٍ إلى حال؟

ثم ألا ترون أن هذا الشهر الكريم شهر النفقات، التي تُسهم في تقليص المعاناة بين المسلمين، ففيه يفضَّل كثيرون دفع الزكاة السنوية، وفيه تكثر الصدقات والتبرُّعات والهبات، وتتشط الجمعيات الخيرية المحلية والإقليمية، ويؤدِّي المسلم فيه ما عليه من حقوق مالية، وما يرغب في الزيادة من البذل والعطاء؟ بعد هذا كله ألا يحقُّ له أن يفرح، ويُفرح من حوله من الصغار والكبار، فينزلوا إلى مستوى الصغار، في البراءة والعموية والترويح البريء،

المطلوب للنفس التي تكلُّ إذا تكالب عليها الجدُّ في كل شيء؟ هذا أم نزع الصغار إلى مستوى الكبار وإدخالهم في أمور هي مبكرة عليهم، ولا يعرفون لها كُنْهاً ولا سبباً؟

كثيراً ما يردُّ الكتاب والمتحدِّثون بيت المتنبي المشهور، وفي هذا تشاؤم لا مبرر له، ولا يستدعي المقام مزيداً من الوقوف على البيت أو القصيدة، فأبو الطيّب يتحدَّث عن حاله هو، في عدم تحقيق طموحه، ولا يعني هذا تمثُّل البيت في العموم، وسحبه على الأمة التي تعاني وتعاني. ويوم العيد لن يغيِّر ما تعانيه الأمة، فلم لا يفرح الناس بالعيد، وهم مأمورون بذلك؟ ولم لا يجعلونها أياماً وليالي للأكل والشرب والمتعة واللهو والترفيه البريء من كل ما يُخرج الفرحة عن طورها؟

مَا فَاتَ مَاتَ وَالْمُؤْمَلُ غَيَّبٌ وَكَانَ السَّاعَةَ النَّيُّ أَنْتَ فِيهَا

ليس هناك ما يدعو إلى الحسرة على الماضي، وطعم العيد فيه، والمقارنة بين الماضي والحاضر، فذاك وقت مضى، وهذا وقت حاضر، ولكل زمان دولةٌ ورجال. ولا يعني هذا تعطيل كل شيء والرضوخ للواقع، ولكنه يعني أن لكلِّ مقام مقالاً، وأن المقام هنا هو مقام العيد والتهنئة فيه، وتوزيع الابتسامات والدعاء والدعوات، والاحتفاء بالعيد والاحتفال فيه، كلُّ يفرح به على القدر الذي يمكنه من الفرح، ويدرك أن الأرزاق من الله تعالى، يعطي ويمنع. وكلُّ يستطيع أن يفرح بطريقته. فنحن بحاجة إلى محطة استراحة، نتوقَّف عندها، ننظر إلى الجانب المضيء المشرق من الحياة، بعيداً عن الآلام والفتن والمشكلات، إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

افرحوا بالعيد، وفرّحوا من حولكم، وروّحوا أنفسكم،
وادعوا الله أن يتقبَّل من الجميع صيامهم وقيامهم، وجدّدوا
نشاطكم بما هو متاح لكم. و"بدرى" على مواصلة النشاط،
فالدولة تعطي إجازة، والقطاع الأهلي يعطي إجازة. وأرجو من
الجميع في هذه المناسبة عدم إساءة فهم هذه الفكرة، فهي لا تدعو
لأكثر مما هو مشروع مطلوب في العيد.

* * *

الفصل الرابع السعوديون والركن الخامس

الوقففة الأولى

الاستعداد للموسم

بعد أن يمنَّ الله على المسلمين بموسم الصيام، وإكمال شهر رمضان المبارك، صياماً لمن وفقه الله لصيامه، وقياماً لمن وفقه الله تعالى لقيامه، ونفقة لمن وفقه الله تعالى للإنفاق، يخرج المسلمون من هذا الموسم العظيم إلى موسمٍ آخرٍ عظيمٍ مثله، فذاك كان الركن الرابع من أركان الإسلام، وندخل في موسم الركن الخامس، والحج أشهر معلومات، وقال علماءنا الأفاضل إنها ثلاثة أشهر، هي شوال وذو القعدة وذو الحجة.

بعد الصيام تبدأ وفود الحجّيج تفتد إلى بقاع مقدّسة، هي محلّ عناية كل المسلمين ورعايتهم، هي في أفئدتهم أغلى عليهم من بيوتهم، فهي بيوت الله تعالى. أرايتم أننا في هذه البلاد المباركة نعيش خصوصية، قد لا تتوافر لكل بلاد المسلمين، ومن باب أولى لكل بلاد العالم. فنحن في هذه البلاد ندخل هذا الموسم بالإعداد والترتيب والتنظيم والإنشاء والتعمير طيلة العام، لا تقتصر على أشهر الحجّ، بل ربّما كانت هذه الأشهر الثلاثة لتنفيذ الخطط، والخروج بموسم ناجح على جميع الصُعُد.

إذا كنا لا نباشر التخطيط أو التنفيذ فإنك ترانا - أحياناً -
أكثر اندفاعاً من أولئك الذين يباشرون التخطيط والتنفيذ، أقول

اندفاعاً، لا حماساً، فلسنا أكثر منهم حماساً، فمنهم متحمسون - دون شك - أكثر منا؛ لأن المهمة - بالدرجة الأولى - مهمتهم، هم مسؤولون عنها أمام الله تعالى، ثم أمام ولي الأمر الذي وضع فيهم ثقته، وسلّمهم سمعة هذه البلاد في مجال الحجّ المتجدّد، فلهم من الله العون والتوفيق، ولهم منا الدعاء بالسداد، وكلمات لا بدّ منها نشعرهم بها أننا معهم قلباً، وإن لم نكن معهم قلباً.

هم، وإن كانوا، مكلفين بهذا العمل، فهو شرف لهم جميعاً، أن يخدموا عباد الله القادمين، يتطلعون إلى رحمة الله تعالى في أدائهم هذا التّسك، والمسؤولون يدركون أمام هذا الكمّ الهائل من عباد الله أن جهوداً غير عادية ستبذل، لاستيعاب هذه الجموع، مختلفة اللغات والعادات المحلية والتقاليد الموروثة، والمستويات المختلفة، في الوعي والإدراك والفهم والعلم، ولذا كان لا بد أن تكون هناك منغصات على الطريق، يتعامل معها المسؤولون بروح من الأريحية المطلوبة، في هذا الزمان من العام، وفي هذا المكان من العالم.

نتجاوز جميعاً هذه المنغصات؛ لأنها غير طبيعية، ولا تعكس صورة حقيقية للمسلمين، ولكنها تذكرنا دائماً أننا نتعامل مع البشر، هؤلاء الذين أقسم الشيطان بعزة الله ليغوينهم أجمعين، إلا عباد الله المخلصين. ولذا، وعندما نقف على ممارسات لا تليق بشرف الزمان والمكان فإننا نتفهمها، ونأخذ حيالها الإجراء الصارم، ولكنها لا تقلل من حماسنا، ولا تغفل الجهود التي تبذل في سبيل رعاية حجاج بيت الله تعالى وخدمتهم، رغبة في الثواب من الله تعالى لكل أولئك الذين حملوا الأمانة.

إني هنا ألمح إلى أعداد محدودة تصل إلينا بتأشيرة الحجّ، ولكنها تسيء إلى نفسها، وتسيء إلى الحجّ، عندما تستغلّه، إما بمدّ يد الشحاذة، وإما بمدّ يد "النشألة". وكلما وجدت أمامها إجراءات صارمة فإنها تقبل - بإذن الله - ولكن وليس من باب التشاؤم أو التقليل من الجهود، فإنه لا ينتظر لها أن تزول تماماً، ولكن المؤمل أن تحاصر في أضيق نطاق. وهذا هو الممكن المنتظر.

ثم إذا ظهر تقصير من بعض الأفراد، المؤتمنين على الرعاية والخدمة، فإنما هو لأنهم بشر، يعترهم ما يعترى غيرهم، وقد يكونون يتعاملون مع أجهزة، أو آلات، أو أدوات دقيقة، تخونهم في اللحظة الحرجة. ومع عدم السكوت على الإهمال إن حصل، فإن المسؤول العام يتفهم أن مثل هذا قد تحصل في المساءلة، ويكون فيه التفهم في آن واحد.

تلك كانت رسالة أخوية لأخ كريم نبيل شرفه الله تعالى بخدمة ضيوف الله تعالى، فرأيناه طيلة العام وهو يتخذ السبل الكفيلة لخدمة ضيوف الرحمن، من خلال عمله الدائب في الداخل والخارج.

الوقف الثانية

خصوصية المكان

من شعائرنا الإسلامية، التي حيّرت كثيراً من المهتمين، من غير المسلمين، هذه الشعيرة المباركة، الركن الخامس من أركان الإسلام، الحجّ لمن استطاع إليه سبيلاً. وكثيراً ما رغب هؤلاء المهتمّون من غير المسلمين في الاطلاع المباشر على هذه الشعيرة المباركة، ولكن المشاعر المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة محظورة على غير المسلمين، ولذا نجد أن عدداً منهم سعوا إلى الدخول إليها، بإعلان إسلامهم، وتغيير أسمائهم من الأجنبية إلى العربية، ثم دخلوا مع الأدلاء، وتعرّفوا منهم على المناسك والمشاعر، ثم سجّلوها في كتب لا يزال كثيرٌ منها في لغاتها، ولم تنقل إلى اللغة العربية.^(١)

من القليل الذي نقل إلى اللغة العربية، بالترجمة، كتاب المستشرق الهولندي كريستيان سنوك هورخرونيه الذي قام النادي الأدبي بمكة المكرمة بنشر الجزء الثاني منه،^(٢) وتريث في نشر

(١) انظر: يحيى حين وزيري. أم القرى: خصوصية المكان والعمران. - الرياض: المجلة العربية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. - ٣٢ ص. - (سلسلة كتيب المجلة العربية: ١٠٢).

(٢) ك. سنوك هورخرونيه. صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن

الجزء الأول، لما حواه من مغالطات متوقّعة من "عبد الغفار" أو الحاجّ عبد الغفار، الذي أعلن إسلامه، ودخل المشاعر، في غير وقت الحجّ. وقد تمّ نشره بعد التعليق على المغالطات التي وقع فيها هذا المستشرق.^(١)

وأحيل إلى كتاب الدكتور قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، إذ يناقش فيه مسألة إسلام هورخرونيه، والله أعلم بالسرائر.^(٢) وغير هذا الكتاب كتب أخرى، قليلة نشرتها المكتبة العربية، أمل أن تتصدى لها جامعة أم القرى، من خلال معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحجّ، بالدراسة والبحث، وقبل ذلك تجميع هذه الكتب، حتّى في لغاتها الأصلية. وعلى أي حال، فالموضوع يحتاج إلى بحث مستفيض لا تخلو منه المكتبة العربية.^(٣)

-
- الثالث عشر الهجري. - ج ٢ / نقله إلى العربية وعلّق عليه محمّد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا، راجعه محمّد إبراهيم أحمد علي. - مئة المكرّمة: نادي مئة الثقافى الأدبى، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م. - ٥٦٤ ص.
- (١) انظر: ك. سنوك هورخرونيه. صفحات من تاريخ مئة المكرّمة. - ٢ مج / نقله إلى العربية علي عودة الشيوخ، أعاد صياغته وعلّق عليه محمّد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا. - الرياض: دار الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م. - (سلسلة: مكتبة الدارة المثوية).
- (٢) قاسم السامرائي. الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. - الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. - ص ١١٠ - ١٣٧.
- (٣) انظر، مثلاً: دار الملك عبدالعزيز. الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية:

إن مجرد منع غير المسلمين من دخول المشاعر المقدسة يثير كثيراً من الفضول، ويبعث على قدر من الاحتيال لمجرد الدخول إليها حباً في الاستطلاع. ثم دخلت تقنية نقل المعلومات وقرّبت هذه المشاعر من الناس، بحيث تعتمد القنوات الفضائية إلى نقل المشاعر والشعائر إلى الناس، على الهواء مباشرة، واهتمت قنوات عالمية بهذا المنظر العجيب، فبعثت موظفيها المسلمين لتغطية هذا الحدث السنوي، الذي يثير الإعجاب بالحكومة السعودية، التي تقوم على كل هذا، وعلى قدر عالٍ من الدقة والإتقان في تسيير وتسيير مليوني نسمة في مكان واحد، وفي زمان واحد.

هذا مع عدم إغفال حدوث بعض المنغصات الآنية التي تؤثر في كمال الخدمة. كل هذا بعون من الله تعالى وتوفيق منه، ثم بالإخلاص في نيل ثواب هذه الخدمة النبيلة لعباد الله تعالى، ليشهدوا منافع لهم في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة الأخرى. أفيجرؤ بعد هذا كله إنسان أن يسيء إلى هذه الشعيرة المباركة، لاسيماً إذا كان من بني الإسلام، بأي نوع من أنواع الإساءة، حتى تلك التي تستغل هذا المقام، فتتشل أو تتسول، وهي ليست محتاجة!

* * *

=

بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في المدة من ٢٤ - ٢٧ رجب ١٤٢١هـ الموافق ٢١ - ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠م. - ٢ مج. - الرياض: الدارة، ١٤٢٤هـ - ١٠٠٢ + ١٤٣ ص.

الوقفه الثالثة

الحجّ والتميز

الذي يبدو، بل إن الذي ينبغي أن يكون، أن كل عبادة يؤدّيها المرء، خالصةً لوجه الله تعالى، لها طعم خاصٌّ متميّز عن التي سبقتها، وإن كانت من نوعها، شروطاً وأركاناً وواجبات، وما يتعلّق بها. وكنت قد ذكرت هذا قبل وداع شهر الخير والبركة، شهر رمضان المبارك. وندخل، نحن المسلمين، أشهر الحجّ المعلومات، وتبدأ الاستعدادات العملية لاستقبال ضيوف الرحمن، منهم من سبق له الحجّ، ومنهم من يحجّ لأول مرة، ومن سبق له الحجّ سيشعر بالفرق عن الحجّة السابقة، وإن كان قد أدّاها في العام المنصرم، ذلك أن طعم الحجّ سيختلف في هذا العام عنه في الأعوام السابقة. هكذا هو الشعور مع كل عبادة. ومع أن الصلاة تتكرّر معنا خمس مرات في اليوم الواحد، إلا أن لكل صلاة طعمها المتميّز عن التي سبقتها، حيث يشعر المصلي، ذكراً كان أم أنثى، بأنه أضاف إلى رصيده شيئاً ينفعه، عندما يلقي الله تعالى.

فإذا كان هذا الشعور قائماً في الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، وصيام شهر في السنة، فإن الشعور نفسه يزداد مع فريضة مطلوبة في العمر مرة، لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً. ذلك أن الرحلة

لها طعمها، وخطوات الحجّ، من حيث أركانه وواجباته وشروطه، لها كذلك طعمها، من مرحلة إلى التي تليها، حتّى ينهي الحاجُّ آخر ما يتمُّ به الحجّ، وهو ينتقل من شعور إلى آخر.

إذا أضيف إلى ذلك التغيير المادّي إلى ما هو أفضل، كلّ عام، من حيث الخدمات التي يقوم بها المسؤولون عن الحجّ، الذين جعلوا خدمة الحاجّ أمانة في أعناقهم، وآلوا على أنفسهم أن يتركوا الهموم المادّية لهم بعيدة عن كاهل الحاجّ، بحيث يتفرّغ للدعاء والأداء وطلب القبول، هذا التغيير المستمرُّ يضيف طعمًا خاصًا على هذه الشعيرة الفريدة.

رغم أن البعض يرغب في المشقّة، لا رغبة فيها من حيث هي مشقّة، ولكن رغبةً في زيادة الأجر من وراء المشقّة، إلا أن التسهيلات المادية، مهما وصلت إليه، فإنها لا تعفي المرء من شيء من المشقّة، تختلف من زمان إلى زمان، بل من عام إلى عام. فليس يدخل في المشقّة أن يخرج الحاج من أهله مودّعًا على أنه لا يعود، بسبب من قطاع الطرق واللصوص، وليس من المشقّة أن يلقي المرء بنفسه إلى التهلكة، وإن كان يؤدي فرضًا، فليس من الفروض المكتوبة ما يدعو إلى التهلكة بهذا الإطلاق، وإنما تأتي التضحية عندما يهدد المرء في ضروراته الخمس المعروفة، وعندما يهدد الشرُّ انتشار الخير.

على أي حال، يأتي موسم الحجّ كل عام والأمة الإسلامية تتطلّع إلى شعيرة متميّزة، معنى ومادة، بعيداً عن الشعارات والممارسات التي تتعارض مع روحانية هذه الشعيرة. وهنا يرى

البعض أن أداء الحجّ لا يخلو من حس سياسي يجمع الأمة، ولعله لا يفهم من هذا أن يعزل موسم الحجّ من السياسة، بالمفهوم الشرعي للسياسة، التي هي من صلب هذا الدين، ولكن من يرغبون في المراء والجدال يُحتمون في الموضوع ما لا يحتمل، من تطويع هذه المواسم لجلب أفكار وتوجّهات، لا تتفق، بالضرورة، مع المفهوم الشرعي للسياسة، بل هي حركة "لبيع" هذه الأفكار وتسويتها على أناس لا يرغبون في شرائها، بل إنهم في هذا الموقف قد جعلوا نُصب أعينهم القيام بشعائر الحجّ على الوجه الذي يراد منهم القيام به، دون زيادة مطّلة، أو نقص فيه تقصير عن المطلوب، وما عدا ذلك فليس لهم فيه حاجة.

أما إذا رغب الحاجُّ في التفقّه في الدين، فيما يتعلق بالحجّ أو غيره، فإن أهل الذكر موجودون مفرغون للمستفتين، في أي مجال من مجالات الحياة، فليس هناك في هذا الموسم المبارك حجر على علوم شرعية على المسلمين، بغضّ النظر عن خلفياتهم الإقليمية، ووجهاتهم الجغرافية، وهكذا ينبغي أن يكون الحجّ تجمُّعًا ميمونًا، فيه تآلف بين المسلمين، وفيه لقاء مودّة وأخوة ومحبة وطلب رضى من الله تعالى وقبول منه.

الوقفه الرابعة

الحجُّ المؤتمر

يمرُّ على المسلمين موسم سنوي يتكرَّر كل عام، عندما تجتمع الملايين من المسلمين في مكان واحد، يحققون بذلك ركنًا من أركان الإسلام، مشروطاً بالاستطاعة إليه سبيلاً. وهو الركن الوحيد الذي اقترن بالاستطاعة لما فيه من مشقة وتعب واضحين.

يرى بعض الناس ألا تمرُّ هذه الفرصة دون استغلالها، بأي شكل من أشكال الاستغلال الطيب، وكأن أداء المناسك الذي هو الغرض من هذا التجمُّع ليس استغلالاً للموسم، على ما ينبغي أن يستغلَّ عليه، دون رفث أو فسوق أو جدال. ولعل هذه الدعوة، التي يتأثر بها بعض المفكرين، هي نتاج التوجُّه الفكري في النظر إلى الإسلام وإلى تشريعاته، التي تتمثل في أركان يقوم بها المسلم في حياته. ويأتي التوجُّه الفكري هذا على حساب العلم الشرعي، في فهم هذه الشعيرة المباركة، التي هي عبادة من العبادات، وليست، كما يقول المفكِّرون، مؤتمراً عاماً، تُلقى فيه الأوراق، وتوزَّع فيه الهموم، وتكثر فيه الشكاوى لغير الله تعالى، وترفع فيه الشعارات، وبالتالي ينصرف الناس، أو يُصرفون، عن الغرض السامي الذي اجتمعوا فيه على هذا الصعيد الطاهر.

عليه ، فإن المؤمل ألا تنتقل من المصطلحات الشرعية لممارساتنا في العبادة ، ونستعيب عنها بمصطلحات رثانة ، تستخدمها ثقافات أخرى ، تجتمع في أماكن متعددة ، وتدين لحزب واحد ، وتقدس رموزه من البشر ، وتسمي هذا التجمع مؤتمراً عاماً ، ما هو إلا تمجيد للحزب وقياداته ، وتوكيد على تطبيقه على المنتمين إليه .

الحجّ أسمى من ذلك بكثير ، إنه إخلاص لله في العبادة وخلوص له من الشرك ، وتفرُّع تام بين العبد وربّه ، ويدعو العبد ربّه ، متضرّعاً أن يقبل منه طاعاته ، ويعفو عن زلّاته . ولا يتخلل ذلك أي مؤثرات ، من قريب أو بعيد ، إلا ما يكون من توجيه وإرشاد وفتوى وردود على مشكلات ومساءل ، ترد أثناء القيام بهذه الشعيرة المباركة ، ويتصدى لها العلماء والواعظون والمرشدون ، دون دخول مباشر في توجيه الناس إلى أي أمر يشغلهم عن أداء نسكهم ، بل إن هذه القلّة من العلماء إنما يحضون الناس على التوجّه إلى العبادة الخالصة لله تعالى ، في هذه المناسبة المباركة ، وعدم إفسادها باللجاج والجدل .

كنت قد توقّفت عند طغيان الفكر على العلم ، الذي لن يكون بحال من مصلحة الأمة ، ولا يعني أفرادها بحال ، لاسيّما الحجاج الذين قد يشغلون بالفكر عن العبادة . وهم سيسألون أمام الله تعالى فرادى ، ولن يأتي المفكّرون ليتحمّلوا عنهم سوء استفلالهم للمشاعر المقدّسة والشعيرة المباركة ، لأن هؤلاء المفكّرين سيشغلون بأنفسهم ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أتى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ (٨٩) . (الشعراء : ٨٩) .

إنني، هنا، لا أحمل على المفكرين، ولا أدعو إلى الحجر على الفكر والتفكير والتفكير والتدبر والتعقل، فلا يدعو إلى ذلك عاقل، وأزعم أنني على قدر لا بأس به من العقل. والذي أحمل عليه، هنا، وفي كل مجال، هو أن يطغى الفكر على العلم، ويكون ذلك على حساب الأداء الصحيح لعبادات، فرضها الله علينا، فرضاً توقيفياً، نُؤدِّبها كما جاءت، ولا نتفلسف في طريقة أدائها في أصولها، لا في فروعها. وغير ذلك فإن الفكر والتفكير جزء من حياتنا، بل إن إعمال الفكر نفسه عبادة لله تعالى^(١).

* * *

(١) هناك نقاش مستفيض حول النظر إلى الفكر من منطلق مؤصل في: علي ابن إبراهيم النملة. الفكر بين العلم والسلطة: من التصادم إلى التعايش. - مرجع سابق. - ٢٧٧ ص.

الوقفة الخامسة

أهل الذِّكْر في الحجِّ

يقرأ المسلم عن الحجِّ، ركنًا خامسًا من أركان الإسلام، ويدرك، نظريًا، الخطوات المراد اتِّباعها في الواجبات والشروط والأركان والمستحَبَّات في الحجِّ، ولكنه، عندما يصل إلى بيت الله الحرام والمشاعر المقدَّسة، يجد نفسه أمام سيل من التساؤلات عن كيفية الأداء الصحيح، الذي يبتغي فيه القبول. فهو إنما قصد البيت الحرام ليحجَّ حجًّا مبرورًا، ليس له جزاء إلا الجنَّة، فلا يريد التفریط في ذلك. وأمام هذه التساؤلات يجد الحاجُّ نفسه بحاجة إلى أهل الذِّكْر، يسألهم عما لا يعلم من المناسك.

من وسائل التنظيم في الحجِّ وجود كوكبة طيبة من العلماء وطلبة العلم، وقضوا أنفسهم للإجابة على أسئلة الحاجِّ الكثيرة. وتجد هؤلاء العلماء وطلبة العلم وأهل الذِّكْر في أماكن متعدِّدة من المشاعر المقدَّسة، جاءوا من أرجاء البلادة الطاهرة إلى هذه المهمة بدءًا بالعشرين من شهر ذي القعدة إلى العشرين من شهر ذي الحجة.

لا تقتصر مهمة هؤلاء الرجال على الجلوس للفتيا، والإجابة على التساؤلات، بل إن لديهم برامج توعوية بالحجِّ وأموره، وجميع

ما يهيمُ الأُمَّةُ الإسلامية، من خلال محاضرات، تعقد في المساجد أو في المخيمات، وكذا حلق الذكر والدروس العلمية.

يعمد كثير من الحجاج إلى الاستفادة من هذه القلة المباركة من رجال العلم، الذين تنعم بهم هذه البلاد الطيبة، وهم موضع ثقة من المسلمين، ذلك أنهم يحسبون فيهم الإخلاص والصدق والأمانة، في نقل العلم، وفي الإجابة على الاستفسارات. وهم بطبيعة الحال يدرسون حال المستفتين، ويميلون في الجملة إلى التيسير على الناس، بحسب الحال، دون الخروج عن الإطار العام للمسألة موضع البحث، فهم يتسامحون ولا يتساهلون، ويعمدون إلى المرونة لا التسيب، فلا مجاملة في الدين، ولا تنازل عن أحكامه.

لو أُجري مسح عام على الأسئلة والاستفتاءات، التي ترد إلى أهل الذكر لاستطاع الدارس لها الخروج بتصنيف عام لها، يمكن الافتراض فيه، من الآن، أن جملتها تتعلق بالحج بطبيعة الحال، وأن جملتها تأتي من حجاج، قدموا إلى المشاعر من خارج البلاد، ليس لأنهم جهلة بالأحكام العامة للحج، ولكن لأن العلماء في مواطن هؤلاء الحجاج قليلون، بالنسبة لوجودهم في بلاد العلم والخير. وهذه مسألة ينبغي عدم إغفالها. فالبلاد - بفضل الله تعالى - غنية بالعلم والعلماء وطلبة العلم، الذين وصلوا إلى مستويات عالية من العلم والثقافة والوعي، ومتابعة أحوال الأُمَّة. فحريٌّ بالمسلمين أن يستفيدوا من هذا العلم في شتى مناحي الحياة.

على أن الأمر، هنا، ليس مقصوراً على علماء هذه البلاد، مع ما فيهم من خير، إذ إن العلم الشرعي متاح للجميع، وهؤلاء العلماء



موجودون في أماكن كثيرة من بلاد المسلمين، وبين الجاليات المسلمة، والأقليات المسلمة. ولذا يستفاد من علمهم في الحجّ، ويستعان بهم - بعد عون الله تعالى - على أن ينظر للحجّ من زاوية كونه منتدئاً عالمياً، تتجسّد فيه روح الأخوة والتضامن بين الجميع، بغضّ النظر عن الحدود. وقد أُطلق على هذه الجملة من أهل العلم بأنهم: علماء بلاد حدود.

حيث إن الأمر كذلك في مسألة الفتيا وبروز أسئلة ومشكلات علمية أمام الحاجّ - ذكراً كان أم أنثى - كان حرياً بالمسؤولين عن الحجّ إدراج هذه المسألة في التنظيم العام للحجّ، لئلا يتولّى الفتيا من لا يجيدها، فيضللّ هو، ويضللّ الناس معه. ومتى ما وجد الناس تنظيمًا دقيقًا جيدًا عمدوا إلى الإفادة من التنظيم بسؤالهم العارفين، بدلاً من أن يسألوا أيّ شخص عابر.

الوقفه السادسة

تكرار الحجّ

نقلت جريدة المسلمون تقدماً موجّهاً إلى المسلمين من أحد علمائهم الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي حول «قيام بعض المسلمين بأداء الحجّ عشرات المرات في الوقت الذي لا يهتمون فيه بإنقاذ ملايين المسلمين من الموت جوعاً وقتلاً»^(١) وكنت في وقفة سابقة حول الحجّ والتنظيم قد تعرّضت لموضوع «الحد من عدد الحجّات للحاج الواحد»، رغبة في فسح المجال لمن لم يتمكن من أداء الحجّ من قبل. وها هو أحد علماء الأمة الموثوقين يلمح إلى الإفادة من هذا الموضوع من جانب آخر، يمكن فيه حصر تكاليف الحجّ في أدنى حدود التكاليف، ثم بعث ما يصل إليه الحصر من مبلغ مادّي إلى مواطن الفقر والجهل والجوع والمرض في مجتمع الأمة العريض.

بهذا يكسب هذا المتبرّع أجرين، عقد النية على احتسابهما عند الله تعالى، والتوسيع على المسلمين، في موسم سنوي يكثر فيه الحجّاج، إذ يظل المكان كما هو رغم الإصرار على التطوير في الخدمات من المسؤولين عن الحجّ، إلا أن المكان يظل هو

(١) يوسف بن عبد الله القرضاوي. المسلمون. - ع ٥٠٥ (٢/٥/١٥٤١هـ).

المكان. والأجر الثاني: يأتي من صرف نفقات الحجّ على مواطن، هي بحاجة إلى هذه النفقات، إذ يتوقّع من نفقات الحجّ لفرد واحد أن تعيش منها أسرة كاملة، لمدة غير قصيرة من الزمن، يمكن تحديدها، إذا ما حدّد المكان الذي ستذهب النفقات إليه.

الكسب الثالث من هذا الفعل هو الإعانة على تلمّس الأوليَّات في أداء العبادة لله تعالى، وتقديم الواجبات على النوافل، والحرص على المفروضات، قبل فروض الكفاية بالنسبة للأفراد، والنظر إلى الأصول في العبادة، قبل الولوج في الفرعيات، وهكذا. وهذا الأمر مما تحتاجه الأمة في هذا الزمان للخروج من "الاختلال الخطير"، بحسب التعبير المنقول عن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي.

من جهة أخرى فإن صدور هذا "التوجيه" من عالم يختلف في وقعه قطعاً، إذا ما صدر عن شخص ليس عالماً مهماً، أُسبغ عليه من الألقاب الأخرى، كالمثقّف أو المفكّر أو الكاتب أو نحوها. وليس هذا ادّعاء بأن صاحب هذه الحروف داخل في أحد هذه التصنيفات، إلا أنه توكيد على ضرورة ولوج علماء الأمة هذا المجال، وتوجيه الناس في كل مكان باحتساب الأجر المضاعف، عند الاكتفاء بما قاموا به من أداء للحجّ، وصرف نفقاته في مجالات أخرى، المجتمع المسلم بحاجة ماسّة إليها. والمهم، هنا، هو درجة القبول، ووقع هذا التوجيه من عالم يفقه الأمر من جميع زواياه، ولا ينظر إليه من زاوية واحدة، قد تكون ذات علاقة بجانب واحد، كالمكان مثلاً، لاسيّما أن هناك من يصعب عليه

أن يمتنع عن الحجّ، إذا لم يقتنع بالبدائل التي تتخطى الأداء في مسألة المثوبة من الله تعالى، ذلك أن العالم حينما يتصدى لهذا الموضوع فهو ينطلق من "صلاحيات" وفقه الله تعالى إليها، بما أعطاه من علم وفقه في العلم.

حبذا لو يقتنع بقية علمائنا برأي الشيخ يوسف القرضاوي، وإخالهم مقتنعين، ومن ثمّ تبدأ حملة توعية في وقت مبكر، للتوسيع على عباد الله تعالى، الذين قد لا يتاح لهم الوقوف على صعيد عرفات إلا مرة واحدة في حياتهم، وحبذا لو يركّز علماء الأمة - في كل مكان - على مفهوم الاستطاعة، شرطاً من شروط تحقيق الركن الخامس من أركان الإسلام، وفي هذا أيضاً توسيع على الناس، أو بعض المسلمين، الذين قد يفدون إلى المشاعر المقدّسة، وشرط الاستطاعة ليس بالضرورة متحققاً فيهم.

* * *

الوقفه السابعة

التيسير في الحج

إفعل ولا حرج، هذه عبارة لا يقولها إلا عالم، وما قالها من قبل إلا عالم، وأرجو ألا يقولها من بعد إلا عالم. أما جرأة بعض الناس واعتقادهم أنهم يعلمون، وهم لا يعلمون، فإن هذا الإطلاق لا ينطبق منهم، ولا ينطبق على ما يفتون به من أحكام، لم يطلعوا عليها من العلماء، أو من بطون الكتب، بل إن جزءاً منهم قد أخذها "بالممارسة" وأضحى بين الناس - لاسيما عامتهم - عالماً، يعود إليه الناس في الخروج من المسائل التي تواجههم أثناء الحج.

واضح من هذه العبارة الذهبية أن المراد التسهيل على الحجاج. ويذكر أن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - مر على عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وسمعه يرددّها على السائلين، فقال عبارته: "هذا هو الدين" أو نحوها. ولكن هذه الواقعة تؤكد على المسؤول وعلمه بما يجيب السائلين، والحديث هنا يتعلّق بعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -^(١)

لقد تهيأ للحاجّ بفضل الله تعالى، ثم بالمتابعة المباشرة المستمرة من القيادة، رهطٌ من طلبة العلم والعلماء والمفتين، الذين خصّصوا

(١) توثيق الرواية.

وقتهم وجهودهم لخدمة الحاج، فيما يعنُّ له من مسائل، وأحسب أن هذه الفئة، ومن هم في حكمها من رجال العلم، هم الذين يملكون زمام «إفعل ولا حرج». ولا يعني هذا - في الوقت نفسه - تضيق الأمر على فئة دون فئة، فالعلم ليس وقفاً على فئة دون فئة، ولكن الحجّ ليس مجرداً من الشروط والأركان والواجبات والمستحبات والمباحات والمكروهات والمحرمات، وهذه ليست مما ينطبق عليها القول بأنها معلومة من الدين بالضرورة، بل إن من يعلمها، نظرياً، قد يواجه صعوبات علمية عند التطبيق والممارسة.

إن التسهيل على الحجّاج عموماً، وعلى الحالات الخاصّة منهم، مطلب، لكنه مطلوب من أهل الذكر، لا من أولئك الأشخاص، الذين يغلّبون الرأي على ما فيه حكم معروف، مهما قبل هذا الحكم من إعادة نظر بين الفينة والأخرى، بين علماء المسلمين على مر العصور.

الوقفه الثامنة

السُّدَاءُ فِي الْحَجِّ

الحجَّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، والسعيد من كان حجَّه مبروراً، ويصرُّ على أن يكون مبروراً، بالابتعاد عن أي تصرف أو سلوك، قد يخرج به من الوصول إلى هذه النتيجة المطلوبة، التي سعى إلى الوصول إليها، بجهد وماله ووقته، فرجع من حجَّه كيوم ولدته أمه، كما أخبر المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ: «من حجَّ هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(١).

• السعيد من حجَّاج بيت الله الحرام من استفاد من مراكز توعية الحجيج، فسأل أهل الذِّكْر عما لا يعلمه من المناسك، ورغب في أداء هذه الشعيرة على الوجه المنتظر منه القيام به، بعيداً عن المبالغة في الأداء، مما يصل إلى حد الإفراط، أو التقصير في أدائها، مما يصل إلى حد التفريط. ثم أدأها على وجهها الذي أدأها عليه قدوتنا في الحجِّ، وفي الحياة، سيِّدنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله - عليه أفضل الصلاة والسلام -، ثم الصحابة والتابعون والسلف الصالح، الذين قالوا عن الحجر الأسود إنما هو حجر، ولولا أنهم رأوا القدوة ﷺ يقبله ما قبلوه، وقالوا كذلك إنهم

(١) تخريج الحديث.

يرمون حجراً ويقبلون حجراً، وهم بذلك راضون بما ارتضاه لهم قائد الحجّ الأول أبو القاسم - عليه أفضل الصلاة والسلام - . وتستحضر، هنا، عبارة خليفة خليفة رسول الله ﷺ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «إني لأعلم أنك حجراً لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلُّك ما قبلتُّك».

• السعيد من حمد الله تعالى على أن يسرَّ له القيام بهذه الشعيرة على الوجه المنتظر، وترك "هامشاً" لا يدُّ منه من المشقة والعناء الذي يزيد، بإذن الله، من الأجر، ويضعف من المثوبة، إذا ما صبر الحاج واحتسب. ويكفيه في هذا مشقة السفر والانتقال، وتغيير نمط الحياة التي عاش عليها.

• السعيد من حجّاج بيت الله الحرام من أعطى القوس باريها، وترك الشؤون الأخرى للحجّ لأولئك الذين آلوا على أنفسهم أن يكونوا في خدمة ضيوف الرحمن، وعملوا على ذلك منطلقين من التوكيد عليه، من خلال شعورهم بالمسؤولية أمام الله تعالى، مما أدّى إلى النصّ عليه في النظام الأساسي للحكم.^(١)

• السعيد من أدرك هذه الجهود، فقدَّرها، وقدَّر القائمين عليها، وطاف بفكره من حوله، ومن وراء ظهره، فتذكَّر، أو خبر وسأل واستفسر، ما كان عليه الحجّ في زمن مضى، لم يكن

(١) ونص المادة: «تقوم الدولة بإعمار الحرمين الشريفين وخدمتهما وتوفير الأمن والرعاية لقاصديهما بما يمكن من أداء الحجّ والعمرة والزيارة بيسر وطمأنينة»..

بعيداً، وما أضحى عليه الحجّ الآن، وما ينتظر أن يكون عليه الحجّ فيما يأتي من السنين - بإذن الله تعالى - فالطموح لا يقف عند حدّ، والرغبة في التطوير مطلب تسعى هذه البلاد إلى تحقيقه، والمضي فيه.

• السعيد من حجّاج بيت الله الحرام من احترام الأنظمة، وقدّر الحكمة من وضعها، فحزم حقائبه عائداً إلى بلاده، داعياً الله تعالى القبول، والعودة إلى هذه الرحاب الطاهرة، وفي وقت يأتي - بإذن الله تعالى - ذلك أن التخلف بعد الحجّ يكون مشكلة لهذه البلاد، تؤثر على أمور كثيرة فيها. والحاجّ، بعد هذا كله، لا يتوقّع منه إلا أن يتمنّى الخير لهذه البلاد وأهلها، لتستمر في خدمة الحرمين الشريفين، وخدمة حجّاجهما، وعمّارهما، وزائري مسجد المصطفى ﷺ.

• السعيد من حجّاج بيت الله الحرام من نقل هذه الصورة المشرقة إلى إخوانه، بحيث يدرك العالم الإسلامي، على الأقل، أن الأمة لا تزال بخير، وستظل كذلك - بإذن الله تعالى - ما دام هناك أناس يشرفون بأن يخدموا ضيوف الرحمن، دون انتظار الجزاء من الناس. ثم دعاهم إلى أداء هذه الشعيرة متيحاً لهم المجال لذلك، بعد أن أدّى الفرض، ورأى كثرة الحجّاج، التي تدعو إلى التنازل عن تكرار الحجّ مرّات متقاربة.

• السعيد، في النهاية، من ابتغى بحجّه هذا وجه الله والدار الآخرة، فكان حجّه هذا مبروراً، وسعيه هذا مشكوراً، وذنبه

السعوديون والخصوصية

١٦٤

مغفوراً، وما كان له جزاء إلا الجنة. ومن المسلمين من يتطلع إلى هذا الجزاء، ليس إلا.

* * *

الوقفه التاسعة

الاستطاعة في الحج

لقد هياً الله تعالى لي أن أدرك عمرةً في شهر رمضان المبارك، وفي العشر الأواخر منه، وأطلعت مباشرة على هذه الجهود المباركة في خدمة بيت الله الحرام، والإصرار على ذلك. ثم أطلعت على أمم جاءت من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات، واجتمع في الحرم المكي الشريف في وقت واحد أكثر من مليونين ومئتي ألف مصلٍ ومعتمر وقائم وراكع وساجد وعاكف وقارئٍ لكتاب الله، يرجو رحمته، ويخافُ عذابه.

لقد تبين أن عددًا غير قليل من هؤلاء العباد تظهر عليهم الفاقة، ويحفهم الفقر، وقد جاءوا من أماكن بعيدة، المستغرب كيف استطاعوا تديبر ثمن الرحلة أياً كان نوعها، وهي قسم مهم من مفهوم الاستطاعة، أمّا الزاد، وهو القسم الثاني، فإني أشك في أنهم قادرون عليه، إلا من أيدي المحسنين، ممن يقفون الزاد على عباد الرحمن في بيت من بيوت الرحمن.

بل إن منهم من خصص وقتاً من هذه المناسبة، يقف أمام القادمين إلى الحرم للصلاة، ثم يقف أمام المغادرين من الصلاة. ولو خرجت من باب العباس أو باب النبي، أو أي الأبواب التي تُفضي إلى الفزة ستجد على يمينك في التوسعة المفتوحة فلولاً من الناس، رجالاً

ونساءً، مرابطين في هذا المكان تحت الجبل يستظلون بظله، وربما وجدت منهم النائم من ذكر وأنثى. وهؤلاء عدد غير قليل، وغيرهم كثير في أماكن أخرى حول الحرم، حتى أنك لتأسف أن ترى هذا المنظر يتكرر كل زمان بحجة أن هؤلاء يسعون إلى عمرة في شهر رمضان تعدل حجة مع المصطفى ﷺ.

مع الدعوة لهؤلاء بالقبول والثواب العظيم، ولا أملك أن أمنع عنهم رحمة الله تعالى، إلا أنهم على ما يظهر مدفوعون بالعاطفة الدينية، التي تقود هؤلاء إلى هذا الفعل، وتهون عليهم هذه المعاناة. المعلوم أن الدين، في الجملة، لا يؤخذ بالعاطفة فحسب، ولكنه يقوم على عدة مقومات، قد تكون العاطفة جزءاً منها، ولكنها ليست المقوم الأول، وليست مقدّمة على مقومات مهمّة، هي جملة من الأحكام الشرعية، التي تعين الإنسان على أن يقوم بالعبادة، على الوجه الذي يرضي الله تعالى، فيحصل معها القبول - بإذن الله تعالى -.

قد لا أذهب بعيداً إذا شبّهت هذا الموقف الذي رأيته بتلك الجموع التي تتوافد على ولي من أولياء الله تعالى، تنفق في سبيله الكثير الكثير، وترابط عنده مدة من الزمن، تفرغ فيها شحنات من العاطفة الدينية، ثم تعود أدراجها بعد ذلك، مثقلة بالفقر والفاقة، تبدأ في تسديد الديون التي طالتها في إقامتها هذه، فيستمرُّ الفقر، وكل هذا، على زعم من هؤلاء، في سبيل الله. والفارق كبير بين التشبيهيين من حيث المعتقد - حتى لا يفهم التشبيه خطأً - فهؤلاء قد قصدوا الله تعالى وأولئك قد قصدوا

ولياً، مضى عليه الزمان، فأضحى لا يضرُّ ولا ينفع، والله تعالى باقٍ سبحانه، وهو معبود في كل مكان.

إلا أن التركيز، هنا، هو أن الدافع لهذا الموقف هو العاطفة فحسب، ونسي كثير من هؤلاء - بل ربَّما كلهم - أن الحجَّ والعمرة مقرونان بالاستطاعة، بل إن الحجَّ هو الركن الوحيد من الأركان الخمسة الذي اقترن بشرط الاستطاعة، مع أن الزكاة مشروطة، والصيام مشروط، بل والصلاة مشروطة، ومع هذا فلم يصرَّح بالشرط إلا مع الحجَّ، وتدخل فيه العمرة، لما فيه من الانتقال الذي يقتضي الزاد والراحلة. وقد قال الله تعالى: ﴿ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران ٩٧)، وقال عليه الصلاة والسلام: «بني الإسلام على خمس - وذكر - حجَّ البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»^(١) ولا يظهر لي أن افتراض الأرض - في هذا الزمان - يوحى بشيء من الاستطاعة المطلوبة، فما الموقف؟

من المهم جداً أن يفهم هذا الركن الخامس من أركان الإسلام على أنه مرهون بالاستطاعة، وعليه فإن الفهم لهذا الشرط مهمٌّ جداً، بحيث يسقط عن فئة من المسلمين، لا يملكون الزاد

(١) تخريج الحديث.

والراحلة، وإذا ما تمكّن المسلمون من هذا الفهم فإن نسبة لا بأس بها سوف تقتنع، شرعاً، بأنها ليست مطالبة بالحجّ، أي أنها في وضعها الراهن لا تشعر بعدم الارتياح إذا لم تؤدّ فريضة الحجّ، لأنها، في هذه الحال، ليست مفروضة عليهم.

لعلّ المعنيّين المسلمين من العلماء والأئمة والخطباء والإعلاميين يركّزون على هذا العامل المهمّ جداً، ذلك أننا نجد أناساً، ومن دوافع عاطفية، يكلفون أنفسهم ما لا تطيق، ويبيعون ما وراءهم ودونهم، بل قد يسيئون إلى أسرهم وأهليهم في سبيل توفير المبلغ الكافي للزاد والراحلة، بل ربّما لجأوا إلى الاقتراض أو بيع ضروريات، أو التسوّل في بلادهم وفي الحرمين الشريفين والمشاعر، مما لا يليق بالمسلم أن يعمله، مهما كانت الدوافع، مما ينبغي الحدّ منه إلى إيقافه، لأنه يتعارض، عقلاً وشرعاً ومنطقاً، مع هذه الشعيرة المباركة، ذلك أن الله تعالى الرحيم بعباده لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأن الرسول الأمين محمد بن عبد الله ﷺ قد حثنا جميعاً على أن نتقي الله تعالى ما استطعنا.

عليه، فإننا مطالبون، شرعاً وعقلاً ومنطقاً ونظاماً عاماً، أن نظهر هذه الشعيرة بالمظهر اللائق بها أمام المسلمين، ثم العالم؛ لأنها شعيرة تكتنف دعوة عملية حيّة إلى الإسلام. ولذا، فإنها لا بدّ أن تكون خالية من أي عامل من عوامل التنغيص لهذا المسلك الشرعي المبارك.

الوقفه العاشرة

التنظيم في الحجّ

من فضل الله تعالى على هذه الأمة زيادة عددها، ورغبة هذا العدد في إكمال دينه، بالقيام بأركانه وفروضه وواجباته. ومن أركان هذا الدين الحنيف الحجّ إلى بيت الله تعالى لمن استطاع إليه سبيلاً. والذي يبدو أن الاستطاعة، الآن، أيسر مما كانت عليه من قبل، ذلك أن تقنية الاتصال والمواصلات، مع تعدد أبواب الرزق هيأ لكثير من العباد القدرة على جمع قدر من المال للحجّ، يتغلب فيه على مطلب الزاد والراحلة.

هذا يعني الكثرة في عدد أولئك الذين يرغبون في أداء هذه الفريضة، بل زيادة العدد في أولئك المتفّلين بالحجّ، ممن سبق لهم أداءه فريضةً. هذا في الوقت الذي تظلّ فيه المشاعر محدودة في مساحتها، معدّدة في سعتها، والخروج عنها يخلّ بالفريضة أو بشعيرة الحجّ، ثم إن الخدمات، مهما توافرت، فإن الكثرة سوف تؤثّر فيها، من حيث عمومها وفاعليتها. ومهما يكن، فالطاقات محدودة بالبشر والموارد والإمكانات. والأصل أن كل من استطاع إلى الحجّ سبيلاً أن يحجّ فرضه على أقلّ تقدير، دون النظر إلى التفّل، والأصل، كذلك، أن المشاعر مفتوحة لجميع المسلمين، في وقت الحجّ وفي غيره، فيما يتعلّق بالعمرة، ولم يجادل أحد في ذلك.

لأن هذا الدين دين عملي، صالح للتطبيق في كل زمان ومكان، كان لابداً من الاجتهاد في تنظيم هذه الشعيرة الإسلامية، اجتهاداً لا يتعارض مع النصوص الشرعية. والتنظيم أسلوب حضاري، يكفل فاعلية الخدمة، ويضمن للفرد أن يقوم بمشاعره في الحجّ على وجه مريح، فيه من التحقيق ما يرضي هذا الفرد، ويجعله يشعر أنه أدّى هذه المشاعر على الوجه المطلوب بأمان وسلام وراحة، بعيداً عن أي منغصٍ يسيء إلى هذه الشعيرة المباركة. ولذا كان لزاماً على القائمين على خدمة حجّاج بيت الله مراعاة الآتي:

أولاً: الاستمرار في تطوير خدمات الحجّ في كل موسم، وأنّخذ التدابير اللازمة لذلك، من حيث توفير كل ما من شأنه أن يضمن حجاً سليماً من كل المنغصات، الماديّة والأمنية والصحية والبيئية والمرورية، ونحوها.

ثانياً: العمل على تحديد عدد الحجّاج القادمين كل عام وفي وقت واحد، بحيث يمكن استيعابهم في مكان محدود المساحة، ومن هنا ظهرت فكرة النسبة في أخذ أعداد الحجّاج، بحسب عدد المسلمين في كل بلد. وهذا أفضل بكثير من العدد الفعلي الذي يأخذ الأرقام تحديداً من كل بلد، لأن في ذلك عدم مراعاة للزيادة المضطّرة في أعداد السكّان.

رغم أن النسبة ستزداد في ترجمتها إلى رقم، بحسب زيادة عدد السكّان، إلا أنه كان من المناسب اتّخاذ النسبة التي قد يعترها شيء من المراجعة، بحسب الحال. وإزاء هذا الوضع يتنظر

من كل من يتصوّر وضع الحجّ ويدرس هذا الموضوع دراسة متأنّية أن يبارك مثل هذا الإجراء، الذي دعت إليه ضرورة زيادة أعداد الراغبين في أداء الفريضة.

ينتظر من الدول والجاليات أن تتعاون مع هذا الإجراء، لاسيّما أنه اتّفق عليه في لقاء شامل، فتعمد هذه الدول والجاليات إلى إعطاء الفرصة أولاً لمن لم يحجّ أن يحجّ، ثم يأتي النظر إلى المتفّل، أخذاً في الحسبان أن الله تعالى سيجزي من رغب في الاستزادة من الحجّ، ولكنه آثر أن يفسح المجال لغيره، وإنما الأعمال بالنيات.

* * *

الوقفه الحادية عشرة

الحجاج من الداخل

المعروف أن المعنيين بالحجّ، كاللجنة العليا للحجّ تدرس كل الإمكانيات والآراء والمشروعات والأفكار للخروج بموسم - أي موسم - بالنجاح، الذي هو غاية من غايات هذه الهيئة، التي تعبّر عن توجّه هذه الدولة، التي آلت على نفسها متابعة خدمة حجّاج بيت الله تعالى والمعتمرين وزوار مسجد رسول الله ﷺ، والعمل الدؤوب على تهيئة الأجواء الروحانية، لينشغل بها الحجّاج والمعتمرون، ويتركوا النظر في القضايا إلى أولئك الذين نابوا عن الأمة في الرعاية. وإذا كان أمر حجّاج الخارج أصبح محسوماً بالقرار الجماعي، فإن حجّاج الداخل بحاجة ملحة إلى تنظيم، يكفل، كذلك، الإفادة الفاعلة من الخدمات.

لا بدّ من أن يعرّج الحديث عن أولئك الذين يرغبون في الحجّ من الداخل من أبناء البلاد ومن المقيمين فيها، سواء أكان أداؤهم للحجّ فريضة أم نافلة. والذي يبدو أنه ضرورة اليوم هو وجود صيغ تنظيمية، تكفل الإفادة الفاعلة من الخدمات الجليلة، التي تقدّم للحجّاج في كل مشعر من المشاعر المقدسة.

قبل وجود التنظيم والسعي في تطبيقه، لا بدّ من التوكيد على فكرة الإيثار، ولا بدّ للعلماء والخطباء والأئمة أن يركّزوا على هذا

الجانب المهم في حياة المسلم، إذا كان هذا المفهوم قابلاً للتطبيق في مجال الحجّ، فيترك مجالاً للتطوُّع في هذا الجانب ورجاء المثوبة المضاعفة - بإذن الله تعالى - من هذا الإيثار، لاسيّما أن هناك من الأحاديث والآثار ما يؤكِّد على أن القيام ببعض الأعمال التعبُّدية تعادل في ثوبتها حجّة وعمرة أو حجّة أو عمرة، ويحضرني من ذلك - على سبيل المثال - الانتظار في المسجد بعد صلاة الفجر بالدعاء والتلاوة حتّى تطلع الشمس، ثم يؤدي المسلم ركعتين، فيعدل هذا العمل حجّة وعمرة.^(١)

هذا الجانب في التوعية سيعين، بعد عون الله تعالى، على قبول أي تنظيم، يطرح بعد ذلك، إذ ستكون لدى الناس القابلية والفهم والإدراك للتنظيم، وأن المراد منه المصلحة العامّة لحجاج بيت الله الحرام، ثم بعد ذلك يتدخّل التنظيم الذي ينتظر منه أن يشمل الجميع، من المواطنين والمقيمين على حدٍ سواء، وإذا كان بالإمكان السيطرة على تحرُّكات المقيمين من خلال الأوراق الرسمية التي يحملونها، فإنه من المناسب السعي إلى السيطرة، أيضاً، على تحرُّكات المواطنين، من خلال حملهم للأوراق الثبوتية الرسمية، وهذا أمر متّبع ومطلوب في جميع التحرُّكات؛ رغبة في معرفة الشخص المتحرِّك، داخل المدن والقرى أو خارجها.

لست أزعم، هنا، أنني أملك القدرة على الإحاطة بهذا

(١) نص الحديث وتخريجه.

الموضوع، فلهذا أهله ومتخصّصوه، الذين يعون الموضوع من زواياه المختلفة. وقد يقال إن التطبيق العملي لأي أسلوب من أساليب تنظيم حجّاج الداخل يعتربه العجز، بحكم طبيعة البلاد المترامية، مع الأخذ بالحُسابان الحكم الشرعي لهذا التنظيم أو ذاك، الأمر الذي نراعيه - ولله الحمد - في كل تنظيماتنا، بما فيها هذا الجانب المهمُّ لجميع المسلمين.

يكفي، هنا، أن يتمّ التوكيد على الرغبة في تنظيم حجّاج الداخل، من المقيمين والمواطنين. وأن هناك إمكانيةً لهذا التنظيم، وأنه قبل أي تنظيم لا بدّ أن يركّز على جانب التوعية، عن طريق جميع قنوات التوعية، في المساجد والمنابر والوسائل الإعلامية الأخرى، ويعلم كذلك أن الذي دعا إلى هذا الإجراء الضرورة، ليس إلا، وإلا فالأبواب مشرعة للعباد، مهما كان مقامهم. وهذا مهمٌّ حتّى لا يؤخذ من الآخرين على أنه يراد منه مقاصد أخرى، ليست في البال، ولا تتفق مع التوجيه الذي تتبنّاه القيادة في هذه البلاد.

أما وقد وصل الحجّاج، من الخارج والداخل، إلى الأراضي المقدسة لأداء مناسك الحجّ، فإنه من البدهي أن تخضع هذه الجموع الغفيرة إلى لون من ألوان التنظيم، يكفل سير الحجّاج في مشاعرهم، سيراً حسناً. وحيث إن هذه التجربة السنوية فريدة من نوعها، عندما يجتمع أكثر من مليون مسلم في مكان واحد وفي وقت واحد، فإنه من الحكمة أن يحرص المنظمون لهذه الجموع على تيسير المشترك بين الحجّاج، في ضوء ما جاءت به سنة

المصطفى ﷺ، وفي ضوء تطويع المشاعر للعصر، من حيث إمكانات التقنية في مجالات السير والنقل والسكنى والصحة والتهوية والإضاءة، وغيرها.

الشعارات:

إنه من الحكمة، في الوقت نفسه، التوكيد على عدم سوء استغلال هذا الموسم الروحاني الفريد، في سبيل بث الأفكار أو الشعارات، التي تتنافى مع روح الحجّ، مهما قيل عنها إنها من روح الحجّ، فما لم تجتمع الأمة عليه في أي نشاط، وما لم يثبت عن سلف هذه الأمة، وما لم ينزل به قرآن كريم، وما لم تأت به سنة مطهرة، مما قد يدخل في صميم الحجّ، فإنه لا يُعدُّ بالضرورة من الحجّ، بل ربّما يدخل في مفهوم البدعة التي هي ضلالة، وكل ضلالة في النار. كما أنها تعد خروجاً على الجماعة، وشذوذاً عنهم، ومن شدّد شذ في النار، هكذا دون موارد، أو مجاملة، أو مداينة.

لم يعهد الحرمان الشريفان، منذ استقرار الأوضاع في هذه البلاد الطاهرة، أن الناس قد حُرّموا في يوم من الأيام من أداء واجب، أو القيام بسنة، بل إن المسؤولين عن الحجّ والعمرة والزيادة، والمسؤولين عن الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، قد عقدوا العزم على تطهير المشاعر من البدعة والخرافة، التي لا تليق بالعقل، ولا تتماشى مع واقعية الدين، وبُعدّه عن الطلاسم والرموز، والإفراط في الروحانيات المفتعلة، ولذا نجد أنه، بفضل الله تعالى، ثم بجهود الواقعيين من القيادات العلمية

والسياسية، تخلو هذه البلاد من تلك "الطقوس" التي أدخلت في الدين، وهي ليست منها، كالأضرحة والمزارات والقبور، وغيرها.

ما ينطبق على هذه المجالات ينطبق، كذلك، على محاولات بائسة، وبائسة في الوقت نفسه، تريد أن تستغل هذه الشعيرة المباركة، في سبيل الترويج لأفكار، ليست هي موضوع إجماع المسلمين، بل إن التفكير العميق الموضوعي المتجرد فيها قد يقود صاحبها إلى التخلي عنها، نظراً لما تجلبه من الفتنة وتفريق الجماعة، وإثارة القلق في الصف الواحد. وعندنا - على أي حال - أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح. هذا إذا كان في هذه الممارسات مصالح. ولو كان فيها من المصلحة ما يتضح للقيادات لما ترددوا في تبنيها، وتشجيعها، والدعوة لها، فما عهدنا هذه القيادات تُحجم عن أي شيء فيه مصلحة لهذه الجموع المباركة.

بعيداً عن المغالطات، والخلط في الأفهام، والاجتهادات غير الصائبة، غالباً، يجدر بالقيادات السياسية والعلمية في هذه البلاد أن تستمر على موقفها الحازم في تنظيم الحجّاج في المشاعر المقدسة، وإفادتهم من الإمكانيات المتاحة لهم، وعدم السماح لأي نشاط يعكّر هذا الصفو، مما هو مدركٌ بالمشاهدة المباشرة.

إن هذا الدين، بجميع جوانبه، لا يؤخذ بالعاطفة المجردة، كما مرّ التوكيد عليه، ولا ينبني على الشعارات المستحدثة، ولا ينبغي أن يُتخذ وسيلة للهروب بالناس من وقفات عقلية، يعمل فيها الفكر عمله، فيقبل ما يتفق مع الفطرة والنصوص الشرعية،

ويرفض ما يتنافى مع الفطرة والنصوص الشرعية، هكذا وبهذه البساطة، فما جاء هذا الدين لفئة من الناس دون أخرى، ولم يقتصر فهمه على طائفة من الناس دون أخرى، وليس فيه ألغاز، ولا يخضع للسرايب والخفايا، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.^(١)

* * *

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. حديث رقم ٦٩. ورواه مسلم في كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة. حديث رقم ٧٢١.

الوقفة الثانية عشرة

الداعمون في الحج

تأمين الحجّاج مسؤولية كبيرة تقوم بها الدولة بكافة قطاعاتها، وحرى بالمرء أن يقف عند كل قطاع من قطاعات تأمين الحجّاج من الجهات الأمنية والصحية والتجارية والبلدية، وغيرها. فيحتاج المرء الوقوف وقفات عدة.

١. الجوّالة:

من هذه القطاعات التي نراها أمامنا رأي العين أولئك الشباب ذوو الزي الخاص، الذي عرفناه في أولى خطواتنا نحو التعليم النظامي، شباب الكشافة والجوّالة، المتطوّعون لخدمة ضيوف الرحمن، يقومون بجهود تذكّر، فتشكر، في تنظيم الحجّ والحجّاج. وكم رأينا شاباً من شباب الكشافة يقود حاجاً كبيراً تاه عن "ربعة"، أو مريضاً خرج من عيادة، أو واقفاً أمام محلّ تجاري يسهم في مراقبة الأسعار، وغيرهم كثير.

- منذ الثمانينات الهجرية، الستينات الميلادية، وجهود هؤلاء الشباب الرجال مشهودة في المشاعر المقدسة، حيث كانوا في ذلك الوقت لا يزيدون عن مئة (١٠٠) كشّاف وجوّال. وزاد عددهم في موسم حجّ سنة (١٤٢٦هـ) عن ألف (١٠٠٠) كشّاف

وجوَّال وقائد. وهناك إحصاءات سنوية لجهود هؤلاء الشباب في مختلف خدمات الحجّ.

- إن من خير الأعمال أعمالاً يخدم فيها الشباب/ الرجال ضيوف الرحمن، في الأماكن والمشاعر المقدسة، ضارين في ذلك المثل الحي الواقعي العملي لشباب هذا البلد الطاهر، الذين تركوا الدعة والخمول والهوان، وهبوا مع القيادة العليا، وهم على أفضل ما يكونون عليه من المودة والمحبة، يسهمون في ذلك كله في مجال تنظيم الحجّ، الذي أضحى هاجساً، لا يغيب عن أذهان المسؤولين في بلاد الخير والبركة.

٢. السفارات:

• أن فكرة تنظيم الحجّ فكرة قائمة ومتجدّدة، ولا تقف عند حدّ في الزمان، بل إن هذا الموضوع يشغل بال المسؤولين في هذه البلاد الطيبة، الذين جعلوا من خدمة حجّاج بيت الله الحرام هدفاً سامياً من أهدافهم، التي يُعنون بها. وهناك إصرار على مواصلة التنظيم، وما يقتضيه من الجهد والمال والإمكانات، سعياً إلى رضا الله تعالى، أولاً، ثم تهيئة الجو الملائم لأداءٍ يتناسب مع هذا الركن العظيم، ثانياً.

• أن هذا التنظيم يحتاج إلى تفاعل المسلمين معه، بحيث يقدرون إنما هو صادرٌ لمصلحة الجميع، وإن ظهر للبعض القليل أنه قد يؤدي إلى مشقّة، ومع النية الحسنة يزداد الثواب مع زيادة المشقّة، على أن المشقّة غير مقصودة لذاتها، ولكن قد يدعو لها ما

لا مندوحة عنه. فلا بدّ من فهم هذا من الجميع، والاستجابة له والتعاون فيه على البرّ والتقوى. وبفضل من الله تعالى يجد المتابع أن هذه الروح هي السابفة على حجّاج بيت الله الحرام.

• إن التعاون لا يقتصر على الوصول إلى المشاعر، بل إنه يبدأ مع التفكير بالحجّ، من حيث الاتصال بالسفارات وطلب التعليمات ودراساتها، والتقيّد بها، والالتزام بما فيها، لاسيّما أنها صادرة من جهة ذات خلفية شرعية، وذات خبرة طويلة في هذه الشعيرة المباركة، وهذا يعني تكثيف هذه التعليمات، وتوافرها في سفارات المملكة العربية السعودية في كل مكان، وإرسالها إلى من يطلبها. ويظلّ التنظيم في الحجّ مطلباً وهاجساً في آن واحد، وتظلّ الجهود قائمة والإصرار مستمراً.

٣. أبحاث الحجّ:

عندما ينتهي حجّاج بيت الله الحرام، وبيدأون بالعودة إلى ديارهم، يكون الوقت وقت التقويم والدراسة، والسعي إلى التطوير الذي لا يعرف الكلل، والذي أعلمه أن هناك تنظيمات للحجّ تدرس من عدة جوانب. ويبدأ تطبيقها في سنين لاحقة، قد يمرّ موسم أو موسمان أو ثلاثة وهذه التنظيمات لم تنته، من حيث دراستها.

المهم، هنا، أن التنظيم في الحجّ لا يقوم من أجل التنظيم، بل من أجل تهيئة الجوّ العام للحجّ، فمتى ما تبين، علمياً، وجود ثغرات في التنظيم أعيدت دراسته مرة أخرى. ومتى ما تبين عدم

جدوى تنظيم أُلُفي، ومتى ما ظهرت سلبيات في تنظيم تصفوق الإيجابيات أُلُفي التنظيم، ولذا قام معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحجّ من الناحية العلمية، وقامت اللجنة العليا للحجّ، من حيث دراسة الأبحاث، ومعالجة المشكلات، التي سبق أن ذكرت أن حلولها واردة في تجمّع فريد، في مكان واحد، وفي زمان واحد.

فالتنظيم إذاً تنظيم متحرّك، قابل للمراجعة، حالما ينتهي الموسم، الذي طبّق فيه، وهناك لجان تجمع الملاحظات، وهناك لجان تدرسها بعد نهاية موسم الحجّ. وتستعين هذه اللجان بجملة من الباحثين والدارسين، الذين يختلطون بالحجّاج، ويدرسون سير الحجّ ميدانياً في المشاعر، ويرصدون حركات الحجّاج من مشعر إلى آخر، وأقرب مثال على ذلك لحظة النفرة من عرفات وملاحظة المشاة وسير السيارات، ونقاط التدفّق، وغيرها مع زمن الوصول إلى مزدلفة، من حيث زمن الوصول، وما إلى ذلك.

يُذكر هذا الجانب من جهود التنظيم مشيداً بالجهود التي يقوم بها معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحجّ التابع لجامعة أم القرى بمكة المكرمة. وقد سبق لي أن وقفت على هذا المركز منذ زمن في جدة، وفيه من الباحثين والدارسين فريق من الرجال، يشعرون بالزهو والارتياح، عندما يستغلّون قدراتهم العلمية والبحثية لخدمة حجّاج بيت الله الحرام والمشاعر المقدسة، فينالون في ذلك ثواب الدنيا والآخرة.

مع دعم المركز والعناية به عناية خاصّة، يطلب منه البحث في ملحوظات ترد من الميدان، وقد يتم تكليفه بدراسات بعينها،

ويستعين على دراستها بالمختصين من العلماء والباحثين والدارسين على مستوى الأفراد، أو مستوى عمل الفريق. ولا أظن أن هذه الأفكار تغيب عن ذهن المسؤولين عن المركز، أو المسؤولين مسؤولية مباشرة عن الحجّ وشؤونه، ممثلين في الهيئة العليا ووزارة الحجّ.

٤. الجمارك:

يفد إلى هذه الأماكن المقدّسة مئات الآلاف من الحجيج، بل بدأ العدد يتخطّى المليونين، في وقت واحد، ومكان واحد، وجميع هؤلاء القادمين ليسوا على مستوى واحد من الوعي والفهم والعلم. ومنهم فئة قليلة جداً ممن يسيئون استغلال هذا الموسم المبارك، لا بالطاعة والعبادة وتحقيق الركن الخامس من أركان الإسلام، بل جاءوا ليجمعوا مالاً بطريق الحرام.

أرأيتم أبشعَ منظراً من شخص لبس لباس الإحرام، مع ما يعنيه هذا اللباس، ثم تبين أنه بلع مجموعة من "الكبسولات" المخدّرة يبيعهها في البلد الحرام، سواء أكان هذا في أشهر الحجّ، أم كان لقصد العمرة، في شهر رمضان المبارك، وغيره من شهور السنة؟ إن هذه إساءة وأيما إساءة لهذه الشعيرة المباركة، ولكنه الضعف، والشيطان الذي سؤل لهم، وزين لهم أعمالهم، وأملى لهم. ومن هذا مشاركة النساء والأطفال، الذين قد لا يكون لهم ناقة ولا جمل.

فيهبُ لهؤلاء رجال من أولئك الذين يسهمون في خدمة هذا البلد المبارك، ويوفّقهم الله تعالى في كشف هذه الأحابيل،

وإيقافها عند حدّها، وتسليمها للجهات الأمنية، التي ترى فيها رأيها، المستمدّ من شرع الله تعالى في كتابه الكريم، وسنة نبيه محمد بن عبد الله ﷺ. إن هؤلاء الرجال والنساء الذين يقفون على المنافذ والمداخل إنما هم فرسان، وأي فرسان، هم فرسان المنافذ الذين أكسبتهم التجربة حساً ثاقباً وقدرات فراسية، في تتبّع من يهربون السموم، التي لا تنفع، من قريب أو بعيد.

هؤلاء هم رجال الجمارك ونساؤه الذين يتفانون في أدائهم، يدفعهم لهذا التفاني حبُّهم لهذا الوطن، الذي يرون في حبِّهم له امتداداً لحبِّهم لهذه المقدّسات المباركة، التي يسهمون في خدمتها. وهذه وقفة إطراء وثناء لهم جميعاً في أي مكان كانوا، وشدُّ على أيديهم المباركة، ليبدلوا المزيد من الجهد، فيضخّوا ترسانة هذا البلد أمام الترويج، من أي جهة قَدِمَ. وتحية لذلك الرجل الذي يدعمهم بتشجيعه، وبتمثيلهم أمام المسؤولين، والحصول لهم على ما يستحقّونه من تقدير مدير عام مصلحة الجمارك، الذي يستحقُّ منا جميعاً الثناء والشكر، ومن ثمّ الدعاء له وإخوانه وأخواته العاملين معه في الجهاز وعلى المنافذ بالتوفيق والسداد، وأن يجعل ما يقومون به من جهد في ميزان أعمالهم، وأن يخلص لهم العمل، ويحسن لهم النية. ولنا معهم كذلك.

٥. الجوازات:

لا يملك المتابع في هذا الموسم المبارك ألاّ يذكر بالشكر لهذه الجهود الطيبة، التي يقوم بها رجال الجوازات على مداخل هذا البلد المترامي الأطراف، فهم المدخل إلى الوطن، يقدمون للقادمين

صورة عن الناس في المملكة العربية السعودية، فإن رحبوا بالحجاج واحتفوا بهم وسهّلوا لهم مهمّات الدخول، فهم أحسنوا التقديم، ليس لمرفق الجوازات في وزارة الداخلية، ولكن لهذا الشعب السعودي المسلم، الذي أضحى محطّ الأنظار من جميع المسلمين.

أي حاجٍ، ذكراً كان أم أنثى، يصل إلى حدود البلاد، برّاً أو بحراً أو جواً، إنما هو يدخل أرض المقدّسات، وهو يرى أمامه أحفاد أولئك الرجال والنساء، الذين حملوا الإسلام إلى العالم، إنهم ينظرون إلى الشعب السعودي على أنه امتداد لجيل محمّد بن عبد الله ﷺ، ففيه المهاجرون والأنصار، وفيه الفاتحون الذين نشروا الإسلام. هذه الانطباعة تضي على رجال الجوازات - أول ما يواجه الحاج - مسؤولية كبيرة هم أهل لها. وهم يدركونها، ولا بأس من تذكيرهم بها، لاسيّما أنهم يواجهون مختلف الجنسيات، ومختلف اللغات، ومختلف الطبائع، التي تتبني عليها مختلف التعاملات.

هم مطالبون بالصبر والأريحية، وإن واجهوا الإساءات من حالات فردية، تُعكّر مزاجها، بسبب السفر. والسفر، مهما كان، يظل قطعة من عذاب. وهم مطالبون بالتعامل، أيضاً، في حدود الأنظمة المرسومة التي تقتضي إجراءات متعارف عليها دولياً، مع مسحة من اللطف المطلوب، وحسن المعاملة والتعامل، وقدر كبير من التحمّل والصبر والرفق.

إن كان هذا معلوماً عند القدوم، فهو كذلك عند المغادرة، ولنلمس ذلك واضحاً من رجال الجوازات عندما نراهم يودّعون كلّ حاج وحاجة بهدية خالدة، تعبّر عن نهج هذه البلاد وتوجّهها، في

خدمة كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد بن عبد الله ﷺ، وذلك من خلال إهداء الحاجّ المغادر نسخة من كتاب الله تعالى، طُبعت في مدينة الرسول - عليه الصلاة والسلام - . هذا الإجراء يفرض الاحترام والتقدير لكل من يعملون في هذا المرفق المهمّ، بمتابعة مباشرة من رجل الجوازات المنجز.

٦. الصّحة:

في سنين قريبة سبقت هذا الموسم كانت هناك عوامل مناخية، ساعدت على وقوع حالات متعدّدة، بسبب من حرارة الجو، مما أدّى إلى سقوط بعض الحجّاج تحت وطأة ضربات الشمس، وهذا حدا بوزارة الصّحة، والجهات الأخرى، إلى تكثيف العلاج بالأجهزة والمتخصّصين، مما لم يُشهد له مثيلاً في أي مجتمع آخر. كما أدّى هذا إلى ضرورة أن يُدع أطبائنا في علاج هذه الحالات أكثر من غيرهم، لأنهم يتعاملون معها عملياً، بعد أن تعاملوا معها نظرياً.

جمعية الهلال الأحمر السعودي لها جهود في هذا الموسم المبارك تذكر فتشكر، إذ تعين في الحالات الإسعافية، وتتولّى توصيلها إلى أقرب مركز طبّي، رغم الزحام الذي تشقه سيارة الإسعاف. وهذا بحدّ ذاته جهد يبعث على الاطمئنان للمصاب. إذ إنه بمجرد كونه في سيارة إسعاف يدرك أنه - بإذن الله - تحت رعاية صحيّة، ويطمئن كذلك ذووه عندما يحمل في السيارة المخصّصة لنقل المصابين.

لسنا هنا ننكر البعثات الطبية التي ترافق حملات الحجّاج من الداخل أو الخارج، فالجميع يسهم في الوقاية قبل العلاج، ولهم من الجميع الشاء العطر، فجزاهم الله عن حجّاج بيت الله الحرام خير الجزاء، ووفقهم إلى الخير.

٧. النقل:

تتولى وزارة النقل الاهتمام بالنقل وشؤونه، على مدار السنة. وتسعى إلى تطوير وسائل المواصلات وطرقها في المشاعر. وتجري لذلك الدراسات، وتستعين بالله تعالى ثم بالمستشارين من أبناء هذا البلد الطيب، ومن زملاء آخرين متخصصين في النقل، وهو فرع من فروع علم الجغرافيا. يدرس هؤلاء الأكاديميون مسألة النقل في المشاعر، دراسة نظرية، قائمة على تجارب عملية سابقة. وكل سنة يسعون إلى الأفضل بمباركة من الوزارة، وتسهيل للمهمات، وتذليل للعقبات، وتهيئة لما يطلب تهيئته.

ثم بعد هذه الدراسات ينتقل الرجال إلى الميدان، بعد خطوات تطويرية، ثم يرقبون مرئياتهم مطبّقة، عملياً، على الواقع، فتلتقي النظرة العلمية مع التطبيق على الواقع، يسجّلون من خلالها مدى النجاح الذي يلقاه كل مشروع جديد من مشروعات النقل في الحجّ، ثم يقومون التجربة ويطوّرون ما يطرور منها، ويحذفون ما يستدعي الحذف.

أعلم أن بعضاً من الناس لا يعرفون عن هذه الجهود معرفة كافية، لأنها جهود تقوم على البعد عن الأضواء، مثلها في هذا مثل

معظم الجهود غير المرئية لكافة الناس. وهذا لا يغير كثيراً ما دامت النوايا طيبة، وما دام الإخلاص متوافراً، وهذا ما أحسبه في هؤلاء الرجال، الذين يهتمهم جميعاً رضا الله تعالى أولاً، ثم رضا ولي الأمر، الساهر على راحة ضيوف الرحمن، إذ يجد من يعينه - بعد الله تعالى - على هذه المهمة النبيلة.

٨. الإعلام والحج:

الملاحظ أنه في هذا الموسم المبارك تجنّد وزارة الثقافة والإعلام والمؤسسات الصحفية الطاقات والجهود، في سبيل إعطاء هذه المناسبة ما تستحق من التغطية الإعلامية، ومن استغلال هذه الوسائل النافذة في التوعية في الحجّ، على مختلف الصُّعد، فهناك الأحاديث الدينية التي تبيّن الأحكام في الحجّ، وهناك الفتاوى من العلماء الموثوقين، الذين أصبحت لهم كلمة في مجال العبادات والمعاملات، يبيّنون للناس ما خفي عليهم، من خلال إجاباتهم على الاستفتاءات والأسئلة التي يستفيد منها الحاج. وهناك طلبة العلم، ومن نسميهم بالمفكرين، الذين يتحدثون عن عموميات الحجّ، والحكمة منه، والمتوقّع منه موسماً مباركاً، موحّداً للمسلمين جميعاً.

إنها لجهود تذكر فتشكر، تتمّ عن قدر من الوعي والشعور بالمسؤولية، تجاه هذا الموسم، الذي تميّزت به هذه البلاد الطيبة الطاهرة، فعطّلت الوزارة مجمل برامجها، في دوراتها العادية، وركّزت على خدمة ضيوف الرحمن في المجال، الذي تجيده وتحسن فيه.

٩. الدعوة:

تسهم وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في مجالي الدعوة والإرشاد، وتستعدُّ للموسم بالخطط المرسومة، وباللجان العليا والتحضيرية والتنفيذية، وتدرس الوزارة احتياجات الموسم من الدعوة والإرشاد، فتتهيئ لذلك الدعاة من العلماء وطلبة العلم، تستقطبهم من الجامعات والجهات الإسلامية الأخرى، التي يكثر فيها الدعاة والعلماء وطلبة العلم، مثل وزارة العدل والرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء، في جانب الدعوة والإفتاء.

لا بأس من التداخل بين الدعوة والإفتاء، إذا كان فرسان الدعوة من العلماء، الذين يملكون ناصية الإفتاء. وعامة الناس قد لا يفرِّقون بين الداعية والمفتي، رغم ما يقال إنه ليس كل داعية مفتياً، وليس كل مفتي داعية، إذ إن الذين لا يريدون الربط بين هذين المجالين يقولون إن الدعوة لازمة على كل مسلم، أي أن كل مسلم داعية بحكم انتمائه للإسلام، والمصطفى ﷺ يقول: «بلغوا عني ولو آية»^(١) وعليه فإمكانية الدعوة أيسر بكثير من إمكانية الفتيا.

لا يعني هذا الاستخفاف في مجال الدعوة، إذ لا بد من العلم قبل كل شيء، ثم الأسلوب والمنهج، وإمكانية الاتصال بالناس،

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

حديث رقم ٣٢٠٢.

والصبر على مخالطتهم. ومؤهلات أخرى علمية مكتسبة وذاتية فطرية، ومع هذا فإن مجال الدعوة أوسع وأشمل من مجال الفتيا. ولا يتسنى مجال الفتيا إلا العالمون والفاقهُون، لتلا يُفتى الناسُ بغير علم، فيضلوا ويضلوا.

لذا نجد أن وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد تهتم في هذا المجال الدعوي الحيوي في موسم الحج، وتبيّن للمسلمين جميعاً حكمة هذا الموسم، والمراد به ومنه، في أداء المناسك بهدوء تام وسكينة ووقار، بعيداً عن تحويله إلى موسم شعارات ومهاترات، يسيّرُها الهوى الذي ينقله من روحانية مطلوبة إلى نشاط فكري مجوج.

* * *

الوقفه الثالثة عشرة

منفصات في الحجّ

الأصل في موسم الحجّ أنه صورة حية عملية لوحدة المسلمين، تتكرّر كل عام، منذ أن فرض الله تعالى الحجّ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ويتحمّل القائمون على خدمة الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة مسؤولية تأمين الحاجّ، منذ دخولهم الأراضي التابعة للحكم القائم على الحرمين، ولا يتكفّل القائمون على الحجّ بما هو "خارج الحدود" من مشكلات تتعلق بالزاد أو الراحة.

١. الشعارات:

من المؤلم أن تظهر في هذه المواسم المباركة بعض الحركات التي ضلّت الطريق، وأرادت تطويع هذا الموسم لمعتقدات وشعارات، لا تتماشى مع روح الحجّ. ويلجأ هؤلاء إلى التنغيص على الحاج، بفرض نمط غريب على الحاجّ والحجّ. وما علمنا بهذا في سيرة سلفنا الصالح. والمؤلم أيضاً أن الذي لا يتفق مع هذه المنهج الذي سار عليه سلف الأمة قد يفهم من ذلك بأنه فصلٌ بين الدين والسياسة. وهذا أمر غير وارد على الإطلاق، إذ إن خطيب يوم عرفات لا بدّ أن يتعرّض للجوانب السياسية التي تتعرّض لها الأمة في حينه، ويكون التوجيه عاماً داخلاً في المفهوم الإسلامي للسياسة، وليس للمفهوم الحركي الحديث للسياسة.

ليس من الحكمة فرضُ وجهة نظر، أو رأي على جميع الحجاج، فالحجاج يحجّون على ما هي عليه المناسك، ويتمسّون تحرّكاتهم من علماء الأمة. ولذا فإن محاولة بعض العناصر الشاذة إنما تبوُّ بالفشل؛ لأنه يراد لها أن تفشل. وأظنه من مسؤولية القائمين على خدمة الحرمين الشريفين التوكيد على هذا الفشل المستمرّ بصرامة، ودون مواربة، وبوضوح تام. فليس موسم الحجّ موسم تسويق للأفكار، التي يكفي فيها أنها ليست موضع اتفاق من المسلمين، الذين ضربوا أكباد الطرق من أجل تحقيق ركن من أركان الإسلام، لا من أجل الوقوف على أفكار غريبة، تستغلُّ موسم الحجّ بالشعارات والتهافتات، وما إلى ذلك، مما لا يتماشى مع السمات المراد في الحجّ. وليت هذه العناصر المزعجة تستجيب لنداءات المسلمين، في إتاحة المجال لعبادة خالصة لله تعالى، بعيدة عن أغراض الدنيا والتشفي من الآخرين.

إن من عقيدتنا نحن المسلمين البراء من المشركين بنص القرآن الكريم، ولكن هذا البراء لا يتمُّ بالقول دون الفعل. إننا نبرأ إلى الله من المشركين قولاً وفعلاً، وفي الوقت ذاته، وفي إطار هذه البراءة نستفيد منهم، فنأخذ منهم ونعطيهم، دون خدش لمفهوم البراءة.^(١) ولعل هذه العناصر المزعجة التي تبحث عن البراءة من

(١) الولاء والبراء مفهوم شرعيّ محدّد علمياً، وفيه تفصيل للعلاقة مع الآخر من هذا المنطلق، إلا أن هناك جدلاً قائماً حول استخدامه على الواقع، مما يؤثّر على معناه العلمي الشرعي، وهناك تفسيرات متشدّدة، وأخرى أكثر

المشركين تبلغهم هم في عقر دارهم أنها بريئة منهم، عندها سثبرز الوثائق التي تناقض هذا الادعاء.

إن الإسلام بريء من الشعارات، بريء من فرض الآراء الجانبية، بريء من سيطرة توجُّه على حساب توجُّهات أخرى. وتزداد البراءة إذا ما كان هذا التوجُّه المراد سيطرته على حساب التوجهات الأخرى، مما هو مشكوك في صحته وفي أصالته وفي منبعه.

إنه يحقُّ لكل حاجٍ أن يعيش هذه الأيام المباركة في المشاعر بأمن واطمئنان وسكينة، ويحقُّ للقائمين على خدمة الحجَّاج أن يسعوا جادِّين جاهدين إلى توفير الأمن والاطمئنان والسكينة. مهما كُف ذلك من جهود. وحقُّ على المسلمين جميعاً أن يضعوا أيديهم مع أيدي هؤلاء القائمين على خدمة الحجيج، فيمنعوا مثل هذه المهاترات أن يكون لها مكان في مواسم الخير والبركة، بغض النظر عن مصدرها وغاياتها ومنطلقاتها، ما دامت لا تتطرق من مسلمات المسلمين في الحجِّ وفي الحياة كلها.

٢. الأمن في الحج:

جاءت المادة الرابعة والعشرون من النظام الأساسي للحكم في

تسامحاً، وتدعو إلى التسامح في التعامل مع الآخر، لاسيما الذين ليسوا في حالة حرب مع المسلمين، وهذا ما يتبيته هذا الكتاب. انظر في مناقشة هذا المفهوم: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني. الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف. - الرياض: دار طيبة، ١٩٨٥/١٤٠٥ - ٤٧٦ ص.

المملكة العربية السعودية مؤكّدة مسؤولية الدولة العربية السعودية في الاهتمام بالحجّ والحجّاج، وجعلت هذه الشريعة - الركن الخامس من أركان الإسلام - جزءاً مهماً من أدائها تجاه العالم الإسلامي، ونصّ هذه المادة كما يأتي: «تقوم الدولة بإعمار الحرمين الشريفين وخدمتهما وتوفير الأمن والرعاية لقاصديهما بما يمكن من أداء الحجّ والعمرة والزيارة ببسر وطمأنينة».

لست بصدد الوقوف عند كل كلمة، إلا أن المقام يستدعي الوقوف عند جزئية، أو كلمة واحدة من المادة، وهي ما يتعلّق بالأمن في الحجّ، مع ما تقتضيه هذه الكلمة من إجمال في مدلولها. والأمن في الحجّ من أهم مقوّمات الحجّ، ليس في المشاعر فحسب، ولكن حتّى في الطريق إليها، وقبل أن تنصّ هذه المادة على هذه الناحية والدولة تضطلع بهذه المسؤولية، منذ أن توحدت البلاد تحت كيان المملكة العربية السعودية.

من المؤسف أن تظهر بعض الممارسات، التي تسعى إلى الإساءة إلى هذه الجهود الملموسة، وقد يتمثّل ذلك في مظاهر، أو أساليب منها:

• احترام الشحادة في هذا الموسم المبارك، ومزاحمة الناس في شعائرهم، واستدراار عطفهم، بالإعاقة والعاهة، ويأتي هؤلاء المحترفون على أنهم حجّاج.

• احترام النشل من الحجّاج، سواء النشل المباشر بالأخذ من الجيوب والحقائب والأمتعة، أم النشل غير المباشر، بسوء

استغلال الحاجِّ، وسلبه ما معه من مال، سعى إلى توفيره منذ زمن لغرض الحجِّ.

بحكم المادة المذكورة، المطبَّقة منذ مدة سبقت صياغتها في نظام، تقوم الأجهزة المعنية بحماية الحاج من كل هذا، وتتفق في سبيل ذلك الجهد والمال والوقت، وتعال من الحجَّاج المباركة والدعاء بالتوفيق والسداد، بل إن الحجَّاج عندما يرون هذا الحزم يتفاعلون معه، ويتعاونون مع الأجهزة الأمنية بما يسمح به النظام من التعاون، وهذه أريحية طيبة، ومطلوبة لأنها داخلة في مفهوم التعاون على البر والتقوى.

كل حاجِّ، يقف في هذه الأيام المباركة على الجهود المبذولة، يدرك إصرار الدولة على أن تجعل من هذه الشعيرة متعة في العبادة، تذلل لها جميع الصعاب، وتغني الحاج عن الانشغال بها، لتكريس وقته وجهده في التوجُّه إلى الله تعالى بالدعاء والعبادة. وتشعر الدولة بالسعادة وهي تقوم بذلك، لما تنتظره من الله تعالى من الثواب في الدنيا والآخرة. ولذا لم تقتصر المادة على الأمن فحسب، بل شملت المادة الرعاية لقاصدي الحرمين، من الحجَّاج والمعتمرين والزائرين.

لقد جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا، ودعا له إبراهيمُ الخليل - عليه السلام - بأن يجعله آمنًا، وأن يرزق أهله من الثمرات، هذا بعد أن أسكن من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرَّم، ولذا تأتي حرمة البيت العتيق، فلا يُصطاد فيه، ولا يُقطع زرعه وشجره، بل ولا يُقاتل فيه حتَّى يقاتل الباغي فيه،

فيناقتل. وكل هذا آتٍ من نصِّ كتاب الله تعالى، ثم سنة نبيه محمد بن عبد الله ﷺ.

من الأجهزة المهمة العاملة في هذا الموسم المبارك الأجهزة الأمنية، على اختلاف مهماتها، من المرور والدفاع المدني والأمن العام، والجهات الأمنية الأخرى. ويستعرض سمو وزير الداخلية الأمير نايف بن عبدالعزيز جاهزية هذه الجهات، قبل يوم التروية بأيام، إشارة إلى استعدادها لبسط الأمن والأمان على كل حاجٍ وحاجة، أتيا من كل فج عميق، ليشهدا منافع لهما، ويذكرا اسم الله في أيام معلومات. وتشعر هذه الدولة الموقفة بمسؤوليتها تجاه حجّاج بيت الله الحرام في كل المجالات، بما فيها تيسير الأمن، بحيث يخرج الحاج بين المناسك وهو لا يخاف إلا خوفه الإيماني من الله تعالى، الذي هو جزء من توحيد الله تعالى بالعبادة.

عندما تعلن سلفاً عن عدم جواز نقل المنشورات من كتب وصور ونشرات وأشرطة، ونحوها، مما يراد منه تعكير صفو الحجّ والحجّاج، وتبدي وزارة الداخلية استعدادها التام للتصدّي لذلك، دون مواربة ولا تقاعس، وأن حاجاً واحداً من حجّاج بيت الله هو مسؤولية الوزارة، وأجهزتها العاملة في المشاعر. وهذا موسمٌ من نوى فيه الحجّ فهو مطالب بالابتعاد عن الرفث والفسوق والجدال، بنصّ القرآن الكريم: ﴿الْحُجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحُجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ ۗ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۗ وَاتَّقُوا يَتَأْتِيهِ الْآلَبُ ۗ﴾ (البقرة ١٩٧).

بعد أن يبين العلماء والفقهاء والدعاة مقاصد الحجّ، تأتي قوّة السلطان في فرض جوٍّ آمن للجميع. وتأبى هذه البلاد، منذ توحيدها، على أن يكون الحجّ أيّ موسم غير موسم العبادة، كما تصرّ على القضاء على كل شائبة تشوب أداء المناسك.

إن الإنسان ليفخر، حقاً، عندما يجد رجال الأمن يقفون في كل مكان، يطمئنون على السير السمع للحجّ، ويسعون إلى إزالة أي عقبة، قد تعيق مسيرة الحجّاج. وأزعم أنهم يشعرون بالفخر والاعتزاز، عندما يخدمون ضيوف الرحمن، في مجال اختصاصهم ومسؤولياتهم. بل إن المواطن ليفخر عندما يرى شباب كلية الملك فهد الأمنية، وهم لا يزالون في طور الإعداد، ينزلون إلى الميدان في المشاعر، فتكون أولى ممارساتهم العملية خدمة حجّاج بيت الله الحرام.

إن المواطن ليفخر عندما يشعر أنه هو، شخصياً، رجل من رجال الأمن، لاسيّما الحجّاج من المواطنين، الذين يفارون على هذه الشعيرة، ويدركون كل ما ينفق على هذا من جهود وإمكانات واستعدادات. ولست بهذا استبعد المرأة من هذا، فهي في مجالها، أيضاً، تسهم في هذه المسيرة المباركة بين أترابها وأخواتها الحاجات، وتشعرهن أنها تهتم بالأمن كما يهتم غيرها.

٣. رعاية الدولة:

الرعاية لفتة طيبة جاءت في نظام ملزم للدولة من الدولة نفسها، أي أن الدولة ألزمت نفسها برعاية عباد الله تعالى في

الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة الأخرى. وفي هذا تطمين لهؤلاء العباد على أنهم موضع الاهتمام والعناية. وهذه نعمة من الله تعالى تستحق شكرها، ثم شكر من سخرهم الله تعالى، وسخر لهم خدمة الحرمين الشريفين.

عندما ينصُّ نظام الدولة، أو النظام الأساسي للحكم، على رعاية الحجَّاج والمعتمرين والزائرين، فإن هذا يعني، ضمناً، أن هذه المسؤولية مناهةً بهذه الدولة فقط، بل إن هذه الدولة ستعمل على القيام بهذه المهمة، دون الحاجة إلى أي مساندة من أي جهة، وهي، ولله الحمد، قادرة على ذلك، مصممةً عليه، مذلةً له كل الصعاب الماديَّة والمعنوية. وتستمرُّ في دراسة هذا الموسم على مدار العام، لتقديم خدمة أفضل، بعد الاستفادة من الملاحظات التي تتلقاها من العاملين، ميدانياً، على خدمة حجَّاج بيت الله الحرام وزائري المسجد النبوي الشريف، وذلك من خلال معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحجِّ بجامعة أمِّ القرى بمكة المكرمة. وهذا واضح ملموس من خلال هذه الجهود الواضحة للعيان، مما يجعل الحاجَّ والمعتمر والزائر في حلٍّ من التزامات كثيرة جداً قد يتوقَّعها عندما يؤمُّ المشاعر المقدسة، بل إن الخدمات تخطَّت الضروريات إلى الكماليات.

٤. تعاون الحجَّاج:

يبقى التعاون من الحجَّاج والمعتمرين والزائرين أنفسهم في الانصراف إلى العبادة، واستغلال قدسية الزمان والمكان، والابتعاد عن الفسوق والجدال في الحجِّ. فاليسر والطمأنينة هو

هدف تسعى إليه الدولة، وتلزم نفسها، نظاماً، بالوصول إلى هذا الهدف، مستعينة بالله تعالى، ثم بجهود أبنائها العاملين في شتى المجالات، التي لا يتسع المقام لذكرها هنا، ثم هي تلزم نفسها بالحيولة دون أي عامل من العوامل الخارجية، التي تحول دون تحقيق هذا الهدف، أو تُعكّر صفو الحجّ والمناسك فيه.

حريٌّ بالحجّاج والمعتمرين والزائرين أن يقدرُوا هذه الجهود، وأن يباركوها، بالدعاء للقائمين على خدمة الحرمين الشريفين، بالتوفيق والسداد، والمزيد من الإنجاز في المشروعات والخدمات، والسعي إلى استمرار التطوير في شتى مناحيه المادية والمعنوية، المتمثلة في تكثيف حملات التوعية أثناء الحجّ، بحيث يجد الحاجُّ الأمان في الأداء، عندما يجد من يجيب على أسئلته وإشكالاته، من خلال وجود ثلّة من العلماء وطلبة العلم العاملين بالحجّ، من ذوي الاختصاص والقدرة على الفتوى.

٥. تعمدُ الإعاقَة:

من ضمن المرتادين للمشاعر المقدّسة أولئك المعوقون الذين يريدون أن يحظوا بالوقوف بين يدي الله تعالى، مستغلين فضل الزمان والمكان، والتركيز هنا على المعوقين إعاقات جسدية، لاسيّما أولئك الذين فقدوا نعمة المشي، فاستعانوا بالله وصبروا واحتسبوا، ثم استخدموا الأجهزة المساعدة من كراسي درّاجة أو عكّازات أو غيرها. ومنهم من جاء للصلاة في الحرم، صلاة الفروض والقيام، وهؤلاء أمرهم أيسر من أولئك الذين جاءوا

للطواف والسعي، ناوين عمرة في شهر تعدل فيه العمرة حجة مع الرسول الحبيب محمد بن عبد الله ﷺ.

بين مليونين ومئتي ألف من مرتادي المسجد الحرام تصعب الحركة على القادرين على المشي، فما بالك بأولئك الذين لا يقدرون عليه، ومع هذا فهم في رغبة ملحة للتمتع بهذه العبادة مع سائر الناس.

قد ظهرت الصحف بخبر مفاده القبض على موظف في بلد إسلامي يمنح تأشيرات عمرة للشحاذين، فلا يأتون على ما يظهر للعبادة وأداء العمرة، بل يأتون ليتكفّفوا أيدي الناس. وهذا يعني الحرص على أي شكل من أشكال الإعاقة، قصدًا إلى استدرار عطف الناس، ولو أدّى الأمر إلى تعمّد الإعاقة الدائمة، وليس المفتعلة، والعياذ بالله. ويعلم هؤلاء سلفًا أن أهل هذا البلد الطيب يحبون الخير، فينفقون رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً. ويأمل الشحاذ من هؤلاء أن يجمع حصيلة سنة كاملة، إن لم يزد على ذلك.

في سبيل ذلك يتعمّد هذا الشخص التخلف من شهر رمضان المبارك إلى الحجّ، رغم أن تأشيرته إنما أعطيت له نظاماً للعمرة فقط، ذلك ليتيح المعتمر المجال للآخرين، من الخارج والداخل، لكن هذه الفئة تراحم الناس، وتدور بينهم، كاشفة عن مواطن الإعاقة، عارضة إياها على الصغير والكبير. ويعيشون حول الحرم مدة طويلة، وهم ليسوا بحاجة إلى العيش بهذا الأسلوب، الذي لا

يعطي صورة مشرّفة عن المسلم، وهي كذلك أسلوب لا يتماشى مع ما وصلت إليه هذه البقعة المباركة من عناية ورعاية وتنظيم.

سيظل هناك محتاجون يسألون الناس، ومحتاجون لا يسألون الناس إلحافاً، وهؤلاء هم الذين ينفع بهم ومعهم فعل الخير، ذلك أنهم وصلوا إلى مرحلة عجز لم يكن لهم فيه يد، إلا أن الأمر يختلط على الناس، فلا يدري المنفق من يعطي، ولا يعرف الباذل الصادق من الكاذب. والباذلون مطالبون بتحري الصواب، حتّى لا يعينوا محتالاً على احتياله، وحتّى لا تضيع نفقاتهم في أيدي من لا يستحقونها.

مع الجهود المبذولة للقضاء على هذه المشكلة من قبل الجهات المعنية، إلا أنها ستظل مشكلة ترتبط بعدة جهات خارجية وداخلية. وستظل مشكلة تعكس مدى الوعي الذي ينقص كثيراً من ضعاف النفوس، الذين يتاجرون بإعاقة الآخرين، في سبيل الحصول على مال لا يستحقونه، بل إنهم يجربونه عن مستحقه، لاسيّما إذا علمنا أن هناك تنظيمًا لهذا الأسلوب غير الحضاري، وهناك من يتعمد صنع الإعاقة وتشويه البشر، قصداً إلى توجيههم إلى حيث يكثر أهل الخير من المسلمين، وكثير من الناس يبذل وهو يقول: ليس لي إلا الظاهر، لما يعيشه من حيرة بين الرغبة في فعل الخير والشفقة على هذا المعوق، وبين ذلك الشعور الذي يرنُّ في مخيلته أنه أمام محتال ليس له إلا الطرد من هذا المكان المبارك.

الباذل يكون جهة من تلك الجهات التي ستسهم في التغلّب على هذه المشكلة، إذا اجتهد في تحري الصواب، قبل إن يمدّ يده

العليا لتلك اليد التي ربّما كانت أكثر منه ثراءً، ولكن بطريق غير مشروع. والناس أيضاً يشفقون على الشحاذ المحتال، ولا يرونه محتالاً؛ لأنهم لا يريدون أن يصدقوا أنه محتال، ولذلك تراهم يقفون إلى جانبه، إذا حاول أحد المعنيين منعه من مزاوله هذه المهنة.

إن هذه الفئة من متعمّدي الإعاقة يضيقون على الناس، وهم لا يحرصون على العبادة أكثر من حرصهم على جني الأموال، فحري بالناس ألا يعينونهم على جني هذا النوع من الأموال.

٦. التخلف في الحجّ:

المملكة العربية السعودية بلد مفتوح على العالم الإسلامي، يستقبل سنوياً الملايين من المسلمين، معتمرين وحجاجاً وزواراً لمسجد المصطفى محمد بن عبد الله ﷺ، وتجد هذه البلاد لزاماً عليها تسهيل ذلك وتيسيره على الجميع. وهي تعدُّ هذا واجباً من واجباتها الدينية تجاه المسلمين، ذلك أنها دولة مؤتمنة على هذه الأماكن المقدسة. وهي دولة حديثة متطورة محدودة الإمكانيات، مهما كانت إمكاناتها، ولذا فإنها، وهي ترحّب بالضيوف، تسألهم دائماً أن يعودوا من حيث أتوا، بعد أن يتّموا حجّهم أو عمرتهم أو زيارتهم، ولا تسمح لهم الأنظمة بالبقاء أكثر من المدّة، التي أعطوا إياها لهذه الأغراض النبيلة.

الذي يحصل أن أناساً من المسلمين يجدون فرصاً في هذه البلاد، لا يجدونها في بلادهم، فتراهم يبقون كثيراً بصورة غير نظامية، ولأنهم باقون بصورة غير نظامية تراهم يقبلون أي عمل

وبأي أجر، مما يؤثر في النوعية، وفي الجودة، وفي حق الآخرين الموجودين نظاماً في العمل؛ لأنهم جاءوا للعمل.

هنا نجد أنفسنا، نحن المواطنين، ملزمين بالتعاون مع الدولة في الحد من هذه الظاهرة، التي لا تقتصر آثارها على سوق العمل، بل قد يؤدي وجود هذه الفئة إلى أعباء أمنية واجتماعية تضر بنا، وتسيء إلينا محلياً وإقليمياً ودولياً. كما أنها تزاحم بوجودها المواطن الذي يسعى إلى وجود عمل تجاري أو صناعي يرتزق من ورائه، وعليه فإنه بتعاوننا مع الدولة في تفهم هذا الأمر ندفع هؤلاء إلى مغادرة البلاد، طوعاً قبل إن يُدفعوا إلى مغادرتها كرهاً، ونتفهم في الوقت نفسه الإجراءات التي تُتخذ لترحيل المتخلفين عن البلاد، ولا تتعاطف معهم بأي حجة من الحجج، لأنهم، برحيلهم، يُتيحون لنا أن نرتب أنفسنا من الداخل، بحيث نستطيع الوصول إليهم، وهم في ديارهم بما نحمل من مشروعات استثمارية أو خيرية أو نحوها.

نحن حريصون على أن نتفهم هذا التوفيق العجيب بين الترحيب بالضيوف، ثم توديعهم بالحفاوة والتكريم، مع التوكيد على عدم بقائهم مدة أكثر من المدة النظامية المعطاة لهم. هذه النظامية التي فرضت هذا الإجراء الذي يسعى إلى تحقيق المصلحة العامة، ولو كانت على حساب مصالح شخصية فردية، والمواطن مطالب بالتعاون التام مع هذه الإجراءات، بحيث يصبح رجلاً من رجال الأمن الساهرين على استقرار هذا المجتمع الطيب.

لأن هؤلاء يجدون فرصَ العمل يتخلفون، ولأنهم يجدون من يؤويهم من المواطنين وغير المواطنين يبقون في البلاد، ومن غير المواطنين من يجرؤ على إيواء المتخلفين، وقد يكون هؤلاء أنفسهم من المتخلفين.

لابدَّ من النظر في مشروعية البقاء بعد أداء النسك أو الزيارة، وهل يجيز المرء لنفسه البقاء في بلد لا تسمح ظروفها في بقائه أكثر مما يتوقَّع منه البقاء، وكيف يجيز لنفسه هذا وهو لا يجوز له، لاسيَّما أنه جاء من أجل العبادة والطاعة، ويدعو الله تعالى أن يقبل منه عمرته أو حجَّه وصلاته في مسجد رسول الله ﷺ وزيارته له - عليه الصلاة والسلام - . والأصل أن ينظر للوافد لهذا الغرض أنه إنما جاء من أجله، ونستبعد موضوعياً أنه جاء للعمل بتأشيرة حجّ أو عمرة أو زيارة، ذلك أنه يختم على جوازه بعدم السماح له بالعمل داخل البلاد، بأجر أو بغير أجر. أما من يريد العمل فإنه يجد من الإجراءات ما يخوِّله للعمل، أو المجيء للعمل، وينطبق عليه ما ينطبق على القادمين للعمل.

عليه، فإن التخلف لقصد العمل فعل غير مشروع، وربما كان هناك نظر في مكاسب التخلف المادية، من حيث مشروعيتها كذلك، ولذا نجد أن الدولة تلجأ إلى مطالبة الحجّاج والمعتمرين والزوار بمغادرة البلاد، حالما تنتهي المدَّة المعطاة لهم لذلك، ذلك أن المسألة قد خرجت عن مجرد البحث عن عمل، فأصبح التخلف يقود إلى مشكلات أمنية واجتماعية واقتصادية، تريباً هذه البلاد أن تواجهها، كما تريباً هذه البلاد أن يواجهها المتخلف نفسه، وإن رضي

بذلك، فالبلاد تتوحَّى المصلحة العامة، وتقدِّمها على المصالح الفردية. ونطالب نحن المواطنين بالوقوف ضد هذه الظاهرة.

قد يكون عنوان هذه الوقفة قاسياً، لاسيَّما أن المرحلة، الآن، هي مرحلة إقناع المتخلفين بالرحيل ودِّياً، بعيداً عن تطبيق النظام عليهم، بترحيلهم قسراً. والذي تتمنى هذه الوقفة بيانه أن هذا الأسلوب الهادئ في الدعوة إلى مغادرة البلاد قد كانت له آثاره الإيجابية حتَّى الآن، وأسمع شكراً للمتخلفين على تلبيتهم لهذه الدعوة، وعدم اللجوء إلى ما هو ممكن ومحتمل من استخدام الأحقية في ترحيل المتخلفين.

أسهم الإعلام، بأشكاله، في كشف هذا الوضع وبيان البرنامج الذي تتبعه الجهة الأمنية المعنية، الجوازات، في معالجة هذا الوضع، كما كشفت الصحف عن ممارسات عجيبة لهذه الفئة من الناس التي بحثت عن الرزق، بل الكسب السريع، على حساب النظام، وعلى حساب الصحة، وعلى حساب النظافة، وعلى حساب البيئة، وعلى حساب المنتجات الموثوقة من مأكول وملبوس، وغير ذلك من السلع الاستهلاكية.

إننا في هذا الإجراء الموقَّع نصطاد جملة من العصافير، بحجر واحد، ويكفي في الصيد أن تنظَّف البلاد من هذه الأساليب البدائية، في إنتاج الأغذية والألبسة، ثم بعد ذلك فتح المجال أمام أبناء هذا الوطن في الإسهام في تنمية البلاد، من خلال عملهم المباشر في مجالات كان يشكو أنه لا يستطيع العمل بها، بسبب وجود العامل الوافد، المتخلف أو المتسَّتر عليه. ثم بعد ذلك الحدُّ من

نزيف الحوالات المالية، التي بلغت أرقاماً عالية، كادت تصل إلى سبعين مليار ريال سنوياً، وبالتالي توفير نسبة عالية من هذا المال لاستخدامه في الداخل، ويعني هذا ازدهار الحركة الاقتصادية بشكل أكثر فاعلية، وإيجاد فرص عمل أكثر للشباب من المواطنين... وهكذا، فالإيجابيات من وراء هذا الإجراء كثيرة، لا تنسى منها الإيجابية الأمنية التي ستتحقق - بإذن الله تعالى - من خلال الاستقرار الذي كادت هذه الفئة من هؤلاء المتخلفين والمتسئّر عليهم أن تسهم في هزّه والإخلال فيه. والإيجابيات تراكمية، يتولد بعضها من بعضها الآخر، وكل إيجابية واحدة يتولد عنها مجموعة من الإيجابيات.

إن من حق الدولة أن تتخذ أي إجراء يحفظ لها أمنها، ويوفر عليها اقتصادها، ويحمي لها مواطنيها، ذوي الأحقية في العمل، وفي الاستثمار في مجالات واسعة من مجالات الاستثمار. والدولة في وعيها لهذا الحق تعي كذلك أنها تتعامل مع بشر في بلاد كثيرة الفرض. جاء هؤلاء لجمع المال، وحدّهم على ذلك ضعف توافر فرص العمل في مجتمعاتهم، ولم يأت قسم كبير منهم لما آل إليه حاله من تخلف وتسئّر، ولكنه لجأ إلى ذلك عندما لحظ أن الكسب من ذلك أكثر بكثير من العمل النظامي، ومع هذا كله فإن الدولة تحفظ لهذا الشخص كرامته، وتحترم فيه إنسانيته، فتبتعد عن الإهانة وعن الإيذاء المادي والمعنوي، مهما كانت الحال.

ليس هناك مبرر في خوف المقيمين نظاماً في هذه البلاد، إذا لم يكن هناك مبرر من خوف المقيمين إقامات غير نظامية، أكثر

من خوفهم من الترحيل المبرر، الذي هو حقٌ للدولة، لا يعارضها عليه قريب أو بعيد.

أما المقيم إقامة نظامية، الذي يعمل في المجال الذي جاء من أجله، فهو ضيف علينا عزيز، له منا التكريم والتقدير، ما تماشى مع السمات العام، الذي تسير عليه هذه البلاد. ولن ينال منا جميعاً، حكومة ومواطنين إلا ما يستحقه من احترام، لأنه جاء ليسهم معنا في تنمية بلادنا، مع عدم نسيانه ما يناله مقابل هذا الإسهام، وهو حقٌ له ندعو الله تعالى أن يبارك له فيه. وهذا يؤكد - كذلك - أن نظرتنا إيجابية لهذا الوافد النظامي، سوف تتسّخ، كذلك، عندما نتخلص من أولئك الذين أساءوا إلى وجودهم في هذه البلاد، ثم أساءوا إلى جميع فئة الوافدين، الأمر الذي لم يكن طبيعياً، عندما بدأنا في استقبال الوافدين.

لقد مضى زمان الطيبة الزائدة، كما مضى كذلك زمان التخلف والتسُّر والتسيب، وجميع الأساليب التي تسيء إلينا نحن المواطنين، كما تسيء إلى الدولة. وجاء زمان النظام وتطبيقه والتنظيم وتطويره. ولا التفتات هنا إلى أولئك المنتفعين من ضعاف النفوس، الذين اتَّخذوا من هذه الأساليب غير الشرعية وسيلة للكسب، وأجزم أن هؤلاء من أول من يستجيب على المدى البعيد، وبالتالي فإنهم يشعرون بأن ما يقومون به عمل غير طبيعي وغير نظامي، هو، كذلك، غير أخلاقي، ومعنى هذا أنه عمل غير شرعي. وليس منا من يصرُّ على المعصية، مهما جلبت من فوائد مادية، من منظور قريب قاصر.

إننا نتعامل اليوم مع هذه المشكلة تعاملاً حضارياً، يترجم مدى الوعي الذي وصل إليه الجهاز المنفذ لهذه الحملة، وبالتالي يترجم الوعي العام الذي يتعامل من خلاله مع هذه المشكلات. وليس بيننا وبين المتخلفين المتسئرين والمتسئرين عليهم والمتسيئين مشكلات شخصية فردية، بل هي حملة "تطهير" لأساليب غير نظامية، رأت الدولة، حكومة ومواطنين، ضرورة التخلص منها بالحسنى، أولاً، وبمهلة معقولة جداً، ثم بعد ذلك بقوة السلطان، المطلوبة على أولئك الذين لم يقابلوا الحسنى بمثلاً، وستوجد فئة منهم تستمر في هذا الوضع، وتحتال فيه، وهؤلاء لهم أسلوب خاص في التعامل معهم نظاماً.

الفصل الخامس السعوديون والأمن

الوقفه الأولى

الأمن التربوي

الأمن بالمعنى الأعم للمصطلح يعني عدّة تعريفات للأمن، فهناك الأمن الذاتي النفسي، والأمن الاجتماعي، والأمن الغذائي، والأمن الثقافي، والأمن الفكري، والأمن التربوي، والأمن الوظيفي، وغيرها من التعريفات التي تحقّق حاجات الإنسان في حياته وبعد مماته، تلك الحاجات التي كفلتها الأديان للإنسان، وسمّيناها بالضرورات، وقد وصلت إلى خمس ضرورات هي: النفس والمال والحياة والعرض والدين.

يتحدّث مازلو عن هذه الحاجات، جاعلاً إياها على شكل هرمي، تبدأ قاعدته من الحاجات البدنية الأساسية "الفسولوجية"، كالشبع من الجوع والروي من العطش، ثم الحاجة إلى الأمن ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش ٤)، فالحاجة إلى الحب والانتماء، ثم الحاجة إلى الاحترام، ثم الحاجات المعرفية والحاجات الجمالية إلى أن يصل إلى قمة الهرم في الحاجة إلى تحقيق الذات. وقد خاض علماء المسلمين، كالغزالي، في هذه الحاجات، مع اختلاف في الترتيب. ولم يخلُ أي مجتمع من السعي إلى تحقيق الحاجات الضرورية، إلا أن مفهوم الضرورية يختلف من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، ومن بيئة إلى أخرى.

لم يكن مجتمعنا المعاصر بدعاً من هذه المجتمعات. وهو، وإن كان امتداداً للمجتمع المسلم، الذي قام على فهم دقيق للحاجات أو الضرورات، إلا أنه من المهم التوكيد على أنه مرّ على هذا المجتمع حين من الدهر فشا فيه الجهل، واختلطت فيه الضرورات، بل إن الضرورات نفسها (من داخلها) أصابها خلل أضر على النظرة إلى الأوليات، ومع هذا لم تغفل ضرورات متفق عليها، ولم يؤثر بها الجهل، مثل الحاجة إلى الحياة، وحفظ العرض والمال، وتخلل الدين شيء من الخلط، وكذا الحاجات الأخرى التي تحدت عنها مازلو، وجاءت مرتفعة في الهرم كالحب، والانتماء، والاحترام، والحاجات المعرفية، والحاجات الجمالية، وتحقيق الذات. وهي وإن كانت في الأصل موجودة؛ لأنها فطرية، إلا أن وسائل تحقيقها لم تكن بالضرورة تلك الوسائل الفاعلة.

في عصرنا الحاضر - عصر القرية المعلوماتية - تعقدت الاحتياجات، وتشعبت، وتداخلت. ومع هذا بقيت قائمة لم يتنازل عنها، بالرغم من الدعوات إلى الاستغناء عن بعضها، كالحاجة إلى الدين، أو الانتماء الاجتماعي القائم على المعتقد. وفي سبيل ذلك تطوّرت النظرة إلى وسائل تحقيق الحاجات، ومنها الضرورة العقلية التي تنمى بالمعرفة (العلم والتربية)، فبعد أن كان الأمر مقصوراً على حلقات في المسجد أو البيت أو الكُتاب، قامت مؤسسات معرفية، علمية وتعليمية تربية شامخة، وظهرت مصطلحات أضحى ووقفاً على التخصصات، لها مدلولاتها الإجرائية التي تختلف عن مدلولاتها اللغوية الأصلية. وتوزّع التعليم والتربية

والمعرفة على مراحل وأنواع، فظهرت عندنا المراحل الثلاث في التعليم العام، وقبله مراحل تربوية، وليست بالضرورة تعليمية، كالحضانة والروضة والتمهيدي، ثم المراحل العليا، هذا بالإضافة إلى المؤسسات العلمية الثقافية المتنوعة، من مكاتب ومراكز معلومات ومراكز بحوث.

ثم ظهرت التخصصات العلمية، ومن داخل التخصصات دخلت تخصصات فرعية ضمن التخصص العام، ويمكن أن نأخذ تخصص التربية مثلاً لذلك، فهو تخصص عام، وداخله تخصصات فرعية، كالمناهج، وطرق التدريس، والإدارة المدرسية، والتخطيط، والتعليم العالي، وأصول التربية. ومن التداخل، أيضاً، علم النفس التربوي، الذي يتنازعه تخصصان هما التربية وعلم الاجتماع، وغيرها من التخصصات الفرعية للتخصص العام، ولا شك أن هذه التخصصات الفرعية قد تضرعت هي بدورها إلى تخصصات فرعية أصغر، وهكذا.

أضحت التربية همماً من هموم الأمم، تخصص لها الأموال والطاقات والجهود، وظهرت لها النظريات، ونشرت الأدبيات، وأنشئت لها مراكز المعلومات التربوية، وقواعد البيانات، هذا بالإضافة إلى المؤسسات الإدارية، مثل وزارات التربية والتعليم، والمتخصصة بفتة من أبناء المجتمع عندنا كالمعوقين. والمؤسسات التربوية التجارية، التي تهدف إلى الربح من وراء التربية، ولكنها لا تغفل الأسس والمثل والمبادئ التي يطلب منها خدمتها، وغيرها من المؤسسات التربوية والتعليمية والعلمية.

والحق أن التربية همُّ، وهمُّ كبير، كيف لا وهي الصناعة التي تصوغ الطاقات البشرية، التي تبني المجتمعات أو تهدمها، بحسب ما تنشأ عليه، وما تُعطاه من جرعات تربوية تعليمية علمية تقنية، يستوي في ذلك الأبناء والبنات، الرجال والنساء. والمؤسسات التربوية هي المصانع التي تفرز مخرجات تنفع المجتمع وترقى به، أو تضره وتهوي به إلى الورا.

* * *

الوقفه الثانية

خصوصية التربية:

نحن نؤمن أن لكل بيئة ما يناسبها من أنماط التربية، ويحدّد هذه الأنماط الخلفية الثقافية التي تتبنّاها الأمة وتطلق منها، وبالتالي فإن ما يصلح لبيئة ثقافية ما قد لا يصلح، بالضرورة، لبيئة ثقافية أخرى. ومن هنا ظهرت الرغبة في التميّز تربويًا، تبعًا للرغبة في التميّز ثقافيًا. ومن هنا فإنه ليس محتمًا على بيئة ثقافية أن "تستورد" نمطًا تربويًا من بيئة أخرى، مهما ظهر في تلك البيئة من تفوق تربوي، انعكس على التفوق العلمي والتقني والحضاري.

لا توحي هذه الفكرة برفض المعطيات التربوية النابعة من ثقافات أخرى، لمجرّد أنها نبعت من تلك الثقافات، فإن في هذا انفلاقًا على الذات، في وقت لا يمكن فيه الانفلاق، وإنما تعرض المعطيات التربوية الأخرى على المعطيات الثقافية التي تنتمي إليها، وما لم يخالفها ويتعارض معها نستفيد منه ونرحّب به، وما خالفها أو عارضها نبحت عن بديل آخر له من بيئتنا، وهذا هو الأصل والمنطلق، أو من بيئة تربوية أخرى... وهكذا.

مقومات التربية:

من هنا تأتي فكرة التميّز في التربية، المبنية على التميّز في المنطلقات القائمة على الدين الإسلامي، الذي يمكن أن نجد فيه

المقومات، وإن لم يتعرّض للأساليب، إذ إن «الإسلام هو الأساس الفكري السليم لدراسة العلوم والمعارف المختلفة، وينبغي العمل على ترغيب (الطلبة و) الطالبات في الاطلاع على ذخائر الفكر الإسلامي وتراث السلف ومنجزاتهم الحضارية، والتعرّف على هذا التراث والعمل على نشره ومتابعة البناء عليه والإضافة المنهجية إليه»، كما تشير الإدارة العامة للمناهج والبحوث والكتب، شعبة المناهج والبحوث، بالرئاسة العامة لتعليم البنات (سابقاً).

يدخل في مفهوم التميّز مفهوم الخصوصية التي تتّضح في هذه البلاد، فهي تكاد تكون الدولة الوحيدة في العالم الحديث التي تدين بدين واحد، تطبّقه في جميع مناحي الحياة، وتؤكّد عليه على جميع الصُّعد، ومواطنوها مسلمون، ونظامها الأساسي يقوم على الإسلام، وتنصُّ المادة السابعة من النظام الأساسي للحكم أن: «الحكم في المملكة العربية السعودية يستمدُّ سلطته من كتاب الله تعالى وسنة رسوله، وهما الحاكمان على هذا النظام وجميع أنظمة الدولة»، وتنصُّ المادة التاسعة من النظام نفسه على أن: «الأسرة هي نواة المجتمع السعودي، ويربّي أفرادها على أساس العقيدة الإسلامية، وما تقتضيه من الولاء والطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر، واحترام النظام وتنفيذه، وحب الوطن والاعتزاز به وبتاريخه المجيد».

أما في مجالات التربية والتعليم فقد نصّت المادة الثالثة عشرة من النظام أن: التعليم يهدف «إلى غرس العقيدة الإسلامية في نفوس النشء، وإكسابهم المعارف والمهارات، وتهيئتهم ليكونوا أعضاء نافعين في بناء مجتمعهم، محبّين لوطنهم معتزّين بتاريخه»، وتنصُّ المادة

الثلاثون من النظام نفسه أن الدولة: «توفّر التعليم العام وتلتزم بمكافحة الأمية»، وهذه المواد وغيرها من المؤشرات القوية ملزمة للدولة على تحقيق الأمن التربوي، من حيث كونه جزءاً من تحقيق الأمن، بمفهومه الشامل، الذي لم يفضله النظام الأساسي للحكم، فجاء مبنوياً في أكثر من مادة، وصريحاً في المادة السادسة والثلاثين.^(١)

الاختلاط في التربية:

لعلّ من خصوصيات هذا المجتمع توكيده على عدم الاختلاط في التربية والتعليم بين الذكور والإناث، الأمر الذي يواجهه اليوم جدلاً على مستويات مختلفة. وقد نصّت المادة التاسعة من النظام على «تقرير حق الفتاة في التعليم بما يلائم فطرتها، ويعدّها لمهمتها في الحياة، على أن يتمّ هذا بحشمة ووقار، وفي ضوء شريعة الإسلام، فإن النساء شقائق الرجال».

كما كتب الكثير عن هذه المسألة كتابات تطالب بالالتفات عن الاختلاط، والعودة إلى التعليم المنفصل على مختلف مستويات التعليم. وقد عالج أنيس أحمد شيئاً من هذه الفكرة في الكتاب الذي نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية بعنوان: النساء المسلمات والتعليم العالي: من أجل إقامة مؤسسات

(١) نص المادة السادسة والثلاثين كما يأتي: «توفّر الدولة الأمن لجميع مواطنيها والمقيمين على إقليمها. ولا يجوز تقييد تصرفات أحد أو توقيفه، أو حبسه، إلا بموجب أحكام النظام».

منفصلة للنساء، وقد قدّم له الأستاذ الدكتور محمد بن أحمد الرشيد بمقدّمة جاء منها «تعدّدت النظرة إلى المرأة، وتباينت من مجتمع إلى آخر ومن عصر إلى عصر، فمنهم من حبسها إيماناً بأنها لا تستحق إلا القمقم، ومنهم من وأدها إيماناً بأنها لا تستحق الحياة، ولا تجلب إلا العار، ومنهم من أطلق لها العنان، فوجدت في غير مكانتها التي تليق بها ووظيفتها التي خلقت من أجلها، والناس في هذا ينسون أنها الأم والأخت والزوجة والابنة»^(١).

لا تعني الدعوة إلى التركيز على التميّز والخصوصية أننا نفعل إنجازات الآخر، فلا نستفيد منها، بل إن من مفهومات التميّز الانفتاح على الآخر. أليست الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحقّ بها؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا نردّد هذه العبارة ثم نرفض، في الوقت نفسه، إنجازات تعيننا على شق الطريق في مسارنا المتميّز. الذي نقوم به عند الإفادة من الآخر، في أفكارهم ومناهجهم وطرقهم في التربية وغيرها، إننا نعد إلى تطويع هذه كلها لمنهجنا وطريقتنا في التربية والتعليم والجوانب الاجتماعية والنفسية، وجميع مناحي الحياة. والمنهج لا يُصنع من فراغ.^(٢)

(١) أنيس أحمد. النساء المسلمات والتعليم العالي / تقديم محمد الأحمد الرشيد.

(٢) انظر: محمد أحمد النابلسي. الخصوصية العربية والعقل الأسير. - ط ٢.

- طرابلس (الشام): مركز الدراسات النفسية والنفسية - الجسدية،

٢٠٠٤م. - ١٦٤ ص.

الوقفه الثالثة

مفهوم المنهج

سرى مفهوم عام للمنهج، يقتصر على المقررات من الكتب الدراسية وكتاب المعلم أو المعلمة، لذا نجد هذا الجدل الذي يبدو عليه أنه جدل سطحي، وفيه دعوة إلى تغيير المناهج، كما فيه اتهام أن المناهج مليئة بالحشو، وأن الجدول الأسبوعي مليء بالمواد. وإخال كثيراً ممن يتحدثون عن المناهج يتحدثون عن المقررات والكتب، من باب الأخذ بالجزء من الكل، وأزعم أن فئة من أولئك الذين يدعون إلى التغيير في المناهج لم يطلعوا عليها، وإنما التقطوا الأفكار من غيرهم في مجلس أو حديث عابر، ولم يكلفوا أنفسهم النظر في المقررات والخطط الدراسية، ليستشهدوا على ما يدعون إليه، وليبرهنوا على ذلك بالنصوص من هذه المقررات التي تدرّس في المراحل الثلاث.

بينما المنهج الذي يعرفه التربويون هو ما عرفوه بالإنتاج العلمي والفكري في مجالات التربية، ومن هذه المفاهيمات للمنهج ما يؤكده الدكتور محمد عبد العليم مرسي في كتابه المعنون المعلمون والمناهج وطرق التدريس أن «هناك الكثير من الخلط في أذهان العامة، بل وفي أذهان بعض العاملين (والعاملات) في مجال

التربية والتعليم حول طبيعة المنهج وماهيته، ذلك أنه يرتبط في ذهن كثير منهم على أنه المقرر المدرسي.

كثيراً ما نسمع بعض المعلمين (والمعلمات) وهم يتحدثون عن "الانتهاء من تدريس المنهج"، أو عن "توزيع المنهج على شهور السنة الدراسية، أو الفصل الدراسي"، وعن "سهولة المنهج.. أو صعوبته"، وعن "حذف بعض أجزاء المنهج... الخ".^(١) بينما المفهوم العلمي للمنهج يشمل كل أوجه النشاط التي يمارسها التلميذ، والخبرات التي يمرُّ بها، والمعلومات التي يحصلها داخل المدرسة وخارجها، طالما خضعت هذه النشاطات والخبرات والممارسات لتوجيه المدرسة وإرشادها، كما يشير الدكتور محمد عبد العليم مرسى.^(٢)

كما يعرف المنهج الجديد بأنه «مجموعة الخبرات والأنشطة التي تقدمها المدرسة تحت إشرافها للتلاميذ بقصد احتكاكهم بهذه الخبرات وتفاعلهم معها. ومن نتائج هذا الاحتكاك والتفاعل يحدث تعلم أو تعديل في سلوكهم، ويؤدي إلى تحقيق النمو الشامل المتكامل، الذي هو الهدف الأسمى للتربية».^(٣)

(١) محمد عبد العليم مرسى: المعلمون والمناهج وطرق التدريس.

(٢) محمد عبد العليم مرسى: المعلمون والمناهج وطرق التدريس. - المرجع السابق.

(٣) محمد عزت عبد الموجود. أساسيات المنهج وتنظيمه. - نقلاً عن: عبد الرحمن صالح عبد الله. المنهاج الدراسي: أسسه وصلته بالنظرية التربوية الإسلامية.

ما دمت في مجال الاحتراز فإني أحترز، أيضاً، من قفل الباب على المهتمين من غير التربويين، بدليل أنني، الآن، أتحدث عن موضوع مهم، لست من فرسانه، وإنما هو الاهتمام الذي يشمل جميع قطاعات الأمة، لأنه يمس كل بيت، ومع هذا الاهتمام اللازم فإني أدعو إلى أن نعطي القوس باريها، ونثق بهؤلاء الرجال والنساء الذين يرسمون سياسة توجيهه أبنائنا وبناتنا، مستهدين بذلك بما لديهم من ثوابت، تقوم على استلهام المنهج العام من كتاب الله وسنة نبيه محمد بن عبد الله ﷺ، فنجمع في هذا بين الثبات والنماء، وبين الخصوصية والانطلاق، وبين الأصالة والمعاصرة في التربية على الخصوص، ونأخذ من التراث ما يناسب العصر، وما فيه القابلية للتطبيق، دون النظر إلى الزمان والمكان.

* * *

الوقفه الرابعة

الأمن العلمي

لقد قامت هذه البلاد منذ نشأتها الأولى على العلم، وهذا ما ينبغي أن ننظر إليه، كلما فكّرنا في قيام هذا الكيان، ولم تفصل القيادة السياسية عن القيادة العلمية، ذلك أن هذه البلاد قامت على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واقتضى ذلك تلاحم قوة السلطان مع تأثير القرآن، فالقرآن يطبقه السلطان، والسلطان يستمدُّ قوّته من القرآن الكريم.

لذا كان لزاماً على هذه البلاد في سبيل الاستمرار في هذا المنهج أن تؤكد على العلم وتقدير العلماء، وتعمل على توفير العالم العامل الواعي، الذي يدرك مقومات هذا المجتمع، ويسعى إلى تطويعها للعلم وبالعلم، فكثُر بيننا العلماء من أبناء البلاد، بعد أن مرّت علينا فترة استغنا بها بالله ثم بعلماء مسلمين من بلاد سبقتنا بالعلم، وقيام المؤسسات العلمية العريقة في مصر والشام والمغرب مثلاً، ذات الأعمار الألفية كالأزهر الشريف وجامعة الزيتونة وجامعة القرويين. إلى أن اكتفت هذه البلاد بعلمائها الذين لم تقتصر مهمتهم على الجانب "المحلّي"، بل انتشر علمهم في شتى أرجاء المعمورة، فأضحى لهم شأن، وأمست لهم كلمة مسموعة، وفتوى مقبولة؛ لأنهم اعتمدوا فيها على مصادر الفتوى المعتبرة لدى المسلمين، بعيداً عن الأهواء، أيا كانت وجهتها.

اليوم، يبدو أن لدينا من العلماء ما لا يتوافر لكثير من بلاد المسلمين عند النظرة النسبية، وعندنا رجال غاصوا في بطون الكتب، ينهلون منها، دراسة وتحقيقاً وتتبعاً ومناقشة وحواراً، فكانت منهم الردود والوقفات والحوارات غير المباشرة مع علماء هذا الزمان، ومع من سبق من علماء الأمة، والحوار من الداخل يثري الحركة العلمية، ويشبع الفهم في الوصول إلى الحكمة.

هذا الوضع الحسن في توافر العلماء يدعو بكل صدق إلى قيام ما يمكن أن نسميه بمصطلحات هذا العصر بالأمن العلمي. هذا الأمن الذي يكفل نظرة واضحة جلية للحياة وعلاقاتها، وعلاقات الناس مع بعضهم، ومن أهم هذه العلاقات التي يجليها العلم هي العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بين الراعي والرعية، بين ولي الأمر، ومن وُلي أمرهم من المسلمين. هذه العلاقة لا تقوم إلا على حكم شرعي، يحدد مبدأ الولاء بعلمية خالصة، يكون فيها المرء موالياً لمن يوالي الله ورسوله، ويكون فيها كذلك بريئاً ممن يحادُّ الله ورسوله.

العلم الشرعي، المستتبط منه الحكم الشرعي، واضح في تجلية هذه العلاقة، ومتى ما بدا عليها أي قدر ضئيل من الغموض فإن ذلك قد يكون عائداً إلى عدم قدرة العلماء على تجليتها بوضوح، أو ربّما كان عائداً إلى أسباب أخرى، قد يكون منها الإعراض عن العلماء، والبعد عن الأخذ منهم وعنهم. والبعد عن العلماء يؤدي بصاحبه المبتعد إلى أن يلجأ إلى البديل، وليته ينتقل من عالم إلى آخر، لكان الأمر هيئاً، فإن اختلاف العلماء فيما

بينهم لا يتعدى الاختلاف في الفروع، وفي الفهم للنصوص، لكنه قد يبتعد عن العالم إلى بديل لا يملك علماً، وإنما هو شخص منظر، يقوده هواه وقلة علمه إلى الحكم المسبق على الأشياء، وإلى جملة من الاستنتاجات القائمة على مقدمات باطلة في أساسها. وهذا حاصل في بعض المجتمعات التي يقل فيها العلماء، علماً أن هناك مجتمعات أخرى يندر فيها العلماء، فتكون الساحة مفتوحة للمنظرين من أصحاب الأفكار التي لا تتفق، بالضرورة، مع النهج الشرعي في النظر إلى الأمور.

من هنا تعظم مهمة العلماء في هذه البلاد في سد الفراغ العلمي، الذي قد يطرأ على بعض المجتمعات. ويتعرض له بعض الأفراد، في ظل الإصرار على العودة إلى الدين، والسعي إلى تطبيقه في شتى مناحي الحياة. والمسؤولية ضخمة وكبيرة ومتشعبة، ولكنها مع هذا كله ليست مستحيلة على العالم، ناهيك عن مجموع العلماء. ولذا صدرت دعوة سابقة إلى قيام علماء الأمة بالاتصال الأكثر والأعمق بالمجتمعات والأفراد، وأستعير تعبير يطلق الآن على بعض أصحاب الخدمات "الإنسانية" للعلماء، فقيل: إننا نسعى إلى قيام علماء بلا حدود، ينطلقون في أرجاء المعمورة، يعلمون الناس الخير، ترعاهم عناية، الله ثم رعاية ولي الأمر، الذي أخذ هذا الجانب على عاتقه، وعده من أوليات مهماته في هذه الحياة.

هكذا ينبغي أن يكون أولياء أمور المسلمين، سعياً إلى ترسيخ مفهوم الأمن العلمي بين الناس، الذي سيبقى - بإذن الله -

معافىً من الزلزل، وسيحمي الأفراد مع المجتمعات من أي منقُص للحياة، مهما قلَّ أو كثر، صغر أو كبر؛ لأن أيَّ حركة أو سلوك سيحسب، قبل أن يقدم عليه، بمعيار الثواب والعقاب، الذي سيكون واضحاً، عندما تتضح الرؤية، تماماً، لدى مَنْ هي ليست واضحة لديهم، ويعرفون ما يرضي الله، فيسعون إليه، ويدركون ما يسخط الله تعالى، فيتجنبونه، عندها يعمُّ الخير والعدل والوثام، ويسير الناس في المجتمعات المسلمة على بصيرة، بعيداً عن أي تصرف، قد يتعارض مع هذا المعيار العظيم، ويتحقق الأمن العلمي ليتحقق معه الأمن الفكري، المستمدُّ منه، فيطمئنُّ الناس علمياً وفكرياً، وتطمئنُّ حياتهم.

الوقفه الخامسة

الأمن الفكري

ينبني على وجود الأمن العلمي وجود أمن فكري، ذلك أن الفكر قائم على العلم، والمنطلقات الفكرية تبدأ من قاعدة علمية قوية، عندها يكون الفكر فكراً، وإن لم يتكئ الفكر على العلم فلا يمكن أن يسمّى فكراً. ولعل هذا ما يدعوا بعض العارفين إلى إنكار وجود فكر إسلامي، على حساب العلم الشرعي، ذلك أنهم ينطلقون من النظرة التي غلبت الجانب الفكري على العلم، بل إننا نجد الآن عدداً ممن نسميهم مفكرين يفتقرون إلى العلم القوي، وبالتالي نجد أنهم أقوياء في التعبير والتحليل والتفسير الذاتي، الذي لا ينطلق من قاعدة علمية قوية، وإن انطلق بعضهم من قاعدة ثقافية عامّة، مما يجعل هؤلاء عرضة للخطأ والزلل القوي.

لو كان هذا الفكر مقصوداً على أصحابه لهان الأمر، فكلّ مسؤول عمّا يفكر فيه، ولكلّ الحق في التفكير، ولكنه عندما ينشر أفكاره تصبح معرفة عامة مؤثرة على المتلقين، بأي وسيلة من وسائل النشر.

لست، هنا، أقف في وجه المفكرين منتهماً، ولكنني أزعج زعماء أن الناشئة من أبناء المسلمين خاصة أضحوا نهياً للفكر،

على حساب العلم الشرعي، الذي يجعل الإنسان على بصيرة في نظرته للأشياء وحكمه عليها، ذلك الحكم الذي نشأ عن العلم، وبالتالي لم ينشأ عن نظرة ذاتية أو بعثت إليه عاطفة جياشة كانت وليدة حدث معزول، لا يكون ظاهرةً، ينبني عليها حكم.

لا بأس من التركيز على هذا الموضوع في أكثر من وقفة، بل ربّما تعدّى الأمر الدعوة إلى طرح هذا الموضوع للنقاش على مستوى وسائل الإعلام المختلفة، على اعتبار أنني أرى أن الوضوح في هذا الأمر، والخروج بتغليب العلم على الفكر مدعاة إلى الوصول إلى نوع من أنواع الأمن المختلفة، الذي تعارف الناس عليه على أنه الأمن الفكري.

لا يظهر أن الإنسان يمكن أن يحقق الأمن بشموله، إن لم يكن أمنًا فكريًا، ولن يكون أمنًا فكريًا، إن لم يكن أمنًا علميًا. ولن يكون أمنًا علميًا إن لم يستمدّ أمنه العلمي، وبالتالي أمنه الفكري، من معطيات قوية راسخة، وأي معطيات قوية وراسخة أقوى وأرسخ من قيامها على القاعدة العلمية المستندة إلى كتاب الله وسنة رسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

هناك دعوة مكررة من المهتمين للعناية بالفكر وحمایته من الدخيل من الأفكار، التي أضحت، اليوم، متاحة للجميع، بفعل تطور وسائل الاتصال، مما يؤثر على الأمن الفكري إذا لم تتبّه الجهات المعنية، وتعدّ البرامج المكثفة والمدروسة، لإحلال الفكر الأصيل محلّ الفكر الوافد، ذلك الفكر القائم على العلم، وینتظر من هذه الجهات المعنية اتخاذ السبل والوسائل المناسبة لتحقيق هذا

الهدف الجوهرى، الذى ينتظر منه الوصول إلى حماية فكرية، يكون لها أثر واضح في حماية المجتمع الصغير والكبير من أي آثار تترتب على الفكر الدخيل الوافد.^(١)

لا تحول هذه الوقفة دون الإفادة من الفكر الوافد، ولا تدعو إلى إقفال قنوات الأتصال مع الأفكار الأخرى، ولا يفهم منها إيجاد أسوار، مادية ومعنوية، أمام الفكر الوافد، فكل هذا غير وارد؛ لأنه لم يكن وارداً من قبل، حينما استفاد المسلمون من فكر الآخر وعلمهم وحكمتهم، بل الدعوة تنصبُّ إلى تحقيق الأمن الفكرى، بالتوكيد على الفكر المؤصل، ليكون هو الأساس الذى يحصن الفرد والمجتمع، ويكون هو القاعدة التى يقوم عليها الفكر، بناء على مقياس واضح يقبل الحسن ويرفض السيئ، يرحب بالنافع ويلفظ الضار، وهكذا.

كل هذا يحتاج إلى عمل شاق ومضنٍ ودؤوب، تعمل فيه جهات معنية متعددة، ولكنه ليس صعباً، ناهيك أن يكون مستحيلاً.

(١) هناك نقاش مستفيض حول النظر إلى الفكر من منطلق مؤصل في: علي

ابن إبراهيم النملة. الفكر بين العلم والسلطة: من التصادم إلى التعايش. -

مرجع سابق. - ٢٧٧ ص.

الوقفه السادسة

الأمن الثقافي

هناك أكثر من مثلي تعريف للثقافة، وتُربط الثقافة بالوصف، حتى يمكن تحديدها بوضوح أكثر، ويمكن مع ذلك كله القول إن الثقافة لدى أمة من الأمم تستند على موروثاتها العلمية والفكرية والاجتماعية. والشخص المثقف عندنا غير قابل للقياس، ذلك أن مفهوم الثقافة عندنا قد تعرّض في فترة من فترات نهضتنا الثقافية إلى قصره، غالباً، على الاطلاع على الثقافات الأخرى، والاطلاع عليها من منطلقها هي، وليس من منطلقات المثقف نفسه، أي أننا ربّما نعدُّ من توسّع في الأدب الإنجليزي أو الفرنسي مثقفاً، وربّما نعدُّ من ينقل أفكاراً فلسفية، ويحفظ مقولات بعض الفلاسفة مثقفاً، وربّما نعدُّ من يجيد لغة أو أخرى، وتنعكس إجادته للغة الأخرى على تعبيراته، بحيث يضمّن مصطلحات أجنبية أثناء حوارهِ، مثقفاً، بل ربّما انحصر إطلاق المفهوم على أولئك المطلّعين، الذين يتجاهلون تأثير الدين في النفس والمجتمع، وهكذا.

يصعب علينا، الآن، أن نعدّ شخصاً مبدعاً في علم من العلوم مثقفاً، ذلك أننا نفضّل أن ندعوه عالماً، مع أن بعض العلوم تفرض

على أصحابها قسطاً وافراً الثقافة والاطلاع الواسع، الذي يخدم هذه العلوم.

بسبب عدم استقرار مفهوم الثقافة رأينا، هنا، المصطلح "مطاطاً"، يستخدم كثيراً على مختلف الصُّعد، وتفرّد له الصحف صفحات، لو حللنا محتواها لوجدنا أنها مقصورة على الأدب والنقد، وملاحقة المدارس الأدبية والاتجاهات الحديثة في النظرة إلى التعبير والأسلوب، على اعتبار أنهما "الوسيط" لنقل الأفكار. وقد يكون لذلك أصل، ولو على مستوى المصطلح، ذلك أن العرب قد عرّفت الأديب بأنه: «من يأخذ من كل فن بطرف»، أي أنه ربّما يعلم شيئاً من أشياء متعدّدة، أما إذا علم كلّ شيء عن شيء واحد فهو عالم، وليس مثقّفًا، فقط، بمعنى أنه يسيطر على فن واحد من الفنون، مما يوحي بجهله ببقية الفنون الأخرى، وهذا، نظرياً، ممكن، ولكنّه، واقعياً وعملياً، غير وارد، ذلك أن صبغة هذا العصر تعدّد الارتباطات الموضوعية فيه، بحيث تتداخل العلوم والفنون، فيتعدّر فصلها عن بعضها.

أما إذ أخذ المرء كل شيء من كل شيء، فلم يعد مثقّفًا، ولم يعد عالماً فحسب، بل إنه أضحى شخصاً موسوعياً. وأظن أن زماننا اليوم لا يسمح بالموسوعية، التي عهدناها في علمائنا السابقين، وعلماء الثقافات الأخرى السابقين كذلك.

استناداً إلى الوقتين اللتين تحدثنا عن الأمن العلمي، والأمن الفكري، وأسباب تحققهما، فإنه ينبغي على تحقيق الأمن العلمي تحقيق الأمن الفكري، وبالتالي نلتفت إلى تحقيق الأمن الثقافي.

وهذا من أهم ما يمكن أن يحصل إذا ما ترتب أمن على آخر. مع الاعتراف، هنا، أنه بسبب عدم وضوح مفهوم الثقافة، يمكن الخلط بين الفكر والثقافة، إلا أن تحقيق الأمن الفكري القائم على تحقيق الأمن العلمي يمكن أن يكون مقصوداً على فئة قليلة من الناس، يسميهم بعض المتحدثين في هذا المجال بالنخبة، وهم الذين يوجهون ثقافة الناس، بقية الناس، وهم الذين "يصوغون" أفكار الآخرين، كما أنهم هم محطُّ التأثير على بقية الناس، بل إنهم محطُّ التأثير على القرار السياسي في بلادهم، لما يسهمون به من آراء واقتراحات واستشارات، وما إليها من الأمور المساندة في صنع القرار.^(١)

هذه العناصر الثلاثة؛ العلم والفكر والثقافة هي المكونات الأساسية للحضارة، تعين عليها بعد ذلك الإمكانيات المادية الأخرى. ولا تسمى الحضارة حضارة إذا لم تعتمد على هذه المكونات الرئيسية الثلاثة، ولذا فإن الحضارات في العالم محدودة، ذلك أن المجتمعات السكانية التي لم تستند على علم، ثم فكر، ثم ثقافة، لم تترك وراءها حضارة، ثم إن التي استندت على هذه العناصر الثلاثة في فترة من فترات قيامها كوَّنت

(١) عبدالإله بلقزيز. نهاية الداعية: الممكن والمتعمع في أدوار المثقفين. - الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠م. - ١٧٦ ص.

حضارة، ثم عندما تخلت عن العلم، وتخلت عن الفكر، ثم تخلت عن الثقافة، توقفت إسهامها الحضاري... وهكذا.^(١)

إن تحقيق الأمن العلمي يحقق الأمن الفكري، ثم يحقق بذلك الأمن الثقافي، الذي يمكن أن يكون حضارة متميزة، تنسب إلى هذا العلم والفكر والثقافة، وتوصف به الحضارة، ولا يتحقق الأخير إلا بتحقيق الأول، فلا فكر دون علم، ولا ثقافة دون علم، ولا ثقافة دون فكر. أمّا الأفكار والثقافات الشعبية التي لا تقوم على علم فإنها لا تبني حضارة.

إن هذه الأمة يمكن أن تواصل حضارتها المشتقة من مقوماتها القائمة على العلم، وعلى البحث على طلبه، لاسيما أنها حضارة قامت، في منشئها على القراءة، وذلك إذا ما تحققت فيها العناصر الثلاثة: العلم والفكر والثقافة، التي جرى عرضها في الوقفة هذه، والوقفين السابقتين قبلها.^(٢)

* * *

(١) انظر: محمد حافظ دياب. سؤال الخصوصية والكونية في الثقافة المصرية: أحوال مصر. - القاهرة: مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، ٢٠٠١م.

(٢) انظر: علي عبد الحليم محمود. التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلب عليه. - المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م. - ٤٥٦ ص.

الوقفه السابعة

الأمن اللغوي

أقف مع الأمن اللغوي الذي لا أزعم أنه يقف وحده، بل هو جزء من الأمن الثقافى، ولا يخرج عن كونه مسألة فكرية أيضاً، فهو داخل في الأمن الفكري. والداعي لهذه الوقفة الخاصة بالأمن اللغوي ما يلحظه المرء بكثرة، هذه الأيام، من الاستهتار باللغة العربية، في الوسائل المؤثرة على المتلقي، وعلى رأسها وسائل الإعلام المرئية التي تعددت، وأمست تُبثُّ لنا من كل اللهجات، سواء على مستوى الإعلان والدعاية، وهي أكثر تأثيراً من غيرها، أم على مستوى المسلسلات والأفلام، بل وصل الأمر إلى مستوى الأخبار في نشرات الأخبار، واللقاءات الصحفية المنفردة والجماعية.

ثم من الوسائل الأخرى التي تستهتر باللغة العربية تلك الملصقات الإعلانية، التي تبثُّ الدعاية عن ساعة أو مستهلك، فتختار لها شعاراً تسعى فيه إلى الإقناع، وغالباً ما يكون بلهجة محلية لإقليم واحد، ليس، بالضرورة، مقبولاً لدى الجميع. نشاهد هذه الملصقات على "لوحات" الإعلان المضيئة في الطرقات الداخلية والسريعة.

غني عن التوكيد أننا نتعامل مع لغة متميِّزة، ليست مثل كل اللغات، فهي لغة كتاب منزل من الله تعالى على نبيه محمد بن

عبدالله ﷺ، فكان هو بلفته وأسلوبه وبيانه إعجازاً لأمة العرب، في وقت وصلت فيه اللغة العربية إلى أوج ازدهارها وقوتها، فجاء معجزةً كانت سبباً من أسباب إسلام كثير من العرب، الذين اعترفوا بأنه بيان معجزٌ، ولم يكن سحراً ولا شعراً ولا كهانة.

من المعلوم أن الذين رغبوا في تعلم اللغة العربية تعلموا القرآن الكريم، رغم أنهم لم يؤمنوا به، كتاباً منزلاً، ووحياً من الله تعالى إلى نبيه ﷺ، بل إن من المعلوم أن قوماً من المستشرقين كانوا يحفظونه حفظاً تاماً، لما فيه من الرصانة والبلاغة والبيان، الأمر الذي جعلوه وسيلةً لاستقامة اللسان، فتسمع الأعجمي منهم يتحدث العربية على أفضل ما يتحدثها بعض أهلها.

نحن، الآن، شعرنا أم لم نشعر، نتحدث اللغة العربية بهذه المؤثرات القوية على أذن السامع والمشاهد، وليتنا "ضغطنا على أعصابنا" قليلاً، وفرضنا اللغة العربية الفصيحة على كل هذه الوسائل، لكان الأثر قوياً في النهاية، وإن كان في البدء ثقيلاً على بعض الآذان، التي ألفت اللهجات المحلية واستحسنتها، على حساب اللسان الفصيح.

إن الله تعالى ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، والسلطان هو ولي الأمر. وهو، هنا، يؤكد في أكثر من موقف على الحرص على استخدام اللغة العربية في كل المجالات، وإنما التقصير، ربّما، يأتي من ضعف الرقابة، أو من ضعف المتابعة الدقيقة من المنفذين، على مستوى وسائل الإعلام كلها، مسموعة مقروءة ومرئية وملصقة، فماذا يضير رئيس التحرير، مثلاً، في صحيفة

عربية أن يرفض كل دعاية لا تلتزم باللغة العربية؟ بل ما يضيره إذا ما جعل في جريدته أكثر من مصحح لغوي، منهم المخصص للعبارات الدعائية، دون المساس بالجانب الربحي من الإعلان؟

ماذا يضير المسؤول عن قناة تلفزيونية أن يؤكد على المعلنين أن تكون دعاياتهم باللغة العربية الفصيحة؟ بل ماذا يضيره إذا لم يقبل من المذيعين من لا يكون لسانه مستقيماً، بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى؟ وهكذا. فالمسألة لا تتعدى أكثر من قدر معقول باللغة العربية، لنرقى بها إلى منزلتها التي ينبغي أن تكون عليها، ونحاول أن نقوم أسنتنا، ولو تعثرنا في البداية مرة ومرتين وثلاثاً. إننا بهذا نحقق الأمن اللغوي لنا ولأجيال قادمة، ونصل بلغتنا ولغة قرآنا إلى العالمية، ونصل نحن بها، وبما تحمله هي، إلى العالمية كذلك.

ظهر في الصحف المحلية إعلان من وزارة التجارة والصناعة يؤكد على أصحاب المحلات والمطاعم بأن الرخص لن تجدد إذا لم يلتزم أصحابها بتغيير أسمائها الأعجمية إلى أسماء عربية. وهذه خطوة في الطريق الصواب تشكر عليه الوزارة، ويتطلع المرء منها أن تتابعه ميدانياً، من خلال المراقبة اللصيقة بالتنسيق والتعاون مع الجهات المسؤولة الأخرى المعنية بالأمر.

قد يكون هذا الإعلان مصدر إزعاج لأرباب الأعمال والمحلات التجارية والمطاعم، الذين سجلوا منشأتهم بأسماء عربية، وحصلوا لها على السجلات التجارية، ثم اختاروا لها أسماء أعجمية، لا تتفق والاسم المسجل رسمياً، ولكنه إزعاج مؤقت، لن يكلف أكثر من

اختيار اسم عربي جميل، وتعميد الخطاطين بتصميم اللوحات، على غرارهِ، لاسيماً أن أرباب الأعمال لم يحصلوا على موافقة من الجهات المسؤولة على الأسماء الأعجمية، التي اختاروها لمحلّاتهم، وعلى نفسها جنت براقش.

لعل هذا الإعلان، إذا ما تم تنفيذه على الواقع، يُشعر الجميع بأهمية الالتزام باللغة العربية في كل مجالات التعامل التجارية، بما فيها العقود والمراسلات، لاسيماً بين العرب أنفسهم، في الداخل والخارج، وواقع الحال أن هناك بلاداً عربية تتراسل مع عرب آخرين بلغات غير عربية، مما أصبح مجالاً للتندرُ بين غير العرب، الذين يتعاملون مع العرب في مراسلاتهم مع عرب آخرين.

ثم إنني لا أريد أن استطرد في سرد الجهات المسؤولة عن تطبيق هذا الشرط، في مجالات أخرى غير الأسماء واللوحات، فلست أزعم أنني من الإحاطة بحيث أتصدى لذلك، ولكنني، على أي حال، أشعر بالضيق عندما أجد على قارعة الطريق كلاماً عامياً أو أعجمياً، يخاطب به العرب الذين يتفاعلون مع اللغة العربية الفصيحة، من خلال سماعهم لها ثلاث مرات في اليوم، على الأقل، ومن خلال قراءتهم بها خمس مرات في اليوم، على الأقل.

أشعر بالضيق كذلك عندما أسمع أحداً، في أي مجال من المجالات، أو من أي وسيلة من الوسائل، وهو يلحن في قوله في مواضع لا يحسن فيها اللحن، ولا تغيب عن الفطنة قوامة اللسان عليها، كالمرفوع والمنصوب والمجرور والمجزوم. فإذا حصل هذا من خطيب أو مذيع أو كاتب أو متحدث في مجال رسمي، وإذا كان

المرء يعذر بعض الناس في مواقف، فإنه لا عذر لآخرين في مواقف تعكس صورة عن المجتمع العربي المسلم، الذي كرمه الله تعالى بالقرآن الكريم بلغته، وأرسل نبيه محمد بن عبد الله ﷺ من أهل العربية الفصحى، التي اجتمعت عليها لهجات العرب، وكانت المعجزة في البيان.

كما أنني أشعر بالطرب، حقاً، عندما أواجه شخصاً سليمَ اللسان، حريصاً على اللغة، لا يكاد يلحن، فإذا سبقه لسانه إلى الخطأ عاد إلى الصواب، متممداً إشعار السامعين، أو القارئين، أو المشاهدين، بأنه حريص على اللغة، من غير تقعر، ولا تكلف، ولا غلو في اختيار الألفاظ والتركيبات الأسلوبية، والعبارات المبهجة، والطلاسم والرموز، وإنما القصد الاتصال باللغة وإيصال المعلومة، وليس "استعراض العضلات" اللغوية. وأحيي جميع من يصرون على الفصاحة والبيان، وهم كثر، ولله الحمد، لأنهم يدركون ما للغة من طعم وذوق، كما يدركون أنهم بتمسكهم باللغة الفصيحة إنما يفرضون احترامهم على المتلقين.

لعلنا لا نضيق ذرعاً بكثرة الحديث عن أهمية المحافظة على اللغة العربية في جميع المعاملات، ذلك أن استخدامنا للفتا مؤشّر حضاري، يعكس اهتمامنا بما تحمله هذه اللغة من رسالة سامية، أوجبت علينا المحافظة عليها، والاهتمام بها، والعناية بكل ما يجعلها مستساغة مقبولة لدى جميع الذين يفترض منهم التعامل بها ومعها. وهي من مؤشّرات الخصوصية المكوّنة لشخصيتنا بين العالم. يقول الدكتور عبدالعزيز الخويطر في: إطلالة على التراث:

«وأي مجهود يبذل في خدمة اللغة العربية، وكشف ما خفي من بعض أسرارها، وإظهار ما قد يكون منزويًا من ميزاتها، فيه خدمة للدين، وفي خدمة الدين الأجر والثواب»^(١).

الحق أن أنظمة الدولة تنصُّ، دائماً، على استخدام اللغة العربية في جميع المعاملات، وإنما تستخدم اللغات الأخرى رديفة لها، إذا ما عني بتطبيق التعاملات أكثر من طرفين، يتعاملان بلغتين: إحداهما اللغة العربية، والأخرى لغة ثانية ثانوية بالنسبة لنا، ولكنها أولية بالنسبة لأهلها، ومن حقهم المحافظة عليها وفرضها على الآخرين في المعاهدات والاتفاقيات والعقود وبقية المعاملات.

(١) انظر: عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر. إطلالة على التراث. - ج ١٥. -

الرياض: المؤلف، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م. - ص ٨.

الوقففة الثامنة

اللغة والأسماء التجارية

الذي يؤدي العين والعقل والذهن استخدام أسماء معروفة باللغات الأخرى، ونقلها إلى مجتمعنا باسمها، وإن كتبت الأسماء باللغة العربية، وهذا يكثر في الأمور الاستهلاكية، التي يحتاجها الإنسان في حياته العادية، وليس المجال يسمح بإعطاء أمثلة، خشية من الوقوع في مزلق نظامي (قانوني)، يمنع من ذكر الأسماء المشهورة المتداولة، إلا أنه من المعلوم أن هذه الأسماء الأجنبية التي تعلق معارضنا التجارية الكبيرة والصغيرة لا تخرج عن ثلاثة أنواع:

أولاً: أسماء تجارية عالمية، ماركتها مسجلة عالمياً، وعرفت كذلك في جميع المجتمعات، مثل ماركات السيارات، وبعض المواد الاستهلاكية، كالمياه الغازية ونحوها،^(١) فهذه تحتفظ بأسمائها، وتفقد قيمتها إذا ما تغيرت أسماؤها، وقد عشنا تجربة تغيير الأسماء لمسميات عهدناها، فكان مصيرها الفشل.

(١) لا يظهر أنه من المستساغ أن نلجأ إلى إقحام أسماء لأماكن لها نوع من القداسة لدى المسلمين، مثل ما شاع من وجود مشروب غازي باسم مكة كولا أو زمزم كولا، أو نحو ذلك، مما يوحي برد فعل، ليس هو المراد في هذا النقاش.

ثانياً: أسماء تجارية معروفة، ولكنها لا تشترط العالمية، وليست تسعى إلى ترسيخ الاسم على المحلات والمعارض، ولكنها منتجات تبحث عن وكلاء موزعين أو مصنّعين محليين، وهذه تكتفي بأن يعلن عنها في المحلات التجارية فقط، كالملابس والأجهزة ونحوها.

ثالثاً: أسماء ليست تجارية، وليست عالمية، ولكنها محلية، يلجأ أصحابها إلى جعلها أسماء أجنبية، رغبة منهم - في ظنهم - في الإقبال عليها، مع أنها مسجلة رسمياً لدى وزارة التجارة والصناعة بأسماء عربية، لكنها تحمل على المعارض هذه الأسماء الأجنبية، وهذه الفئة والثانية قبلها هي التي تجني على العربية؛ لأنها تملك أن تكون بلغة عربية فصيحة، ولكنها لا تلجأ إلى ذلك، لحاجة في نفس يعقوب.

طلبة الجامعات

قد يعزى السبب في ضعف طلبة الجامعات لغوياً إلى إعدادهم في التعليم العام، ويحملون المعلم المسؤولة الأولى في هذا الضعف. وهذا قد يصدق صحفياً، عندما تطلق الأحكام جزافاً، ولكنه قد لا يصدق علمياً، عندما تدرس الظاهرة وتعرف أسبابها، فيعرج على المناهج المتراكمة على التلميذ في المراحل الأولى، وكثرة المواد، ومزاحمة الوقت في إنهاء المقرر، بغض النظر عن التحصيل، وهذا خطأ تربوي شمل المدارس النظامية في تركيبها الحالية، الأمر الذي لم يكن قائماً من قبل، حينما كانت الدراسة مقتصرة على مواد قليلة، مع مضاعفة الوقت في التحصيل والحض على

القراءات الحرة، دون مزاحمة لوسائل أخرى، وأنشطة صرفت الشباب - على العموم - عن الجدية في تقويم اللسان، مهما كانت اهتماماتهم الأخرى، من حيث الهزل والجد.

لا يكفي جعل المعلم "شماعة" نعلق عليها الضعف العلمي العام، الذي ينتاب أبنائنا اليوم، ليس في اللغة فحسب، بل في التخصصات الأخرى، مما يستدعي وقفة تربوية تقويمية شاملة للأساليب والوسائل، والتكليفات، والتدريس، والمقرر، والمنهج، وزحمة المواد، وتكثيف الواجبات على التلميذ، ثم بعد ذلك نريده أن يتفوق في أي شيء.

قد يقول التربويون إن مسألة اللغة لا تبدأ من الرابعة الابتدائية، ففي هذه المرحلة يكون الطفل قد تخطى المرحلة "الحرجة"، التي يبني فيها قدراته اللغوية، التي يكتسبها من لهجات محلية يبرع فيها، ولكنه يتلقى بعد ذلك اللغة مادةً من مواد المنهج، التي يقوم فيها، اختباراً، في النهاية، فتكون عبئاً عليه، مثل المواد الأخرى. إذاً الأسباب متعددة، والأمر يحتاج إلى وقفة شاملة علمية تشرح ضعف أساتذة الجامعات لغوياً، وليس طلبة الجامعة فقط.

أعجبتني كثيراً وقفة الدكتور محمد بن خالد الفاضل أستاذ اللغة العربية المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سابقاً، وبجامعة سلطان بن عبدالعزيز، حالياً، في برنامج خمس دقائق الذي يذاع من إذاعة الرياض، وتشره جريدة الجزيرة بالتزامن. الوقفة التي أشيد بها هي معالجته للتقصير - وليس

القصور - الحاصل الآن في استخدام اللغة العربية في حياتنا اليومية. وخلاصة وقفته الموفقة هي إعادة مدير الصحة لوصفة طبية كتبت باللغة الأجنبية، وتعميمه على الجميع بالحرص على اللغة العربية في جميع التعاملات، وكان هذا قبل سنين مضت، ونشرته جريدة البلاد مشيدة بمدير الصحة، وأعدت الجريدة نشر هذا الخبر على طريقتها في نشر ما سبق لها أن نشرته، فتحية للجريدة في السابق والحاضر.

الإعلام واللغة:

استشرت العامية، اليوم، في أخطر وسيلة للتأثير على الناشئة، وعلى عامة الناس دون خاصتهم، ذلك ما نراه يومياً ونسمعه ونقرأه في الدعايات الإعلانية التي تلجأ إلى لهجات محلية، وليست، بالضرورة، سعودية في محليتها، ولكنها ما دامت محلية فهي محلية، سواء أكانت سعودية أم غير سعودية. حتى أدى هذا إلى الإخلال بطريقة الكتابة لكلمات عربية فصيحة. فنحن وغيرنا - مثلاً - عندما نريد الإهابة بفعل شيء نقول: يا الله، وهي متداولة كثيراً في أكثر من مجتمع عربي. ورأيت دعاية لأحد المشروبات الغازية، يستخدم هذا الأسلوب في الإهابة، وتكتب الكلمة هكذا: يلا دون تشديد على اللام. وحتى مع التشديد على اللام فإن الكلمة قد صُحِّفَت عمداً، حتى توحى بالشبابية والتحفيز. وهذا مثال قريب.

تتأذى الأعين والأسماع لو استمرت هذه الوقفة في سرد المخالفات، إلى درجة أن الكلمات الأجنبية أضحت تكتب بحروف

عربية، لا تعبّر بالضرورة في كتابتها عن الكلمة الأجنبية المقصودة.

ترى لو اجتمع المنفذون من المسؤولين، كل في جهة اختصاصه، وأكّدوا على استخدام اللغة العربية الفصيحة في جميع التعاملات الرسمية والشعبية، وتابعوا ذلك بإعادة أي عرض لا يلتزم بها، هل سيكون وضع اللغة العربية على ما هو عليه الآن؟ لاسيّما أن الأنظمة تقضي باستخدام اللغة العربية حتى في أسماء المحلات التجارية، واقرأوا - إن شئتم - هذه اللوحات التي تعبّر عن أسماء المحلات التجارية، ستجدون أن نسبة منها - وليست كلها - إنما نزعت إلى التغير في اختيار الاسم المميّز لها. ومثل هذا ينسحب على الدعايات الإعلانية، في الشوارع وفي الإعلام المرئي، وكذا المسموع.

لعل حُجّة المعلنين أن استخدام اللهجات الدارجة أدعى إلى التسويق والقبول لدى العامة، وبهمّ المعلنّ التسويق والقبول. ولكننا في مجال استخدام اللغة العربية لا نخدم أغراضاً تجارية فحسب، وهذا مما يميّزنا ويميّز لغتنا عن الآخر، إذ إننا نطوّع العامة للغة، ولا نطوّع اللغة للعامة، ونطوّع التجارة والصناعة للغة، ولا نطوّع اللغة لهما أو لغيرهما... وهكذا.

الطيب في الأمر كله أنني أحسب أن جميع من يستخدمون اللغات الأجنبية واللهجات المحلية إنما يستخدمونها لتقصير في وعيهم بأهمية اللغة، وليس تعمدًا إلى إهانة اللغة العربية في عصر

دارها. ولا يوجد من لا يريد للغة العربية الثبات، وهذا وعي متحقق في النفوس، ولكن التطبيق لا يرقى إليه.

أعلم، يقيناً، أن الحديث عن اللغة العربية تكرر في الصحف، وفي غيرها من وسائل الإعلام. وأعلم كذلك أن الحديث عن الحفاظ على اللغة العربية، والغيرة عليها، سوف يستمر على جميع الصُّعد، فعمل القارئ لا يستاء من كثرة التعرُّض لهذا الموضوع المهم، بل المطلوب من القارئ أن يتفاعل مع هذه الدعوات، ولا تقتصر على من يعتقد أنه على التصاق مباشر باللغة العربية، إذ الجميع على التصاق بهذه اللغة المباركة. أرايتم تأثير المسلسلات الكرتونية الناطقة باللغة العربية على الناشئة؟

أمّا وجود ضعف عام في اللغة العربية على مختلف المستويات والصُّعد فهذه مسألة واقعية، تعاني منها الأمة العربية بالدرجة الأولى، إذ إنها هي المسؤولة عن لغتها، وغير العرب من المسلمين المنتمين إلى اللغة ديناً ينظرون إلى هؤلاء العرب ما يفعلون بلغتهم.

الذي يظهر أن من أسباب هذا الضعف تهاون العرب في لغتهم، وامتهانهم لها على المستويات العلمية والتعليمية والتجارية والسياسية.^(١) فالمناهج والمقررات في المدارس العليا - لاسيما التخصصات العلمية - تدرّس بغير العربية، وبعض العرب لا يتصوّر

(١) انظر: علاء طاهر. الخصوصية الإستراتيجية للعالم العربي. - مرجع سابق.

تدريس العلوم بالعربية. والبحوث والدراسات والمشروعات العلمية تعدُّ بلغة غير عربية، ولا يتصورُ بعض الباحثين والدارسين ومعدّي المشروعات العلمية صياغتها بالعربية.

المعاملات التجارية، من مكاتبات ومعاهدات واتفاقات وأدلة تجارية، تكتب بغير اللغة العربية، ويجمال التجار العربُ كثيراً غيرهم في الكتابة بلغتهم. والمفاهيم السياسية من محادثات وخطب ولقاءات تدور بلغات غير العربية عند من يجيدونها، حتى أصبح الحديث والتعامل بغير العربية مفخرةً لمن يستخدم اللغات الأخرى، وإشعاراً للآخرين بأنه يجيد لغتهم!

لعل منبع هذا كله - أو من منابعه - عدم الثقة باللغة العربية، نتيجة من نتائج الهجوم عليها من المستعمرين، وغيرهم من تلك المنظمات والهيئات، التي تدرك أن إحياء اللغة العربية في الناس إحياء للدين، الذي اقترن بها، أو اقترنت به. ولا تقع مسؤولية الضعف على المعلمين والمناهج وطرق التدريس والطلبة ووسائل الإعلام فحسب، بل إن المسؤولية مشتركة، هي مسؤولية الجميع.

عودة اللغة:

من أبرز الحلول لعودة العربية إلى بهائها تميمها على كل الأنشطة، وجعلها اللغة الأولى، ثم تأتي اللغات الأخرى تبعاً لضرورة التعامل مع الآخر، فتعمم في التعليم وفي الإعلام وفي الدعاية والإعلان، وفي البحوث والدراسات، وفي المعاهدات والمواثيق والاتفاقيات، والمحافل الإقليمية والدولية، وتفرض فرضاً على

الجميع بقوة السلطان. ومن أبرز الإعداد للفوص في بحار العربية الدعوة إلى التعريب في الدول التي طفت عليها لغة المستعمر، وغير هذا لا أجد في الساحة جهوداً بارزة تدعو إلى الفوص في بحار العربية، بل إن تعميم لهجات محلية لشعب من الشعوب هو الأبرز الآن في أكبر مؤثر على اللغة، وهي وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.^(١)

قد جاءت هذه الرسالة الخالدة بالكتاب والسنة المكتوبين باللغة العربية الخالصة المبينة، وهي الوسيلة القائمة المستمرة التي تصل الناس بالدين، فكان أن أهتم الناس باللغة وتعلموها ليعرفوا الكتاب والسنة. وقال أحد الباحثين المهتمين إنه يستحيل على المرء أن يسبر غور هذا الدين إن لم يكن يملك سلاح اللغة.

اللغة، صرفها ونحوها، يسيرة على من يسرها الله له، واندفع إليها من هذا المنطلق، وليس من أنها مجرد تكليفات على مقاعد الدراسة، يؤدي فيها التلميذ والطالب اختباراً في نهاية الفصل والسنة، ثم يمرق الكتاب المقرر، الموزع مجاًناً، راجياً عدم العودة

(١) محمد المنجي الصيادي. التعريب وتسيقه في الوطن العربي... ط ٤... بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م.. ص ١٢٨ - ١٧٩... (سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ١). وانظر أيضاً: عبدالعزيز عاشوري. محاولة لتقويم تجربة التعريب في تونس، وفاطمة الجامعي الحبابي. تقويم تجربة التعريب في المغرب، ومصطفى الفيلاي. تقويم تجربة التعريب في الجزائر.

إليه، حتى أصبح الضعف اللغوي ظاهرة كلامية اجتماعية، شملت الجميع، وانعكست على الإنتاج العلمي والأدبي والإعلامي، وأصبح هناك مصححون لغويون، ينظر إليهم على أنهم عبء على النص، وأصبحت هناك دعوة إلى لغة "صحفية" لا تحفل بالإعراب وعلاماته، ولا بتصريف الأفعال واشتقاقاتها، المهم عند هذه اللغة، وعند دعائها أن يعبر المرء عما يريد، دون الخوض في الفصاحة. وهذا ناتج عن العجز والتهاون والتكاسل في متابعة اللغة، والحرص على سلامة اللسان، وتغطية هذا العجز بأفكار تهرب من عناء الفصاحة.

ربما وجد من يخاف من تطبيق العربية في مناحي الحياة العملية، وهذا مطلب مغرض دعا إليه المتغريون التغريبيون، بحيث تصبح اللغة العربية مقصورة على المعابد، واللغات الأخرى غيرها هي لغات المعاهد. ومع هذا فإن علينا ألا نتظر بهذا المنظار المتشائم، إذ إن في الأمة رجالاً ونساءً يابون إلا أن تكون للغة العربية مكانتها التي تليق بها بين اللغات، على ما كانت عليه من قبل لغة علم ودين وحياة ووجدان.

إذا لم تتيسر اللغات الأخرى، فالدعوة قوية إلى إحلال اللهجات الدارجة محل اللغة العربية الفصحى ليفهم الجميع، ولتنزل اللغة إلى الناس بدلاً من أن يصعد الناس إلى اللغة، ودون النظر إلى التلاقي عند نقطة محددة وسطية، ليس فيها إهانة للغة الضاد،

وتبتعد في الوقت ذاته عن التتعمُّر في القول، والتعمُّد في طرق أبواب الفصاحة على حساب الفهم.^(١)

إن ظاهرة الضعف اللغوي لا تقتصر اليوم على الطالب في الجامعة، بل إنها "بليَّة" طمَّت وعمَّت، بدءاً بخطيب يوم الجمعة، فكثيراً من الخطباء يقعون في أخطاء لا ينتظر الوقوع فيها، والأستاذ كذلك، والمذيع في الإذاعة والتلفزيون "يتخبَّط" في اللغة، فيرتبك، ويؤثِّر ذلك على أدائه، حتَّى أنك "تعاف" الخبر الذي يورده، عندما يقلبه رأساً على عقب، فما تدري ما الفاعل وما المفعول.

أما التجَّار، ومن نسميهم "رجال الأعمال"، تسميةً حرفيةً لتركيب أجنبي businessmen لم نكن نستخدمه من قبل، فإنهم يتعاملون بغير اللغة، ويتعاقدون ويتعاهدون، ويتكاتبون بلغة أخرى، ليشعروا أقرانهم بأنهم "رجال أعمال" كبار، لا تتقصهم الإنجليزية أو الفرنسية أو الروسية. حتَّى أُلِّفت الكتب باللغة العربية، لكنها تأثَّرت في المصطلح بلغة أخرى.

من آخر ما وقفت عليه، هنا، مصطلح "رجل بيع" أي البائع، والتركيب هذا موجود في اللغات الأخرى، مما حدا بالمرأة إلى

(١) انظر: نفوسة زكرياً سعيد. تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. - الإسكندرية: دار نشر الثقافة، ١٩٦٤م. - وانظر، أيضاً: نوال عبد الهادي. لغة الضاد بين التشكيك والتحديث. - المجلة العربية ع ١٣٤ (٢/٣) ١٤٠٩هـ - ١٠/١٩٨٨م). - ص ٩٢ - ٩٣.

الاحتجاج على التركيب عندما أصبحت "امرأة بيع" saleswoman أي بائعة، ولكن اللغة الأخرى أهملتها من الاصطلاح، فظهرت الجمعيات والمنظمات غير الحكومية، التي تدعو فيها إلى المساواة فيقال "شخص البيع" salesperson وشخص الشرطة policeperson وشخص المطافئ fireperson وشخص الأعمال businessperson.

تصوّروا أن يكون في لغتنا مثل هذا الذي لا تؤمن به، فقد شملت مصطلحاتها المرأة والرجل، واشتركا كثيراً في مصطلح واحد كالزوج والعروس والوريث، ومعظم صيغ "فعل"، دون أن تنظر المرأة لذلك على أنه تفرقة لغوية. وعلى أي حال فهناك أسباب عديدة لهذه الظاهرة، لا توضع كلها أو جلها على "المستهلك" المستخدم للغة، ولكن يتحمل جزءاً منها أرباب اللغة، من معلّميها والعالمين بهذه اللغة الجميلة حقاً.

* * *

الوقفه التاسعة

الانتماء اللغوي

لعل من أبرز نواحي الاهتمام بالانتماء لهذا الدين الحنيف العناية المستمرة باللغة، التي جاء بها هذا الدين الحنيف. واللغة العربية ليست كأي لغة من لغات العالم الحية، والتي تسعى إلى الحياة. إذ إن إطلاق تعبير اللغات الحية على اللغات المعاصرة، الشائعة علمياً وثقافياً واجتماعياً، لا يُخرج اللغة العربية من كونها أكثر هذه اللغات حياةً، ذلك لأنها لغة دين حي، كتب الله له الحياة إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن وما عليها. وما التقصير الذي تعانيه اللغة، من حيث انتشارها إلا نتيجة من نتائج البعد عن المنهاج الرباني في النظر إلى الكون والحياة. ونزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢٠١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ (يوسف ٢-١).

يفرض على أتباع القرآن الكريم العناية بهذا اللسان المبين، ليس من المنطلق المحلي للغة، ولكن من المنطلق الإيماني، الذي يحتم رعاية اللغة العربية من أجل فهم الإسلام فهماً عميقاً.

لعل من الأخطاء التي يقع فيها بعض من لا ينتمون إلى الإسلام ديناً، كالمستشرقين، فيكتبون عنه في محاولة لفهمه هي سوء فهمهم للغة العربية، نتيجة لعدم تبجهرهم بها، إلى الدرجة التي

تؤهلهم إلى الحديث فيها، وعن الدين الذي تمثل اللغة العربية وسيلة الاتصال فيه. إذ لا بد من وضوح الوسيلة في سبيل وضوح الفكرة، التي يراد نقلها إلى الآخر، أو إيصالها إليهم باستخدام اللغة.^(١)

إذا كنا نعتب على غير المسلمين المتحدثين عن الإسلام من المستشرقين والمستعربين عدم سيطرتهم على اللغة، فإن العتب يزداد على المسلمين الذين ينتمون إلى الدين، الذي جاء بلغة عربية واضحة. وإن كان العتب يزداد على المسلمين الذين لا يتحدثون اللغة العربية إلا بالقدر الذي يعينهم على أداء حقوق الله عليهم، مع شيء من التقصير في هذه الحقوق، فإن العتب يزداد كثرة على أبناء العربية الذين يبدو عليهم شيء من التفريط بلغتهم، وتعلقهم بلغات أخرى، مما يسمّى باللغات الحية، بحيث أصبحت الرطانة العلمية بأي لغة إلا لغة القرآن الكريم. وهذا يصدق على معظم الأوساط التي نالت قسطاً لا بأس به من العلم والثقافة.

أرأيتم ماذا سيكون المعنى لو قرأ أحدٌ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ ۗ إِنَّمَا نَحْنُ اللَّهُ مِن عِبَادِهِ الْعَلَمُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر ٢٨)، فقرأها: {إنما

(١) انظر: محمود محمد شاكر. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. - القاهرة: دار

الهدى، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م. - ٢٥٨ ص. - (سلسلة كتاب الهلال؛ ٤٤٢).

يخشى الله من عباده العلماء} أو قرأ أحد قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۗ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۗ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۗ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ (البقرة ١٢٤)، فقرأها: {وإذ ابتلى إبراهيمُ ربُّه...} الآية، سوف يختلف المعنى في الآيتين الكريمتين، اختلافاً جذرياً، وستختل عقيدة المسلم، بمجرد نسبة الخشية لله تعالى، ونسبة الابتلاء من الخلق لله تعالى، والله منزّه عن ذلك كله، وإنما هو الجهل باللغة، من حيث قواعدها وبلاغتها، ونحوها وصرفها، وبيانها، وبديعها، ومعانيها، أي بلاغتها وآدابها كذلك.

لم يصل الأمر بفضل الله تعالى إلى الخلط في القرآن الكريم، وإن وجدت حالات فهي شاذة لا تعدُّ، ولكن الخلط في اللغة حاصل باطراد. الأمر الذي يستدعي سرعة معالجة هذه الظاهرة السيئة، بقوة السلطان وبقوة القرآن كذلك. واللغة العربية أمانة في أعناق الجميع، كل بحسب استطاعته وقدرته على حمل هذه الأمانة، فلا يستبدل غيرها بها، ولا تعزل عن العلوم والمعارف والتخاطب والاتصال، ولا تشاع على حسابها اللغات الأخرى، مهما كانت حيوية هذه اللغات الأخرى. وإن من مقومات الثقة بالذات وبالانتماء لهذا الدين الحنيف العناية الفائقة بلغة هذا الدين الحنيف، من باب الحفاظ على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وترات المسلمين المخطوط والمطبوع.

اللغة العبرية:

كنت قد جلستُ مع الأستاذ عبدالرحمن الباني، أحد الأساتذة المعنيين بأصول التربية والتعليم، ودار الحديث حول هموم الأمة، ومن بينها هموم التعريب في المؤسسات التعليمية العليا، لاسيما تلك المؤسسات العلمية التي تقدّم برامج في العلوم التطبيقية والبحث والثقافة. فذكر لي أن تاريخ العبرية، وهي التي يتحدثها اليهود الآن في فلسطين المحتلة، وخارجها، هي لغة تعطلت لمدة ألفي عام، وذلك بتعطُّل الحديث والكتابة بها، وجميع أنواع الاتّصال اللغوي، إلا أن شخصاً وزوجته، ولعلَّ اسمه إيعاز بن يهودا، قرّرا الحديث والتخاطب باللغة العبرية، وإحياءها بوضع معجم لغوي لها، حتى أنهما رزقا بمولود، ثم قرّرا التخاطب معه باللغة نفسها، في مجتمع لا يجيد اللغة ولا يعرفها، فكان الناس يقولون لهما: إذا كنتما مجنونين إلى هذا الحد فلم تنقلان جنونكما إلى هذا الطفل البريء، الذي أضحى لا يتقن إلا اللغة العبرية. وأنشأ بن يهودا في القدس رابطة المتكلمين باللغة العبرية، «كانت ترمي إلى نشر اللغة العبرية بين ظهراني الناشئة اليهود»^(١).

عندما قامت الدولة العبرية في فلسطين المحتلة، وتسمت بإسرائيل، جمعت بعضاً من علمائها، وأوعزت إليهم بتطوير المعجم

(١) انظر في مسألة اللغة العبرية: ربحي كمال. دروس اللغة العبرية. - ط ٣. - دمشق: جامعة دمشق، ١٣٨٣هـ/١٣٦٢م. - ٦٠٠ ص. - والنص من ص ٥٤ - ٥٣.

الذي بدأه بن يهودا، ثم أضحى هذا المعجم هو المعوّل عليه في إحياء اللغة العبرية، التي لا يتحدثها إلا عدد قليل من الملايين، بالمقارنة بأكثر من ستة مليارات نسمة، وصل إليه الناس، في نهاية الألف الميلادية الثانية، ومع إطلالة العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجري، ١٤٢٠ هجرية.

في المقابل لا يزال العرب يتجادلون حول تعريب المناهج والمقرّرات العلمية، في الجامعات والمعاهد العليا ومراكز البحوث العلمية، والمكاتب والاتفاقيات التي تبرمها المصانع والمقاولون والمصارف والمؤسّسات التجارية والسياحية والخدمية الأخرى. والذين يتحدثون العربية، مع الذين يرغبون في الحديث بها ويقرونها، يومياً، يزيد بقليل عن ربع سكّان العالم، حتّى مع الزيادة التي وصل إليها العالم.^(١)

هذا الجدل ينصبُّ على مسألة فكرية ثقافية حضارية، وليست المسألة مسألة مقرّرات ومناهج ومكاتب، وإنما هي مسألة انتماء للثقافة التي تتبنّى اللغة العربية لسائناً لها. وليس في هذا اتّهام بأن الذين يقفون ضد مشروع التعريب منحرفون فكرياً، فإن في هذا الاتّهام مجازفةً لست أميل إليها، لأن فيها حكماً متعجلاً جداً، ولا تتناسب مع مبادئ الحوار حول هذا المشروع. والأمر هنا لا يعدو أن يكون قناعات لبعض المهتمّين بأن الوقت لم

(١) انظر: السيد إسماعيل السروي. تعريب العلوم في ضوء العبرة الإسرائيلية.

— القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٤م. — ٢١٦ ص.

يحن للتعريب، حتَّى تمتلئ الساحة العلمية بالترجمات للمنشور باللغات الأخرى. لاسيَّما مع ضعف النزوع إلى النقل والترجمة عن اللغات الأخرى. وهذا يقتضي قيام جهات علمية تنبهي للنقل والترجمة، بالملاحقة المستمرَّة والسريعة.

* * *

الوقفه العاشرة

إنقاذ اللغة

تتوالى الدعوات إلى حماية اللغة العربية، فتقوم الندوات والمؤتمرات والمحاضرات، التي تعنى بالحفاظ على اللغة العربية، بتعميم استخدامها على جميع مناحي الحياة. ومن ذلك الندوة التي عقدت في رحاب جامعة الملك سعود في الرياض في المدة من ٢ - ٣/٦/١٤١٩ هـ الموافق ٢٢ - ٢٣/٩/١٩٩٨ م بعنوان: تعميم التعريب وتطوير الترجمة في المملكة العربية السعودية. واشتركت فيها جهات علمية عدة. وكانت تحت رعاية وزير التعليم العالي الدكتور خالد بن محمد العنقري، وقُدِّم في هذه الندوة واحد وأربعون بحثًا وتقاريرًا علميًا، غطت محاور الندوة التي كانت على النحو الآتي:

- ١- الترجمة والتنمية.
- ٢- التعريب ومعوِّقاته.
- ٣- الحاسوب في الترجمة والتعريب.
- ٤- تجارب وطنية في الترجمة.
- ٥- المصطلح والتعريب.

خرجت الندوة باثنتي عشرة توصية. والمهم أن عقد هذه الندوة وأمثالها في الداخل والخارج يوحي بوعي الأزمة التي تعيشها اللغة العربية اليوم. وهذا مؤشر حسن، ينتظر منه أن يستمر ليصل في

النهاية إلى نتائج عملية، تكون هي نتيجة لقناعة تامة من المعنيين من أفراد المجتمع، ومن بينهم الأكاديميون والمسؤولون وصنّاع القرار، والعلماء والباحثون في العلوم التطبيقية والبحث. فإذا تولدت هذه القناعة لدى هذه الفئات أمكن، حينئذ، تعميم التعريب والترجمة داخل البلاد وخارجها.

التوصية الأولى:

طالبت هذه الندوة الجهات العليا بإلزام الجامعات والكليات العلمية والتقنية بالبدء في تطبيق ما تنصُّ عليه لوائح الجامعات والكليات من وجوب التدريس باللغة العربية، وعدم الاستثناء من ذلك تحت أي ظرف. هكذا جاءت التوصية الأولى. ومؤدّها أن لوائح الجامعات والكليات، أي لوائح التعليم العالي، تنصُّ على استخدام اللغة العربية في المحاضرات، وتأليف الكتب والبحوث والدراسات، وإعداد التقارير.

هذا يعني أن حكومة المملكة العربية السعودية تقف وراء التعريب، وتمليه على مؤسساتها التعليمية العليا، بالإضافة إلى المؤسسات الأخرى الاقتصادية والتجارية، ولا غرو في ذلك فإن المادة الأولى من النظام الأساسي للحكم الصادر في ٢٧/٨/١٤١٢هـ قد نصّت على الآتي: «المملكة العربية السعودية دولة عربية إسلامية ذات سيادة تامة، ودينها الإسلام، ودستورها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ولغتها هي اللغة العربية، وعاصمتها مدينة الرياض». ولا يمكن أن ينص نظام ما في العالم على مادة أو فقرة من مادة غير قابلة للتطبيق على أرض الواقع.

لو تتبّعنا التعميمات والأوامر السامية حول هذا الموضوع لوجدناها واضحة في اعتماد اللغة العربية لغة العلم والتجارة والصناعة، وجميع مناحي الحياة، التي طُغت عليها لغات أخرى، بسبب تقدّم أهل هذه اللغات في مجالات العلوم والتقنية.

من المهمّ هنا التذكير بأن التعريب في المؤسسات التعليمية العليا وغيرها من المؤسسات لا يتنافى البتة مع تعلم اللغات الأخرى، والزام بعض المعنيين بها على أنها شرط من شروط التأهيل العلمي أو التعيين الوظيفي، إذ إن الدعوة إلى التعريب ليست دعوة إلى التقوقع على الذات، والانعزال على العالم، كما يظن بعض الواقفين ضدّ التعريب.

لا تقف فكرة التعريب ضد النقل والترجمة من اللغات "الحية"، التي لم تستغن يوماً عن اللغات الأخرى، التي تنقل عنها بالترجمة، مهما أُنهت هذه اللغات بالركود أو حتّى الموت، بل إن التعريب سوف يؤديّ إلى تنامي الترجمة، وقيام مؤسسات أو معاهد أو مراكز للترجمة داخل المؤسسات التعليمية العليا وخارجها. ولن تستغني اللغة العربية عن إسهامات اللغات الأخرى، كما لم تستغن من قبل في أوج ازدهارها علمياً، في القرون الثاني والثالث والرابع الهجرية.^(١) وليس الأمر كما يظن بعض الواقفين ضدّ فكرة

(١) انظر: علي بن إبراهيم الحمد النملة. ظاهرة النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية. - ط ٣. - الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية،

١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. - ٢٤٨ ص.

التعريب. إلا أن منطق بعض الواقفين ضدَّ الفكرة هو أن الترجمة تأتي أولاً، ثم تبدأ الخطوات الأولى في مشروع التعريب الطويل.

التوصية الثانية:

تنص التوصية الثانية المنبثقة عن ندوة تعميم التعريب وتطوير الترجمة على الآتي: «إلزام القطاع الأهلي والشركات بتعريب بيئة العمل ومراسلاته، لتوحيد لغة الهرم التقني في تلك المؤسسات والشركات، لتسهيل التفاهم باللغة العربية، وتسهيل قبول من يتخرج من مؤسسات التعليم المعرب». وتأتي هذه التوصية رداً، أيضاً، على بعض غير المتحمسين للتعريب، عندما يجادلون بأن خريجي التعليم المعرب لن يتمكنوا من الانخراط في «سوق العمل»، الذي يتكئ إلى حد واضح على لغة أجنبية، في تعامله مع عامله والمتعاملين معه.

إنه لمن المستغرب، الآن، أن تدخل بعض مؤسسات القطاع الأهلي، فتفاجأ بأن الذي يتحدث معك لا يجيد اللغة العربية، أي أنه أعجمي، في عمل قد لا يستدعي وجوده، ويمكن الاستعاضة عنه بمواطنين سعوديين، أو بعرب، يتكلمون اللغة العربية. ومع الإدراك لموقف بعض التجار "رجال الأعمال" من أن الأعاجم أكثر إنتاجية من العرب، ولذا يستعان بهم، فإن هذا التوجُّه فيه من الخطورة ما يعيدنا إلى أعماق من أن نتكلم اللغة العربية أو لا نتكلمها. ويكمن هذا العمق في أننا تخطينا وسيلة الاتصال، وهي اللغة، إلى الجانب الثقافى الذي وصل من الركوند بحيث نصل إلى أن تنزع الثقة بالسعوديين، وبالعرب، بالتالي.

إذًا الضعف اللغوي في القطاع الأهلي قد يشكل ظاهرة خطيرة، تحتاج إلى وقفة طويلة جدًا، تدرس فيها الظاهرة دراسة موضوعية، بحيث يكون مؤدَّى التوصية الثانية لهذه الندوة المباركة توصيةً فاعلةً، قابلةً للتطبيق بصورة قوية، قد تكون مفروضة على التجار "رجال الأعمال" الذين يكثُر الحديث عنهم في الآونة الأخيرة، ويتبَّه إلى تأثيرهم المباشر على المسيرة الحضارية لهذه البلاد، ولغيرها من البلاد، ولهم تأثيرهم كذلك في التنمية، ولهم تأثيرهم في نواحٍ عدَّة من شؤون الحياة. فلم يعودوا مجرد تجار، يستثمرون أموالاً في منتجات استهلاكية، تعود عليهم في النهاية بالريح، بل إنهم أضحو جزءاً من البناء العام للأمم، حضارة وثقافة وفكراً.

بالقدر الذي يصلون إليه من الوعي يمكنهم أن يسهموا في إشاعة اللغة العربية في جميع أعمالهم. واللغة العربية هي الوعاء الذي يمكن أن يقاس به مدى الوعي الذي وصل إليه هؤلاء الفاعلون في مجتمعاتهم.

التوصية الثالثة:

نجد أن التوصية الثالثة قد نصَّت على الآتي: «إنشاء هيئة وطنية للترجمة والتعريب تقوم بوضع خطة شاملة للترجمة والتعريب في المملكة العربية السعودية، وتكون أولى مهماتها التخطيط لتعريب التعليم العالي العلمي تعريباً تاماً، وتتفذه بالتعاون مع الجامعات والكليات العلمية والتقنية، ثم تستمر في متابعة رسالتها العلمية لخدمة التعليم العالي العلمي، وخدمة التنمية الوطنية في

مجالات نقل العلوم، وتوطين التقنية، وتيسيرها للمجتمع السعودي بجميع فئاته، وخدمة المجتمع، والتنمية الوطنية في مجال اختصاصها».

الدعوة إلى قيام هذه الهيئة مطلبٌ ملحٌ. ويضرب المثل، غالباً، باليابان التي حرصت على الترجمة، وواكبت بذلك التطورات العلمية، وكذا الحال مع روسيا ودول جنوب شرق آسيا، التي تخطو خطوات حثيثة نحو التقدم العلمي والتقني. ولا يظهر أن التعريب في الجامعات والمعاهد العليا، وفي غيرها من المؤسسات التجارية سوف يكون له أثر إن لم تقم هذه الهيئة، التي تخطط وتنظم وتضع المعايير، وتشرف على مشروع التعريب، وتتابع خطواته خطوةً خطوةً. ومن ذلك متابعة الإنتاج العلمي، ونقله إلى اللغة العربية مباشرة، بالاستعانة بالله، ثم بتقنية نقل المعلومات، مترجمة ترجمة آلية سريعة، وإن خضعت للمراجعة والمزيد من العناية، فإن العناية بالترجمة تزدهر، ولا شك، بازدهار الإقبال عليها على المستوى الرسمي، والمستوى العلمي والمستوى التجاري.

أزعم، أولاً، أن قسماً كبيراً، نسبياً، من علمائنا في المجالات العلمية والتطبيقية والتقنية قد توقّفوا، تقريباً، عن متابعة علومهم، بمتابعة ما ينشر فيها من أبحاث ودراسات؛ لأنها تنشر بلغات غير لغتهم، وإن كانوا قد تلقوا علومهم بإحدى هذه اللغات، إلا أنهم لا يستطيعون المتابعة الدقيقة لأنهم، في الغالب، لم يسيطروا على اللغة الأخرى سيطرةً تامّةً، ثم إنهم بدأوا "يضيّعون" قدرًا من المصطلحات العلمية والرطانة المعتادة عند ذوي التخصص الواحد.

في غياب هذه الهيئة أزعم، ثانياً، أن القسم الآخر من العلماء الذين تابعوا تخصصاتهم بلغات أخرى، لأنهم سيطروا على اللغة الأخرى أكثر من سيطرتهم على لغتهم الأم، لأنهم كانوا لا يُقنون لها بالأ، وبالتالي تراهم ينشرون إنتاجهم العلمي باللغة الأخرى، وهذا يعني أن الإفادة منها قد تكون محدودة جداً في مجتمعاتهم، الذي تهيأوا للإسهام في رقيته، ويستفيد منها مجتمعات علمية أخرى تتحدث اللغة ذاتها، التي ظهرت بها هذه البحوث والدراسات. ويكفي أن ينظر إلى السير الذاتية لجمع من هؤلاء العلماء ليطلع المرء على الإنتاج العلمي لهم، الذي سيظهر باللغة الأخرى عند رصد هذا الإنتاج. وقد عانت البرازيل، التي تتحدث اللغة البرتغالية، من هذه المعضلة، من قبل، وسعت إلى إيجاد الحلول العملية لها.

أزعم، ثالثاً، أن الهيئة المطلوبة ستسهم بفاعلية ملحوظة في توطين الأبحاث والدراسات والتقارير العلمية، وبالتالي توطين العلماء أنفسهم. ولهذا الإجراء فوائده الفكرية الواضحة، وكذا الثقافية في مسألة التوطين، وله كذلك أثره على النهوض بالأمة علمياً وتقنياً. إذاً هي دعوة في توصية جاءت في وقتها المناسب مع عقد الندوة، وإن كان إنشاء الهيئة قد تأخر إلى حد برزت آثاره غير الحسنة على الحركة العلمية في البلاد، وفي المنطقة.

التوصية السادسة:

جاءت التوصية السادسة من توصيات ندوة تعميم التعريب وتطوير الترجمة بالنص الآتي: «حثُّ الإعلام المرئي والمقروء والمسموع بالالتزام باللغة العربية الفصحى، وتحريُّ الدقة في

استخدام المصطلحات في وسائل الإعلام»، ولأن المنتدين لا يملكون إلا الاقتراح على وزارة الثقافة والإعلام جاءت التوصية بالحث.

الواقع المتابع أن وسائل الإعلام السعودية تلتزم باللغة العربية الفصحى، ما عدا بعض الصفحات التي تعنى بالتراث الشعبي، وبعض الصور الهزلية "الكاريكاتير" التي لا تستقيم، أحياناً، إلا بالتعبير العالي الذي يمكن أن يرقى به إلى اللغة العربية الفصحى. والصور الهزلية الأخرى التي تأخذ منحى "درامياً" في الإذاعة والتلفزيون، والمسلسلات المحلية والخليجية والشامية والمصرية. والذي يظهر أن الاستثناءات هذه قد تخطت في، زمن العرض، تلك البرامج التي تعرض باللغة العربية، والتي يمكن تلخيصها في النشرات الإخبارية، والمقابلات الرسمية، والندوات الدينية والثقافية والاجتماعية. وهذه قليلة إذا ما قورنت بتلك التي ورد ذكرها في الفقرة السابقة.

الرياضة واللغة:

ما دامت الرياضة قد بدأت تزحف على البرامج، فإنها تتعرض في عرضها للعامة، عند التعليق أو المقابلات الرياضية، مع أن الأفراد الذين يتحدثون في هذه المقابلات يحاولون الحديث باللغة العربية، إلا أن المصطلحات بالأجنبية تطفى على العربية. وأذكر هنا المؤتمر الذي عقد في عمان حول التعليق الرياضي الذي أوصى باستخدام اللغة العربية في التعليق والمصطلحات.

ثم إن هناك برامجٍ سرت في إعلامنا الحاضر، وهي التي تُعرض على الهواء مباشرة، وقد تكون طبية أو اجتماعية أو دينية أو سياسية أو رياضية، كذلك، وبرامج الأطفال، كل هذه تخضع - مع الأسف - لاستخدام مصطلحاتها الأجنبية، التي يضطر لها المتحدث في ظل غياب المصطلح العربي البديل.

هذا على مستوى المملكة العربية السعودية، وهي حاضنة اللغة العربية. أما على مستوى البلاد العربية الأخرى في علاقتها باللغة العربية فالأمر مختلف إلى حد ما. والذي يهمننا في هذه الوقفات التي تركز على الندوة هو المملكة العربية السعودية في تعاملها مع لغتها العربية، وإلا فالمسؤولية مشتركة بين كل الدول المعنية، وكل الشعوب المعنية باللغة العربية.

* * *

الفصل السادس السعوديون وفعل الخير

الوقفة الأولى

العناية بالمصاحف

من نعم الله علينا أن هيا الله تعالى لنا الرجوع السريع إلى كتاب الله تعالى، في أي وقت، وبالأخص مع وجود هذا الكتاب الكريم في المساجد، بل والمصليات في أغلب الأحيان. ومن نعم الله علينا أن قامت منشأة خاصة بطباعة المصحف الشريف هي مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.^(١) وهي تعدُّ، بحق، مفخرة من مفاخر هذا العهد الزاخر بخدمة الإسلام والمسلمين، على مختلف الصُّعد، بما في ذلك توفير المصاحف في كل مكان.^(٢)

(١) انظر: محمد سالم بن شديد العوفي، تطوُّر كتابة المصحف الشريف وطابعته وعنايته المملكة العربية السعودية بطبعه ونشره وترجمة معانيه. - ص ٤٢٣ - ٤٦٤.

في: ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه المنعقدة في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة في الفترة من ٢ - ٦ رجب ١٤٢١هـ. - المدينة المنورة: المجمع، ١٤٢٤هـ. - (المحور الثالث: عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم).

(٢) انظر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مركز البحوث والدراسات الإسلامية. عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم. - الرياض: المركز، ١٤١٨هـ. - ١٢٥ ص. - (سلسلة شهادات: ١).

لتوفر هذا الكتاب الكريم في المساجد أصبح المرء غير معذور في قراءة آيات بينات من القرآن الكريم، وهو في انتظار الصلاة، أو بعد أن تنتضي الصلاة، بحيث يجعل له برنامجاً ثابتاً، يعود فيه إلى كتاب الله، فلا يشكو، عندها، القرآن الكريم أنه أضحى مهجوراً قراءةً وتطبيقاً؛ إذ إن قراءته ستعين - بإذن الله - على تطبيقه، أي تطبيق ما فيه من أحكام.

الذي يسترعي الانتباه، كلما دخلت مسجداً من بيوت الله في هذا البلد المبارك، هو كثرة المصاحف المنتشرة أمام المصلين، هذا في الوقت الذي تصل فيه للمجمّع طلبات من مساجد أخرى، قد لا تكون في الداخل، تطلب مزيداً من المصاحف. وتقرأ باستمرار توجيهات ولي الأمر - وفقه الله - بتزويد هذه المساجد والمراكز الإسلامية، في الداخل والخارج، بالمزيد من نسخ المصحف الشريف.

أطرح هنا اقتراحاً علمياً، ينظر إلى كثرة المصاحف في المساجد، في مقابل الإقبال على قراءتها. وأسأل سؤلاً، يحدد هذا الاقتراح، وهو كم مصحفاً يحتاجه كل مسجد، بناء على العدد التقريبي للمصلين في هذا المسجد؟ وكم مصلياً، ممن يترددون على المسجد، يقرأون قبل إقامة الصلاة، وبعد انقضائها؟ وهذا يعني أن هناك نسبة من المصلين يحرصون على قراءة القرآن الكريم في هذه الأوقات.

حتى في شهر رمضان المبارك، عندما يكثر الإقبال على تلاوة كتاب الله تعالى، يظل السؤال قائماً: ما هي نسبة قارئ كتاب

الله من عدد المصلين في المسجد؟ فإذا تبين - مثلاً - أن النسبة هي ١٠٪، وأن عدد المترددين على المسجد في كل الأوقات يصل إلى خمسين مصلياً، معنى هذا أن خمسة منهم يقرءون كتاب الله، في الأوقات المذكورة، ومعنى هذا أن المسجد بحاجة إلى خمسة مصاحف لكل خمسين مصلياً. وللاحتياط يضاعف العدد إلى عشرة مصاحف لكل خمسين مصلياً. ولو طبقت هذه النظرة على جميع المساجد كم سيوفر من المصاحف توزع على أماكن أخرى من العالم. وبالتالي تعم قراءة القرآن، فينال المتسبيون في نشر كتاب الله تعالى مزيداً من الأجر والثواب.

إنني أطرح هذه الفكرة على مركز البحوث والدراسات الإسلامية الذي يعمل تحت مظلة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ليكون هذا الموضوع مجالاً من مجالات البحث الميداني، التي يقوم بها المركز، هذا إذا كانت التساؤلات المطروحة في أثناء هذه الوقفة قائمة.

أزعم أنه بالقيام بهذه الدراسة، وبالتالي التقليل من أعداد المصاحف في المساجد ستكون له فوائد كثيرة، غير توفير نسخ وتوزيع، في أماكن أخرى. ومن ذلك زيادة العناية بهذا الكتاب الكريم من أئمة المساجد والمؤذنين والقائمين عليها، والحرص عليها أكثر مما هو قائم الآن، فإن هناك حالات نجد فيها نسخاً من المصاحف قد تمرقت، وظهر عليها شيء من التلف في الورق، ومع هذا فهي باقية، رغم طرق سحبها من المساجد، وتلفها بهذه الصورة ناتج من الشعور بأن البديل موجود ومتوافر. وأترك التفصيل

السعوديون والخصوصية

٢٧٠

الأكثر من هذا إلى الدراسة التي أقترحها على المركز إذا ما رأى
القائمون عليه من جدوى لهذه الدراسة.

* * *

الوقفه الثانية

الأمر بالمعروف

إن مما تستقيم به المجتمعات في استقرارها وأمنها وطمأنينتها قيام جماعة من أبنائها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : «... إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها، وقد قال تعالى: ﴿... لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾ (هود ٧)، وهو، كما قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - : «أخلصه أصوبه». فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة، فالعمل الصالح لا بد أن يراد به وجه الله تعالى، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده، كما في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(١).

لا بد في الأمر والنهي من ثلاث خصال هي: العلم والرفق والصبر، فلا بد من العلم بالمعروف والمنكر، والتمييز بينهما، ولا بد

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرفائق، باب من أشرك في عمله غير الله.

من العلم بحال المأمور والمنهي، وفي هذا يقول المصطفى ﷺ «العلم إمام العمل، والعمل تابعه»، ولا بد من الرفق في الأمر والنهي كما قال ﷺ: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء غلا شأنه»^(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف». ولا بد من الحلم والصبر على الأذى، يقول الله تعالى: ﴿وَأُمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان ١٧).

ينقل ابن تيمية عن أبي يعلى في: المعتمد أثراً نصه: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه، ورفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه»^(٢).

الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم، فكل بشر على وجه الأرض لا بد له من أمر ونهي، ولا بد أن يأمر وينهى، حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها. ولا أزال مع شيخ الإسلام في هذا المجال إذ يقول: «وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم،

(١) رواه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ. حديث رقم ٦٤١٥. ورواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق. حديث رقم ٤٦٩٧.

(٢) أحمد ابن تيمية. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. - ٣٧ مج / جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي. - الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م. - ٢٨: ١٣٧.

فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، وبينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله، ويؤمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، وبينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله، وإلا فلا بُدَّ أن يأمر وينهى، ويؤمر ويُنهى، إما بما يضادُّ ذلك، وإما بما يشترك فيه الحق، الذي أنزل الله بالباطل، الذي لم ينزله الله، وإذا اتخذ ذلك ديناً كان ديناً مبتدعاً»^(١).

لقد فصلَّ شيخ الإسلام ابن تيمية في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في المجلد الثامن والعشرين من الفتاوى في كتاب الجهاد، كما أفرد هذا الموضوع بكتاب مستقل، ظهر تحت عنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من باب فرض الكفاية، الذي يسقط فيه التكليف عن الجميع إذا قامت به جماعة من المسلمين، فإن هذا لا يعني الاتكالي التام على هذه المجموعة، التي تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أنه لا يعني بحال أن يتصرَّف المرء في هذا الموضوع كما يحلوه، أو كما يظن أنه يجلب مصلحة، بينما هو في نهاية الأمر قد يجلب مفسدة، ليس على الأمر فحسب، بل على المأمورين وعلى المجتمع، ولذا اشترطت هذه الشروط الثلاثة في الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر: العلم والرفق والصبر.

(١) أحمد ابن تيمية. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية. - المرجع

السابق. - ٢٨ : ١٦٩.

من ليس لديه علم لا يأمر ولا ينهى، ومن لديه جنوح نحو الحدة والقسوة والعنف لا يأمر ولا ينهى، ومن لديه عدم قدرة على التحمّل والصبر لا يأمر ولا ينهى. وأمور الدين كلها لا تؤخذ بالحماس، وبتغليب العاطفة، بل تؤخذ على وزن الأمور بالميزان الشرعي، وعرضها على الأصول والقواعد الفقهية التي يبرز هنا منها واضحاً أصلُ درء المفساد مغلبٌ ومقدّمٌ على جلب المصالح.

يقول هاني أحمد زكي يماني في كتابه: السعودي: «علينا أن ندرك أن هيئة الأمر بالمعروف هيئة فريدة من نوعها، تقتصر على المملكة العربية السعودية، وهي من تراث ماضينا، بمقدار ما هي جزء من مستقبلنا. وهي تؤدي دوراً مهماً في مكافحة المشروبات الكحولية، والمخدرات التي من المؤسف أنها انقضت على نسيجنا الاجتماعي وعلى شبابنا. وهي تضطلع، أيضاً، بمراقبة النشاطات الإرهابية لبعض الجماعات الأصولية المتطرّفة في مجتمعنا، باعتبار أن بإمكان الهيئة أن يفهموا الأسباب الحقيقية للتصرفات الدموية التي تخلُّ بالاستقرار، والتي تصدر عن هذه الجماعات»^(١).

لو خلت المجتمعات من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فسدت فساداً يظهر لبعض الناس، ولا يظهر لآخرين. ولا بدّ من وسيلة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقدر الوسائل بقدرها، بحيث تتناسب مع الأعراف والبيئات، بعد أن تتفق مع القواعد الشرعية.

(١) هاني أحمد زكي يماني. السعودي. - بيروت: دار الساقي، ١٩٩٩م. - ص.

الوقفه الثالثة

دعوة الجاليات

تضطر بعض المجتمعات المسلمة إلى الاستعانة بالطاقات البشرية من غير المسلمين. وهذا يصدق على منطقة الخليج العربية، بما فيها المملكة العربية السعودية. ووجود غير المسلمين في المجتمعات المسلمة يضيف مسؤولية على مسؤوليات الدعاة إلى الله تعالى في الداخل، فهؤلاء العاملون من غير المسلمين يعيشون حياة المجتمع المسلم، التي تتسم بالهدوء والاستقرار والبساطة، البعيدة عن مشكلات الحياة، الموجودة عادة في المجتمعات المادية.

وجود هذه الأجواء يهيئ البيئة الطيبة لإقناع هؤلاء بالتفكير الجاد في الإسلام. وقد فكر كثير من الموجودين جدياً بالإسلام، وانتهى بهم التفكير إلى اعتناق الإسلام، بفضل من الله تعالى، ثم بفضل الجهود الدعوية، التي يقوم بها رجال ونساء نحسبهم قد صدقوا ما عاهدوا عليه، وبفضل مفهوم القدوة، الذي يعيشه ويحسُّ به غير المسلمين في مجتمع مسلم.

إنه لمن التقصير أن يفد مجموعة من غير المسلمين إلى مجتمع المسلمين، دون أن يخرج هؤلاء بمعرفة صحيحة واضحة عن الإسلام، بغض النظر عن دخولهم في الإسلام واهتدائهم، فالهداية هذه هي هداية التوفيق، التي اختص الله تعالى بها. ويبقى على

المسلمين مواصلة أساليب هداية الدلالة والإرشاد، وأداء الواجب والأمانة التي حملها المسلمون على أعناقهم.

من الظواهر الطيبة في هذه البلاد الخيرة انتشار مكاتب تعاونية لدعوة الجاليات إلى الإسلام، تعمل تحت مظلة وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، وتقوم هذه المكاتب بجهود مباركة وموفقة - بإذن الله تعالى - من خلال اللقاءات والمحاضرات والترجمة للكتب النافعة إلى اللغات، التي يتحدثها معظم العاملين الوافدين إلى المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربية.

معلوماتي المحدودة أن أول من قام بهذا الجهد، ولعل الأصح أن أقول إن من أول من قام بهذا الجهد رجل نحسبه مخلصاً، تبيّه إلى ضرورة دعوة غير المسلمين إلى الإسلام في بلاد المسلمين، فبدأ الشيخ عبد العزيز التويجري بجهد متواضع وسط مدينة بريدة بمنطقة القصيم، وما لبث هذا الجهد المتواضع حتى أضحى عملاً منتظماً، وانتشرت الفكرة على مستوى البلاد، لما لوحظ من جدوى هذه الطريقة، بالإقبال الطيب من غير المسلمين على اعتناق الإسلام، علماً أن وجود هذه الفئة من العاملين وجود مؤقت، لا يلبثون أن يعودوا إلى بلادهم يحملون الدين الحنيف إلى أهلهم وذويهم، فيصبحون دعاةً لله في بلادهم وبلغتهم وبإدراكهم لتشافتهم، بعد أن يتلقوا جرعات دعوية وعلمية في المكاتب التعاونية لدعوة الجاليات.

يقوم على هذه المكاتب المنتشرة رجال ونساء، نحسبهم من المخلصين، ومعظمهم يعملون تطوعاً في الأعمال الإدارية والأعمال العلمية، كالمحاضرات واللقاءات العلمية، والترجمة إلى اللغات الأخرى، ويستمدون مادّتهم المالية بتوفيق من الله تعالى ثم من رجال الخير، الذين يدركون مدى جدوى هذه المكاتب، وما تحقّقه من خير كثير، هو في ميزان حديث المصطفى ﷺ - خير لهؤلاء من حُمر النعم، ذلك أنه يهتدي على أيدي هؤلاء، بعد توفيق الله وهدايته، خلق كثير.

بدأت هذه المكاتب سلسلة من الاتصالات التعاونية، التي تسعى إلى التنسيق فيما بينها، في توحيد الجهود، والابتعاد عن الازدواجية في الأعمال العلمية، لاسيّما الترجمة والمحاضرات. وأنشأت وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد مكتباً، أو إدارة للتنسيق بين هذه المكاتب، تتحقّق من خلال هذه الإدارة الراغبة في الإشراف والمتابعة، والتوكيد على التعاون بين هذه المكاتب التعاونية. ويعمل بهذه الإدارة بعض الأشخاص تطوعاً في المساء في بعض المكاتب التعاونية، وتشجّع الوزارة هذا النشاط، من خلال الإسهام فيما يمكن أن تسهم به الوزارة من الدعم، وترعى أنشطة المكاتب، وتحضر الحفلات الختامية لها، وتسهم، من خلال المسؤولين فيها، بالتوجيه بكلمات طيبة تشجيعية، تُلقى في هذه المناسبات. وهذا جهدٌ تشكر عليه الوزارة، ولعلها بهذا الدعم والتشجيع والمساندة والمشاركة والتوجيه تنال من الأجر العميم الذي يُنتظر - بإذن الله تعالى - من وراء هذه الجهود المباركة.

تقوم مكاتب دعوة الجاليات بتنظيم أساليب الدعوة التي تتناسب مع غير المسلمين، فتتقدم المحاضرات، وتقوم بترجمة الكتب العلمية والرسائل، التي يكتبها علماء الأمة إلى اللغات التي تفهمها هذه الجاليات، كما تقوم بتسجيل الأشرطة المسموعة والمرئية المسموعة للمحاضرات، التي تُلقي في المكاتب وخارج المكاتب، حيث تقوم هذه المكاتب بالجولات الميدانية في الأماكن التي يوجد بها غير المسلمين. ويتم عرض الإسلام بالحكمة، دون إثارة المشاعر، أو التعرض لموضوعات فيها حساسية، قد تؤدي إلى الإعراض عن الداعين، بدلاً من الإقبال عليهم، وعلى الدعوة.

الحق أن الجميع بحاجة إلى الدعوة في أي مكان من العالم الحديث، والأحاديث مع الذين يهتدون إلى الإسلام تؤكد على مدى الطمأنينة التي يصل إليها المهتدون إلى الله تعالى. فإذا كانت هذه الحاجة قائمة في كل مكان، فإن قيامها في المجتمع المسلم من باب أولى لعدة اعتبارات، من أهمها:

- توافر العلماء وطلبة العلم في المجتمعات المسلمة،
- توافر الكتب والمعلومات عن الإسلام في المجتمعات المسلمة، والقدرة على الانتقاء من مجموعة هذه الكتب ووسائل نقل المعرفة،
- توافر الإمكانيات البشرية من الدعاة والعاملين في مجالات الدعوة، ومن الأفراد المساعدين، وإن لم يكونوا على مستوى متقدم في مجال الدعوة إلى الله تعالى، على أن كل مسلم داعية

إلى الله بالضرورة، بما لديه أو لديها من العلم، فالرسول ﷺ يقول: «بلغوا عني ولو آية»،^(١)

• توافر الدعم والإمكانات المادية، عن طريق الدولة، وعن طريق المحسنين ورجال الخير، الذين يفتقدون على أعمال الخير، عندما يسمعون عنها وعن القائمين عليها.

لا يعني التوجُّه إلى غير المسلمين بالدعوة عدم حاجة المسلمين أنفسهم إلى الدعوة، فالكُل يحتاج إلى الدعوة. وهناك من يسعى إلى دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، بالطرق أو الوسائل المناسبة لهم. وليس المجال هنا مجال الأولويات أو الأفضلية في دعوة مَنْ، فالخير، بفضل الله تعالى، يمكن أن يعمَّ الجميع، والطاقت الدعوية من أبناء الإسلام ميسرة للعمل في مجالات شتى من مجالات الدعوة إلى الله.

(١) سبق تخريجه من رواية البخاري.

الوقففة الرابعة

الدورات التوعوية

تطلق كل صيف من هذه البلاد الطيبة جموع من العلماء وطلبة العلم الشرعي، في دورات تعليمية تدريبية للأئمة والدعاة بين الأقليات المسلمة والجاليات الإسلامية، وبعض البلدان الإسلامية التي يلحظ فيها قلّة العلم الشرعي. وهذا نهج مبارك بدأته الجامعات السعودية، مثل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وجامعة أم القرى بمكة المكرمة وبقية الجامعات الإسلامية في أنحاء البلاد. وقد كان لي شرف المشاركة في دورة من هذه الدورات قبل عشرين سنة، عشت خلالها مدى الحاجة إليها، والتسارع في طلب الانخراط بها، لاسيما أنها دورات مكثفة وعملية وجادة، ثم إنها لم تكن تعاني من نقص في الإمكانيات البشرية والمادية.

لحق، أو زامن انطلاقها من الجامعات السعودية، إسهام جهات بعينها، رأت الفائدة منها ظاهرة، فكانت بعض سفارات خادم الحرمين الشريفين في واشنطن ولندن والشرق والجنوب على حد سواء، ومن بين الجهات التي أسهمت، كذلك، دخول بعض الموسرين من المحسنين من ذوي الرغبة في ترك أعمال لله تعالى، ولذا تراهم لا يرغبون في ذكر أسمائهم.

ثم أنشئت وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد فواصلت هذا النهج الطيب، الذي عايشه وزيرها السابق معالي الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، عندما كان مديراً لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فنقل معه هذه التجربة الموقّعة إلى الوزارة. والوزارة معنية بذلك عناية مباشرة، ولذا فإن جهودها واضحة في هذا السبيل من سبيل نشر الإسلام بصورته الواضحة الصحيحة، الخالية من عوامل التخلف، التي منيت بها بعض المجتمعات المسلمة، بسبب قلّة العلماء، وانتشار "المتعلمين/المتفقيهيين"، الذين أضحوا يفتون بغير علم، ولكن بحسن نية، غالباً، فيضلّون ويضلّون. وهي نعمة من الله تعالى على هذه البلاد، وبعض البلاد الإسلامية الأخرى، التي أولت عناية متواصلة للعلم الشرعي ومؤسساته التعليمية والتثقيفية، وجهاته التوعوية.

لا تزال هذه الدورات تترى بعناية مباشرة من لدن خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبدالعزيز، الحريص دائماً - رعاه الله تعالى - على تقديم الدين الإسلامي، بصورته المعتدلة المتسامحة، البعيدة عن الإفراط والتفريط، النابذة للغلو في الدين، والغلو في تجاهله. ثم إنها تلقى عناية خاصّة، كذلك، من لدن الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ومن لدن آخرين، أعلم أنهم لا يفضلون ذكر أسمائهم، وإن كنت أرغب في ذكرها، من باب قولنا للمحسن أحسنت، إلا أنهم - وفقهم الله

تعالى - يخشون أن يُساءَ فهمُ ذكرِ أسمائهم، وهم يبغون من دعمهم ورعايتهم للدورات وجه الله تعالى والدار الآخرة، وأحسب أن كل العاملين في هذا المجال إنما يبتغون وجه الله تعالى والدار الآخرة، ولذا نجد هذا الاستمرار في القيام بالدورات سنة بعد أخرى، ونجد النجاح الذي تنتهي به هذه الجهود المباركة، منذ ما يزيد عن عشرين (٢٠) عاماً.

بارك الله في الجهود، وجزى الله خير الجزاء من يقف وراءها، ويحرص على أدائها مهماتها في تقديم الإسلام للغير، بالصورة التي ينبغي أن تقدم عليه، ليزداد الإقبال على فهمه، ثم يزداد تأثيره في النفوس، في وقت سعت فيه بعض القوى إلى إضعاف تأثيره في النفوس. (١) ولا أشك في أن التجارب الماضية أكسبت هذا النهج مساراً طيباً، لاسيماً أن هناك وقفات تقويم لكل دورة على حدة، يستفاد منها فيما يأتي من دورات.

* * *

(١) هاملتون جيب. وجهة الإسلام. - نقلاً عن: علي بن إبراهيم الحمد النملة.

التصوير. - مرجع سابق. - ص ٥٧ - ٥٨.

الوقفة الخامسة

فعل الخير

من المظاهر الصحية في المجتمع المسلم، اليوم، الالتفات إلى المشكلات التي يواجهها المجتمع. ومن أبرز هذه المشكلات في الوقت الحاضر هي مشكلات الفقر والجهل، ثم المرض، الذي قد يتولد عن الفقر والجهل. الفقر والجهل كانا على مستوى أشد مما هما عليه الآن في زمن مضى. ولكن الالتفات إليهما، مع المرض، هو اليوم أكثر مما كان عليه في زمن مضى، ولذا تبرز هذه الظواهر الثلاث بروزاً قوياً بين المسلمين.

مما يدخل في هذا المفهوم ضمناً الاضطهاد، الذي يتعرض له المسلمون في المجتمعات التي يقل فيها المسلمون عدداً، أو في المجتمعات التي ترفض، إلى الآن، أن تكون للإسلام كلمة أولى في مسيرة الحياة، ولذا، ومع الوعي المتنامي بين المسلمين، نجد الالتفات إلى ما يعانيه المسلمون من صنوف الاضطاد، كما هو حاصل في البوسنة والهرسك وفي الهند وكشمير وبورما والفلبين وأفريقيا عموماً. هذا الاضطهاد، لم يكن جديداً في هذه الأماكن وغيرها، بل إن التنبه إليه، ومحاولة التغلب عليه هو الذي برز بروزاً واضحاً على الساحة الإسلامية، وهذا فضل من الله تعالى ومنه.

نتج عن هذا الوعي بالمشكلات التي يواجهها المسلمون العودة الملحّة إلى التفكُّب على هذه المشكلات، فظهرت الهيئات والجمعيات الخيرية التي وضعت البرامج، قربية المدى، ومتوسطة المدى، وبعيدة المدى، في سبيل السيطرة على المنقّصات التي يعانيها المجتمع المسلم.

كما تعتمد هذه الهيئات والمؤسّسات الخيرية على الأفكار والتخطيط، تعتمد كلية أيضاً - بعد الاعتماد على الله تعالى - على البذل والعطاء المناط بالمحسنين من القادرين على البذل والعطاء، بغضّ النظر عن مقدار البذل والعطاء، فهناك من ينفق الملايين في أوجه الخير، وهناك من ينفق القليل من الأموال، ولكنها عند الله كثير. والرسول ﷺ يقول: «ما نقص مال من صدقة»،^(١) والآيات الكريمة واضحة في مضاعفة الأجر للمنفقين في الدنيا والآخرة.

لو تتبّع أحدنا ما يحصل له بعد إنفاق في سبيل الله لوجدنا أبواباً من الخير جديدة تتفتّح أمامه. ومع أن هذا مقياس مادي قد لا يحصل لكل الناس، ولكنه مؤشّر قريب على صدق قوله تعالى: ﴿وَبِرِّزْقِهِ مِمَّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ^٤ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ^٥ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ^٦ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا^٧﴾ (الطلاق ٣)، ومن تقوى

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع. حديث

اللَّهُ تعالى إعطاء المال حقه في الإنفاق منه المستحق زكاةً، وغير المستحق صدقةً في سبيل الله. والنظرة السريعة للمال تبيء عن أن آخر عهد المرء به عندما ينفقه، فهو خارج من حوزته، فليكن خروجه في سبيل الخير.

المؤسسات والهيئات والجمعيات الخيرية لا تقوم إلا على هذا الدعم، الذي تلقاه من المحسنين، سواء أكان هذا الدعم مادياً بالإنفاق أم كان على سبيل الإسهام، بما يملكه المرء من الخير، فإن كان يملك علماً بذله للناس ولم يكتمه، وإن كان يملك طاقة أسهم بها في الأعمال التطوعية في هذه المؤسسات والهيئات الخيرية، سواء أكان هذا العمل التطوعي داخل البلاد أم خارجها. وإن كان يملك النصيحة أو المشورة أسداها للعاملين، وفتح لهم أبواباً للخير، يصلون من خلالها للمحتاجين دون عناء كثير، وهكذا.

ليس العمل الخيري موقوفاً على مجموعة من الأشخاص المحتسبين، فالاحتساب مفتوح للجميع، واعلم أن مع الاحتساب يأتي الالتزام بما يمكن أن يقوم به المتبرع بماله أو بوقته أو بعلمه أو بجهده أو برأيه. وتكتسب هذه الجمعيات والهيئات الخيرية الثقة بقدر ما تقدم من خدمات، وبقدر ما يظهر من نتائج لأعمالها، وبقدر ما تكون منظمة قادرة على إطلاع المحسنين على الجهود التي تقوم بها في المواطن التي تحتاج إلى الجهود.

إن مشكلات المسلمين تجدُّ، اليوم، بفضل الله تعالى، المعالجة من المسلمين أنفسهم، إذ إن الجسد المسلم يتداعى بالسهر

والحمى، لبعض أعضائه التي تعاني من المشكلات. وهذا التداعي المتزايد يأتي نتيجة من نتائج العودة الصادقة - نحسبها كذلك - إلى الله تعالى في هذا المجتمع المسلم، العودة التي تحتاج إلى المزيد من العطاء أولاً، ثم المزيد من الثوابت التي تستطيع الوقوف عليها بقوة.

العمل الخيري سمه من سمات هذا المجتمع المتميز، قيادةً وأمةً، وهو امتداد لمطلب شرعي في تفقد الناس، والوقوف مع المحتاجين، وتحقيق التكافل الاجتماعي. وهذا العمل ليس جديداً على هذا المجتمع، بل إنه يجري فيه مجرى الدم، على المستوى الخاص والعام. ومن ميزاته الرغبة الملحة في عدم إعلانه، خوفاً من بطلانه، وانتفاء الأجر منه. ويأتي قيام الجمعيات والمؤسسات الخيرية، تمثيلاً مع روح العصر الذي يفرض اليوم وجود قدر كبير من التنظيم والتخطيط والمتابعة. ولذا كان من المناسب جداً أن تبدأ هذه البلاد في مسألة تطهير العمل الخيري، ووضع الضوابط المرنة له، قصداً إلى قطع الطريق على جميع من يحاول استغلال الطيبة التي يتسم بها أهل هذه البلاد.

الوقففة السادسة

نشر الدعوة

يطيب الحديث عن العمل الخيري المعنوي الذي ينعكس على المجتمع بالخير في دينه ودنياه. ويأتي في مقدمة هذا العمل الخيري المعنوي الدعوة إلى الله على بصيرة. بل إن الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة يمكن، دون تجوُّز، عدّها الإطار العام الذي يدخل فيه أي عمل يراد به وجه الله تعالى والدار الآخرة، إلا أن التركيز هنا على الدعوة، التي يراد من ورائها توعية المجتمع المسلم وتبصيره ودلّه إلى العلم النافع.

ذلك أن مما يعانيه المجتمع المسلم في بعض جنباته، وهي ليست قليلة، العلمُ النافع، فقد اختلطت المفهومات في بعض المجتمعات المسلمة، واختلط الحقُّ بشيء من الباطل، الذي ألبس لباس الحق، فكثرت البدع، وتعدّدت الخرافة على أنها من الإسلام، بل ربّما غلبت البدعة والخرافة في مجتمعات بعينها، بحيث أصبح الحق هو الغريب، وهو الذي يعدُّ بدعة، بل ربّما عدُّ خرافة. وتجد صعوبة في تقبُّل الحق على حساب البدعة والخرافة، وهذه هي حال المجتمعات التي تعي الآن وتعود عودة صادقة إلى الله تعالى، يقوم فيها نوع من الصراع بين الموروثات الشعبية المحلية، التي أريد لها الزواج باسم

الإسلام، والإسلام لا يقرُّها بحال. بل إن من مهماته التخلُّصَ منها، وتخليص العباد منها.

الصعوبة في التغيير ليست ناتجة من طبيعة البديل الإسلامي الحق، فهذا البديل يتَّفِق مع الفطرة، ويقبله العقل، ولكن الصعوبة في التغيير تكمن في تأصُّل البدعة، وعدم الرغبة في التخلِّي عنها، اعتقاداً أنها من الإسلام، وقد مضى زمن طويل على تأصُّلها، بحيث صعب التخلِّي عنها بوقت قصير. وتأصُّل البدعة في أي مجتمع يعدُّ خللاً في عقيدة المسلم، يوصل في بعض الممارسات إلى الشرك، ولكن المواجهة بالشرك مدعاة إلى لفظ الداعية، وإخراجه من المجتمع الذي يدعو فيه. كما أن تأصُّلها يعد نقصاً في الإيمان، إذا لم تصل الممارسة إلى حد الشرك.

من هنا يأتي أثر العمل الخيري المعنوي، القائم على الدعوة، الذي يتطلَّب، دون شك، العلم بالمدعو له والعلم بالمدعويين، كما يتطلَّب الرفق بالمدعويين، والصبر على الدعوة بينهم، ومن متطلباته المهمة، أيضاً، الداخلة في مفهوم الرفق تلمُّس الوسائل، والعمل على الوصول إلى الهدف، بغضِّ النظر عن زمان الوصول إلى الهدف.

لعل مما يقع فيه بعض الدعاة أن إقامتهم في مجتمع ما محدودة جداً، من حيث الوقت، ويريدون التغيير الشامل في هذا المجتمع في الوقت المحدود جداً، فلا يبلغون حدًّا مفيداً في التغيير. ولو قدرٌ للداعية أن يزن ما يريد الوصول إليه بالوقت المتاح للوصول إليه، ثم يوزِّع الدعوة إلى مراحل لاستطاع أن يحقق مراحل يسمح

بها الوقت المتاح، ليوصل في وقفة أخرى، أو ليسند بقية المراحل إلى من يأتي بعده، وهكذا.

في أحد المجتمعات، التي يكثر فيها تعليق التمايم القائمة على الخرافة، تبعض الدعاة في إقناع الناس بخلع هذه التمايم. وأفلح بعض الدعاة في الإقناع، القائم على الحجّة، مع استخدام عامل الزمن، الذي ساعد على الإقناع، وعلى قبول الحجّة. وأذكر، هنا، مثلاً واحداً في التعامل مع التميمة التي تعلّق على الصدر أو توضع في مكان ما، وهي مختومة لا يُعلم ما بداخلها، إذ قام أحد الشباب بعد أن وثق به الناس بإعلان التحديّ على أن محتوى التميمة ليس قرآناً، إذا صحت التميمة بالقرآن، تعلّق على الصدر، ووضع مبلغاً من المال يزيد على الثمن الذي دُفع للتميمة، فإذا تبين أن ما بداخل التميمة آيات من كتاب الله كان المبلغ من نصيب معلق التميمة، وإذا ثبت أن ما بداخل التميمة أي شيء غير آيات من كتاب الله تعالى فإن على معلق التميمة التخلّص منها. فتصدّى جمهور من الحاضرين لهذا التحديّ، وفتحوا تمايمهم، فما وجدوا فيها إلا خطوطاً متعرجة، لا يجمعها شكل ولا أسلوب، فما كان منهم إلا أن تقموا على ذلك المشعوذ، الذي باعهم هذه المصائب، التي كان لها أثر على عقائدهم. تتبّع مثل هذه الأساليب مع أصحاب البدع الأخرى، من أولئك الذين يعتقدون في البشر، مثلاً، أكثر مما خلقهم الله تعالى عليه، من القدرة وهم أحياء، والجمود وهم أموات.

الوقف السابعة

العمل الإغاثي

المملكة العربية السعودية كيان له معنى متميز، فكلماً أُطلق هذا اللفظ دلّ دلالة خاصّة، لها مدلولاتها التي تعيد هذه البلاد إلى ما قامت عليه من مبادئ ومثُل، مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن طبيعة هذه المبادئ والمثُل أنها تتطلّب النشر بين الناس، لما فيها من الحق الذي يبحث عنه كثير من الناس. وليس المقصود بهذه العبارة أن فيها شيئاً من غير الحق، حتّى لا تفهم العبارة كذلك، بل إننا نعتقد أن هذه المبادئ والمثُل هي حق لا شك فيه. ومن هذا المنطلق يأتي مفهوم الإغاثة السعودية، بحيث لا تقتصر على الإغاثة المادية، فالعالم اليوم بحاجة إلى إغاثة فكرية وروحية، جنباً إلى جنب مع الإغاثة المادية، من طعام ولباس ودواء ومسكن.

المنتظر من الإغاثة السعودية أن تكون متميزة بتميز المملكة العربية السعودية، بحيث يستمرّ مفهوم الإغاثة، حتّى بعد انتهاء مسببات طلب الإغاثة، ومن ذلك إقامة المراكز والمؤسسات، التي تشهد على وصول الإغاثة السعودية، في أماكن تحتاج إلى الإغاثة، وتُمكن المملكة العربية السعودية من نشر الخير والإسهام، في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الفساد الاجتماعي إلى اللحمة الاجتماعية، ومن تصدّع الأسر إلى

تماسُكها، كل ذلك على منهج من الوسطية والسماحة والاعتدال والوضوح والشفافية.

المملكة العربية السعودية - بفضل من الله تعالى - ثم بوجود الطاقات العلمية العاملة قادرة على «ترسيخ» وجودها المستمر في أي مكان، وبالطرق المشروعة نظاماً، وداخل الإطار الرسمي الذي يسمح بذلك، في تلك الأماكن، وبموجب الاتفاقيات الدولية والثائية بين البلدان، ووجود الطاقات الخيرية التي تبحث عن الجهة الموثوقة التي تعينها - بعد عون الله تعالى - على حسن استغلال أموال الزكاة والصدقة في مصارفها المنتظرة، وهي - ولله الحمد - تذهب في مجالاتها، ولا أرى أن سوء استغلالها وارد، إذا ما عرف المنفقون الجهات التي تستقبلها وتصرفها في طرقها.

المهم أن يكون للإغاثة السعودية طابع الاستمرارية في التأثير الثقافي والفكري والعلمي، بالإضافة إلى التأثير المادي المؤقت. وهذا يحتاج إلى جهود المخططين لهذه الجهود المستمرة، وإلى الأماكن والمناهج والمعلومات والطاقات والإمكانات. ومع دعم الدولة لكل هذه الجهود وتوجيهها التوجيه الذي يضمن صرفها في نظامها ستصل هذه الجهود - بإذن الله - إلى أهدافها.

أرجو أن نتجاوز مفهوماً مهماً يتعلق بمدى إسهام المملكة العربية السعودية في مجالات الإغاثة؛ لأنها، بفضل الله تعالى، قد فرضت وجودها في المجتمع المسلم، ونالت التقدير من المجتمع الدولي، نظراً للاعتدال الذي تتسم به الإغاثة السعودية، مع الأخذ في الحسبان أن منطلق هذه الإغاثة إنما هو تمشُّع مع الأمانة التي

تتحملها المملكة العربية السعودية، بما تميله عليها عقيدتنا الإسلامية، فتوجهات هذا البلد معلنة وواضحة ومفهومة.

الذي ينبغي الإشادة به، هنا، هو التطور في العمل الإغاثي، نتيجة لعمق التجربة، وتكوين العراقة والخبرة، وذلك من خلال إيجاد أعمال إغاثية ثابتة، كالمراكز الثقافية والمدارس والمؤسسات التعليمية والتدريبية الأخرى، بالإضافة إلى الإغاثة الآنية المتمثلة في الغذاء والكساء والمسكن، فلم تأت الإغاثة الثابتة على حساب الإغاثة الآنية، ولم تقف الإغاثة الآنية في طريق الإغاثة الثابتة.

إذا كانت الإغاثة المؤقتة تزول بزوال أسبابها، فإن الحاجة إلى الثابت منها قائم ومستمر، وسيظل الناس بحاجة دائمة إلى التوجيه السليم المعتدل في أمور دينهم ودنياهم، ومن هنا تأتي المؤسسات الثقافية والدعوية والعلمية لتسد هذه الحاجة. وهذا ما توجهت إليه الإغاثة السعودية في أماكن متعددة، ومنها البوسنة والهرسك، وكوسوفا، وغيرها من البقاع التي تعرضت لنوائب الزمان من حروب وكوارث.

العمل الخيري يدين هذه البلاد الطيبة حتى في الأيام الخوالي، التي لم تظهر فيها النعم التي أفاء الله بها على أهل هذه البلاد. ومعروف عن القيادة إسهامها المتواصل في الأعمال الخيرية التي لا تنتظر الجزاء إلا من الله تعالى، ولذلك يتجنب أهل الخير الأعمال الإحصائية التي تحصر ما قاموا به من إسهامات.

إن العمل الخيري، في المملكة العربية السعودية، يؤسس للعلاقة في مجال مساعدة من يستحقون المساعدة، بأي شكل من أشكال المساعدة، وبالأسلوب الشرعي الذي يحرص على أولئك العفيفين الذين لا يسألون الناس إلحافاً. وهي خطوة مباركة ينتظر أن تتبعها خطوات تالية، تحقيقاً لمبدأ التكافل الاجتماعي. وتلمس حاجات المحتاجين، والأخذ بأيديهم، واليد العليا خير من اليد السفلى.^(١)

* * *

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى. حديث رقم ١٣٣٨. ورواه مسلم في كتاب الزكاة، باب أن اليد العليا خير من اليد السفلى. حديث رقم ١٧١٦.

الوقفه الثامنة

تنسيق العمل الإغاثي

من الخطوات المباركة في هذه الأعوام الأخيرة ظهور نوع من التنسيق الواضح بين الجهات الخيرية، التي تجمع التبرعات داخل المملكة العربية السعودية لتقلها خارجها، في مجالات الإغاثة والدعوة ورعاية الشباب المسلم. يظهر هذا واضحاً في شهر رمضان المبارك، عندما تجتمع هذه الهيئات والمؤسسات والجمعيات في افتتاح حملات التبرع في مناطق المملكة على شرف ورعاية مباشرة من أصحاب السمو أمرائها. وكان موقفاً رائعاً تلاحم هذه الجهات مع بعضها، في ليلة من لياليها الموقفة، مما أوجد مزيداً من الثقة بها لدى المتبرعين بصدقاتهم وزكواتهم وهباتهم، التي سيخلفها الله لهم خيراً منها.

هذا التنسيق الذي ظهر في بداياته على الملأ كان موجوداً من قبل، ولكنه تجسّد بهذا النشاط السنوي، الذي كانت تقيمه عادة هيئة واحدة، هي هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية في مناطق المملكة التي لها فيها فروع، ثم وجدنا أن الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وغيرها تتسابق على هذا التوجّه المبارك، المبني على إيجاد آلية واضحة في التنسيق، ليس في الداخل فحسب، ولكن في وجوه الإنفاق كذلك.

لقد لمست ذلك قبل ذلك، حينما ذهبت إلى كوسوفا، موفداً من لدن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - غفر الله له - فوجدتُ أن هذه الهيئات قد اجتمعت تحت لواء لجنة مشتركة، يشرف عليها الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية، ووجدتها قد توازعت مناطق كوسوفا، وتمنيت أنها لم تتوازع المناطق، بقدر ما تتوازع الأدوار، بحسب ما يغلب على اختصاصها.

هذا ما لا أزال أتمناه من تنسيق بين جميع الهيئات العاملة في الخارج، أن تتوازع الأدوار، بحسب ما يغلب على اختصاصها، فتركز هيئة الإغاثة على الإغاثة العينية بالمشروعات التنموية والإغاثة العاجلة والمستمرة الدائمة، وتركز الندوة العالمية للشباب الإسلامي على ما هي تركّز عليه من رعاية الشباب، بشتى الوسائل التي أوضحت فيها على خبرة تامّة. وتركز جمعية أخرى على الجانب الدعوي، وثالثة على الجانب التعليمي، ورابعة على الجانب التدريبي، وخامسة على الجانب الصحي والطبي، وسادسة على الجانب الاجتماعي، وهكذا.

الملاحظ والمهم هنا أنني أطلب التركيز، وهذا يعني عدم إغفال الجوانب الأخرى، التي تركّز عليها كل هيئة من قبل الهيئات الأخرى، فإن مجال الدعوة مثلاً، ثم الإغاثة، ثم العناية بالشباب مطلبٌ عام من جميع الهيئات، ولكن الأمر هنا ينصبُّ على التركيز، بحكم الخبرة السابقة والاستعداد القائم، فيكون التنسيق بحسب الاختصاص. وهذا مهمٌّ عندي جداً، وطالما دعوت إليه، عندما شرفني ربي بأن أسهم بجهد المقل في هذا المجال.

والالتقاء في هذه المناسبات السنوية بهذه الصورة الجميلة مدعاة إلى التفاؤل نحو مزيد من التنسيق بين هذه الهيئات، فيما يعود على الأمة جمعاء بالخير.

لا بُدَّ من إعطاء الفضل لذوي الفضل في مجال الإغاثة الثابتة، فكرةً قبل إن تكون تطبيقاً، ومن ذوي الفضل الذين جرى نقاش هذه الفكرة معهم الشيخ ناصر بن عبد الرحمن السعيد، ممثل الهيئة العليا لجمع التبرعات لمسلمي البوسنة والهرسك، سابقاً. وكان هذا الأمر قد نوقش قبل إن يتولى هذه المهمة، عندما أُتيح له المجال للعمل الإغاثي مع المهاجرين الأفغان على أرض الباكستان، في شمالها الغربي وجنوبها الغربي.

المعروف عن الأمير سلمان بن عبد العزيز وقوفه وراء جهود الإغاثة والأعمال الخيرية، في الأماكن التي تحتاج إلى هذه الأعمال في أفغانستان وفلسطين والصومال والبوسنة والهرسك، وغيرها مما قد يجد. وهو بحق، من واقع التعامل معه - جزاه الله خيراً - يسعى إلى دعم جهود الإغاثة، وإبراز أثر (دور) المملكة العربية السعودية، بما تحمله هذه العبارة، في الوقوف مع المسلمين في كل مكان، لتفريغ الكرب عنهم، والوقوف معهم في الشدة، كما الوقوف معهم في الرخاء. ولذا نراه يراعى هذه المناسبات ويشجّع عليها ويدعمها في سبيل جلب التبرعات وتوعية المسلمين، في بلاد المسلمين، إلى أهمية وقوفهم مع إخوانهم، باعتبار أنه جزء من واجبهم أفراداً وكيانات.

لست أنسى هنا جهود الشيخ سعود بن محمد الرشود مدير المكتب التنفيذي في الهيئة الذي قدّم ما يستحق عليه التقدير عند من يقدرّون العاملين الذين نحسب أنهم من أهل الإخلاص، فقالوا بذلك تقدير المسؤولين الذين لا يقدرّون، حقيقةً، إلا من يعملون. وذلك كله بإشراف ومتابعة مباشرة، ودعم منقطع النظر، من لدن رجل من أبرز رجال الخير في بلد الخير، صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، الذي كانت له، ولا تزال، بصماته على العمل الخيري، الداخلي والخارجي. وكان يقف على مشروعات الهيئة شخصياً، تمثّل ذلك في رحلته التاريخية المشهورة إلى البوسنة والهرسك لتدشين مشروعات خيرية هناك، على زمن رئيسها المجاهد علي عزّت بيجوفتش - رحمه الله تعالى - فهنيئاً للقيادة السعودية الموفّقة - بإذن الله تعالى - على هذه الإنجازات التتموية الإغاثية الثابتة، جعلها الله تعالى في موازين أعمالهم، والله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف ٣٠).

نحن في المملكة العربية السعودية لا نحدّد أياماً أو أسابيع أو أشهراً للإغاثة، والخير لا يقتصر على موسم من المواسم، وإن كان يحصل له تكثيف في موسم الخير والبركة في شهر رمضان المبارك، مما يستدعي الدعوة إلى المزيد من البذل والعطاء ولفت الانتباه إلى الجهات التي تحتاج إلى المزيد من الإغاثة.

الإغاثة في الداخل:

سبق لي أن وقفت مع فكرة أسبوع الإغاثة، وأكدت على أنه تمهيد للشهر الفضيل، إذ إن آثار هذا الأسبوع لا تقف بانتهائه، بل إنها - والحمد لله - تستمرُّ شهر رمضان المبارك، ثم ما يليه من الأشهر، إلى أن يأتي الموسم الآخر، ليعاد التذكير والحضُّ والحثُّ على الخير، وهكذا. وهذه ميزة تتميز بها بلاد الخير، عندما تفتح أبواب الخير لفاعليه، ليجدوا المجالات التي يسهمون بها في عمل الخير، سواء في الداخل أم الخارج، فالمجالات هنا متعددة وواسعة وطويلة المدى وقريبته.

جرى الحديث ضمناً عن فاعلي الخير، وذكرت نماذج منهم دون إذن منهم. ومن هذه النماذج من المحسنين من شملت حسناته المسلمين في الداخل والخارج. وعند الحديث عن هذه النماذج وجدت خاطرة تدعو إلى التركيز على العمل الخيري في الداخل أولاً، وربما كان منطلق هذه الخاطرة منطلقاً وطنياً، وله ما يؤيده شرعاً، إذ الأقربون أولى بالمعروف. وتكاد هذه الفكرة أن تكون «هماً» لبعض الداعين إلى «توطين» العمل الخيري. ولست أسعى إلى الوقوف في الجانب الآخر، وأدعو إلى أن يكون العمل الخيري من هذه البلاد منصباً على الخارج، لأن هذا الموقف، لو حصل، لكان من ردود الأفعال المبنية على العاطفة.

المهم في هذه الوقفة تركيز الاعتقاد في آثار العمل الخيري، مهما كانت وجهته. والذي يملك الخير ويريد الإسهام في هذا المجال فإنه مدعو إلى قدر عالٍ من التوازن، دون النظر إلى

انطباعات، ليست بالضرورة صحيحة، إذ يعتقد بعض الناس أن الأعمال الخيرية في الداخل منوطة بالحكومة، وأنها مسؤوليتها وحدها. وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه، فالحكومة بحكم مسؤوليتها تتحمل الكثير، ولكنها لم توصل الأبواب أمام الأفراد والجمعيات والمؤسسات الخيرية أن تسهم في الأعمال الخيرية، بدليل الاستمرار في الترخيص للمزيد من الجمعيات والمؤسسات الخيرية العديدة في البلاد، وجهود أصحاب السمو الأمراء، وجهود أفراد آخرين كثر، كانت لهم جهود طيبة في التعاون على العمل الخيري، في تهيئة المكان والأجهزة والأثاث وغير ذلك.

لذا فإن أعمال الخير في الداخل مطلوبة، سواء أكانت على مستوى الأعمال التطوعية الاجتماعية أم اقتصر على بناء المساجد، أم كانت جزئيات داعمة لمؤسسات خيرية قائمة. ومع هذا فإن هذا لن يصد عن الانطلاق إلى الخارج، وتلمس حاجات المسلمين إلى الأعمال الخيرية على مستوى الأفراد والمؤسسات الخيرية، بل إن الحكومة نفسها تبذل الكثير من أعمال الإغاثة وتساند مشروعات إسلامية في شتى البقاع.

* * *

الوقفه التاسعة

المراكز الصيفية

علينا أن نواجه حقيقة مجرّبة على مر السنين، مفادها أن المراكز الصيفية، التي تقام سنوياً قد أسهمت في صقل شخصيات الشباب، وعمّقت فيهم الشعور بالمسؤولية في خدمة دينهم ووطنهم. وعلينا أن نواجه حقيقة مجرّبة على مر السنين، مفادها أن لدينا على الأقل شهرين ونصفاً من صيف كل عام، تتعطل فيها الدراسة على مختلف المراحل، حتّى في الجامعات على أغلب الأحوال، وهذا يعني أن هناك أوقاتاً معطّلة، وطاقات مهدرة، تتفق في سفر أو لهو أو أي شكل من أشكال "تضييع الوقت".

المراكز الصيفية هي حلٌّ فاعلٌ من الحلول للحدّ من حجم هذه الطاقات المهدرة، وهذه الأوقات المعطّلة، ذلك أن معظم شبابنا لا يستغلّون هذا الصيف في أعمال تعود عليهم وعلى أهلهم بالفائدة، وأخشى أن يذهب الصيف "الوقت" في أعمال تعود عليهم وعلى أهلهم بالضرر.

أبرز الجهات المعنية بإقامة هذه المراكز وضبطها هي الجهات المعنية بالتعليم في هذا البلد المبارك، ويأتي على رأس هذه الجهات وزارة التربية والتعليم، التي تسهم بشكل ملحوظ في إقامة المراكز، وتوجيهها الوجهة الحسنة، وتقدير القائمين عليها

بالحوافز، التي تليق بهم، كما حدث عندما كافأت الوزارة المشاركين في مراكزها من المعلمين مكافأة معنوية، كان وقعها عليهم وعلى غيرهم أكبر بكثير من المكافأة المادية.

ثم تأتي بعد ذلك الجامعات بعمومها، والكليات التقنية والمعاهد الفنية والمراكز التدريبية التابعة للمؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني، والمعاهد العلمية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وهي معروفة، كذلك، بجهودها المثمرة في إقامة المراكز، إذ ينتظر منها إقامة مركز صيفي واحد - على الأقل - في مقراتها الرئيسية، وفي فروعها المنتشرة، بحيث تسهم بهذه المسيرة المباركة التي تعين - بعد الله تعالى - على تربية نشئ، سيقود المسيرة استمراراً لقيادتها القائمة الآن، فتكون في ذلك على قواعد راسخة، من قوة الشخصية والقدرات الذهنية والتجربة والخبرة، التي لا تحصل على مقاعد الدراسة، ناهيك أن تحصل في وقت لا يدري فيه الناشئ والشاب أين يقضي وقته، فلربما فكر في قضاء هذا الوقت بأي شغل يشغله، بعيداً عن التوجيه والمتابعة.

لقد أثبتت المراكز الصيفية فعاليتها في السابق، وستستمر - بإذن الله تعالى - تثبت هذه الفعالية، بحيث يُعرف الشخص الذي تخرج من المراكز الصيفية من ذلك الشخص الذي أمضى وقته وطاقاته المتفتتة هدراً، بأي شكل من أشكال الهدر.

مما ينبغي عدم إغفاله هنا أن أنشطة هذه المراكز ليست جميعها جادة، بحيث تبعث على الملل، وليست مثالية كلها، بحيث

تعين على الهروب منها، بل هي مجموعة من الأنشطة الجادة والترفيهية في آن واحد، تشبع رغبات جميع الشباب، وتسعى إلى تحقيق ميولهم ورغباتهم، وقد تخرَّج من هذه المراكز رجال في شتى الأنشطة، عندما علمت المراكز بميولهم، فنمَّتها وصقلتها وشجَّعت أصحابها، كل ذلك يقوم على مرأى ومسمع من المعنيين بتوجيه الشباب الوجهة التي يتوقَّع منهم أن يتوجَّهوها، مع التركيز والتوكيد على الاعتدال في ذلك كله، وتربية نشءٍ غظَّ على حبِّ الوطن والقيادة، التي جعلت من هذا الوطن وطن خير ونور وهدى يقوم على منهج الاعتدال والسماحة والمنهج الوسط، دون إفراط ولا تفريط.

* * *

مراجع ورد ذكرها في هذه الوقفات

١. أبو شقّة، عبدالحليم محمّد. تحرير المرأة في عصر الرسالة: دراسة عن المرأة جامعة لنصوص القرآن الكريم وصحيفي البخاري ومسلم. - ٦ ج. - ط ٦. - الكويت: دار القلم، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
٢. أحمد، أكبر. الإسلام تحت الحصار/ ترجمة عزّت شعلان. - بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٤م. - ٢٣٢ ص.
٣. أحمد، أنيس. النساء المسلمات والتعليم العالي.
٤. أرقه دان، صلاح الدين. التخلف السياسي في الفكر الإسلامي المعاصر. - بيروت: دار النفائس، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م. - ص.
٥. أسد، محمّد. الطريق إلى مكّة/ ترجمة رفعت السيد علي، تقديم صالح بن عبدالرحمن الحصين. - الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامّة، ١٤٢٥هـ. - ص ٢٦٩.
٦. الأشعل، عبدالله. المسلمون والنظام العالمي الجديد. - القاهرة: دار المعارف، (١٩٩٩م). - ١٢٨ ص. - (سلسلة اقرأ؛ ٦٤١).
٧. الألباني، محمّد ناصر الدين. صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم، كأنك تراها. - ط ١٣. - بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٨. الألمعي، زاهر بن عوَّاض. مع المفسِّرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش: دراسة تحليلية. - ط ٤. - الرياض: المؤلف، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. - ١٢٧ ص.
٩. بدران، إبراهيم. أفلو الثقافة. - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م. - ٢٩٤ ص.
١٠. بلقزيز، عبد الإله. نهاية الداعية: الممكن والممتنع في أدوار المثقفين. - الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠م. - ١٧٦ ص.
١١. بوجارت، فرانسوا. الخصوصيات لا تعني أن هناك تناقضاً جوهرياً بين القيم. - قضايا إسلامية معاصرة ع ٢٨ - ٢٩ (صيف وخريف ٢٠٠٤ - ١٤٢٥هـ). - ص ٧١ - ٨٠.
١٢. التويجري، عبدالعزيز بن عثمان. العالم الإسلامي في عصر العولمة. - القاهرة: دار الشروق، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م). - ٢٢٩ ص.
١٣. ابن تيمية، أحمد. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. - ٣٧ مج/ جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي. - الرياض: دار عالم الكتب، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
١٤. جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالإسكندرية. العولمة وموقف الفكر الإسلامي منها. - الإسكندرية: الدار المصرية، ٢٠٠م. - ٢٧٢ ص. - (أعمال مؤتمر كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية - جامعة الأزهر ٢٩ - ٣٠ نوفمبر ١٩٩٩م).

١٥. الجوهري، محمّد الجوهري حمد. العولمة والثقافة الإسلامية. - القاهرة: دار الأمين، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م. - ١٨٤ ص.
١٦. جيب، هاملتون. وجهة الإسلام. -
١٧. الحبابي، فاطمة الجامعي. تقويم تجربة التعريب في المغرب. - في: التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربية.. بيروت: المركز، ١٩٨٢م. -
١٨. حنفي، حسن. جدل الثوابت والمتغيّرات في الفكر الإسلامي. - التسامح. - ع ١٣ (شتاء ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م). - ص ١٠ - ٢٢.
١٩. الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله. إطلالة على التراث. - ج ١٥. - الرياض: المؤلف، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. - ص.
٢٠. دارة الملك عبدالعزيز. الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية: بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة في الرياض في المدّة من ٢٤ - ٢٧ رجب ١٤٢١هـ الموافق ٢١ - ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠م. - ٢ مج. - الرياض: الدارة، ١٤٢٤هـ. - ١٠٠٢ + ١٤٣ ص.
٢١. دو باسكويه، روجيه. إظهار الإسلام. - القاهرة: مكتبة الشروق، (١٩٩٤م). - ١٩٣ ص.
٢٢. دياب، محمّد حافظ. سؤال الخصوصية والكونية في الثقافة المصرية: أحوال مصر. - القاهرة: مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، ٢٠٠١م.
٢٣. روا، أوليفيه. عولمة الإسلام. - بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٣م. - ٢٢٢ ص.

٢٤. زقزوق، محمود حمدي. الإسلام في عصر العولمة. - القاهرة: مكتبة الشروق، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م. - ١٢٠ ص.
٢٥. الزبيدي، مفيد. قضايا العولمة والمعلوماتية. - عمان: دار أسامة، ٢٠٠٣م. - ٢٢٤ ص.
٢٦. السامرأئي، قاسم. الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. - الرياض: دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م. - ص ١١٠ - ١٣٧.
٢٧. السروي، السيد إسماعيل. تعريب العلوم في ضوء العبرنة الإسرائيلية. - القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٤م. - ٢١٦ ص.
٢٨. سرية، عصام نور. العولمة وأثرها في المجتمع الإسلامي. - الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٥م. - ١١٩ ص.
٢٩. سعيد، نفوسة زكريا. تاريخ الدعوة إلى العامية وأثارها في مصر. - الإسكندرية: دار نشر الثقافة، ١٩٦٤م.
٣٠. السمّك، محمد. العولمة وأثارها على الخصوصيات الثقافية. - الاجتهاد. - ع ٥٢ و ٥٣ (خريف وشتاء العام ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ / ١٤٢٢هـ). - ص ٨٣ - ٩٦.
٣١. السيّد، رضوان. التعدّد والتسامح والاعتراف: نظرة في الثوابت والفهم والتجربة التاريخية. - التسامح. - ع ١٢ (خريف ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م). - ص ١١ - ٢٠.
٣٢. السيّد، رضوان. مسألة الحضارة والعلاقة بين الحضارات لدى المثقفين في الأزمنة الحديثة. - أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ٢٠٠٣م. - ص ٩. - (سلسلة دراسات إستراتيجية؛ ٨٩).

٣٣. السيد، رضوان. الهوية الثقافية بين الثوابت والمتغيرات. - التسامح. - ع ١٣ (شتاء ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م). - ص ٢٣ - ٣٢.
٣٤. شاكر، محمود محمد. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. - القاهرة: دار الهلال، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م. - ٢٥٨ ص. - (سلسلة كتاب الهلال؛ ٤٤٢).
٣٥. الشتيوي، محمد. إشكالية الاجتهاد بين العقيدة والتاريخ (العرف والمرأة نموذجًا). - التسامح. - ع ١٢ (خريف ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م). - ص ١٥١ - ١٦١.
٣٦. الصيادي، محمد المنجي. التعريب وتنسيقه في الوطن العربي. ط ٤. - بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م. ص ١٢٨ - ١٧٩. - (سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ١).
٣٧. ضاهر، مسعود. خصوصية الثقافة في مواجهة الثقافة الكونية. - العربي. - ع ٤٣٨ (مج ٣٨) (مايو/أيار ١٩٩٥م). - ص ٥٨.
٣٨. طاهر، علاء. الخصوصية الإستراتيجية للعالم العربي. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م. - ٢٤٠.
٣٩. طاهر، علاء. العالم الإسلامي في الإستراتيجيات العالمية المعاصرة. - باريس: مركز الدراسات العربي - الأوروبي، ١٩٩٨م. -
٤٠. عاشوري، عبدالعزيز. محاولة لتقويم تجربة التعريب في تونس. في: التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظّمها مركز دراسات الوحدة العربية. - بيروت: المركز، ١٩٨٢م.

٤١. عبدالعزيز، زينب. الإلحاد وأسبابه: الصفحة السوداء للكنيسة. - دمشق: دار الكتاب، ٢٠٠٤م. - ٢٠٠ ص. - (سلسلة صليبية الغرب وحضارته؛ ٢).
٤٢. عبد الرحمن صالح عبدالله. المنهاج الدراسي: أسسه وصلته بالنظرية التربوية الإسلامية.
٤٣. عبدالموجود، محمد عزت. أساسيات المنهج وتنظيمه.
٤٤. عبد الهادي، نوال. لغة الضاد بين التشكيك والتحديث. - المجلة العربية ع ١٣٤ (٣/٤٠٩هـ - ١٠/١٩٨٨م). - ص ٩٢ - ٩٣.
٤٥. العشماوي، عبد الرحمن صالح. بلادنا والتميز: مقالات نثرية. - ط ٢. - الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. - ص ٧ - ١٤.
٤٦. العشماوي، فوزية. الحوار بين الحضارات وقضايا العصر: العولمة وآثارها على الخصوصيات الثقافية. - الاجتهاد. - مرجع سابق. - ص ٩٧ - ١١٢.
٤٧. العشماوي، محمد سعيد. إسلاميات وإسرائيليات. - القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩م. - ٢٣٦ ص.
٤٨. العوفي، محمد سالم بن شديد. تطوّر كتابة المصحف الشريف وطباعته وعناية المملكة العربية السعودية بطبعه ونشره وترجمة معانيه. - ص ٤٢٣ - ٤٦٤.
- في ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه المنعقدة في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة في الفترة من ٣ - ٦ رجب ١٤٢١هـ. - المدينة

المنورة: المجمع، ١٤٢٤هـ. - (المحور الثالث: عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم).

٤٩. عيد، عبدالرزاق ومحمد عبدالجبار. الديمقراطية بين العلمانية والإسلام. - بيروت: دار الفكر، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م. - ٢٦٤ ص. - (سلسلة حوارات لقرن جديد).

٥٠. فريد، سماح أحمد. الحداثة والتقاليد المبتدعة: رؤية لقضايا الثبات والتغير وإعادة التشكل. - التسامح. - ع ١٣ (شتاء ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م). - ص ٣٣ - ٥٣.

٥١. الفيلاي، مصطفى. تقويم تجربة التعريب في الجزائر. - ص ٢٢٩ - ٣٠٨.

في: التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمتها مركز دراسات الوحدة العربية.. بيروت: المركز، ١٩٨٢م.

٥٢. القاضي، حمد بن عبدالله. رؤية حول تصحيح صورة إسلامنا وبلادنا. - ط ٣. - الرياض: دار القمرين، ١٤٢٥هـ. - ١٢٨ ص. ٥٣. القحطاني، محمد بن سعيد بن سالم. الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف. - الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥/١٩٨٥. - ٤٧٦ ص.

٥٤. القرضاوي، يوسف بن عبدالله. المسلمون. - ع ٥٠٥ (٢/٥/١٤١٥هـ).

٥٥. كمال، ربحي. دروس اللغة العبرية. - ط ٣. - دمشق: جامعة دمشق، ١٣٨٣هـ / ١٣٦٣م. - ٦٠٠ ص.

٥٦. محمود، علي عبد الحليم. التراجُع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلُّب عليه. - المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م. - ٤٥٦ ص.
٥٧. المرسي، كمال عبدالغني. العلمانية والعولمة والأزهر. - (الإسكندرية): دار المعرفة الجامعية، ١٤١٨هـ / ١٩٩٩م. - ٢٧٩ ص.
٥٨. مرسي، محمد عبد العليم. المعلمون والمناهج وطرق التدريس.
٥٩. منصور، مناف. شرق الخصوصيات، شرق العولمة. - بيروت: مكتبة صادر، ٢٠٠٤م. - ١٧٥ ص.
٦٠. النابلسي، محمد أحمد. الخصوصية العربية والعقل الأسير. - ط ٢. - طرابلس (الشام): مركز الدراسات النفسية والنفسية - الجسدية، ٢٠٠٤م. - ١٦٤ ص.
٦١. النملة، علي بن إبراهيم الحمد. التصير: مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته. - ط ٤. - الرياض: المؤلف، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م. - ٢٤٨ ص.
٦٢. النملة، علي بن إبراهيم. الجهاد والمجاهدون في أفغانستان: وقفات تقويم. - الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م. - ١٢٤ ص.
٦٣. النملة، علي بن إبراهيم الحمد. ظاهرة النقل والترجمة في الحضارة الإسلامية. - ط ٣. - الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م. - ٢٤٨ ص.

٦٤. النملة، علي بن إبراهيم. الفكر بين العلم والسلطة: من التصادم إلى التعايش. - الرياض: المؤلف، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م. - ٢٧٧ ص.
٦٥. هورخرونيه، ك. سنوك. صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري. - ج ٢ / نقله إلى العربية وعلق عليه محمد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا، راجعه محمد إبراهيم أحمد علي. - مكة المكرمة: نادي مكة الثقافى الأدبى، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م. - ٥٦٤ ص.
٦٦. هورخرونيه، ك. سنوك. صفحات من تاريخ مكة المكرمة. - ٢ مج / نقله إلى العربية علي عودة الشيوخ، أعاد صياغته وعلق عليه محمد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا. - الرياض: دار الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م. - (سلسلة مكتبة الدارة المثوية).
٦٧. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مركز البحوث والدراسات الإسلامية. عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم. - الرياض: المركز، ١٤١٨هـ. - ١٢٥ ص. - (سلسلة شهادات؛ ١).
٦٨. وزيرى، يحيى حين. أم القرى: خصوصية المكان والعمران. - الرياض: المجلة العربية، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م. - ٣٢ ص. - (سلسلة كتيب المجلة العربية؛ ١٠٢).
٦٩. ولد أباه، عبدالله السيد. الحداثة والكونية: جدل الخصوصية والعالمية في المقاربة التحديثية. - التسامح. - ع ١٣ (شتاء ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م). - ص ٥٤ - ٧٤.

السعوديون والخصوصية

٣١٢

٧٠. يمانى، هانى أحمد زكى. السعودي. - بيروت: دار الساقي،
١٩٩٩م. - ص.